كلمة العدد

الشمال .. والجنوب وتحديات الألفية الثالثة

بقلم : سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

شهور قليلة ويطل علينا القرن الجديد بتحدياته الخطيرة وهي تحديات بدأت بالفعل منذ فترة . . فالانتقال من قرن إلى قرن جديد ليس قفزة ينتقل بها الإنسان من شاطئ إلى شاطئ . . وإنما هو انتقال يتكور فيه زمن على زمن كتكور الليل والنهار . .

وقد بدأ الاستعداد لاستقبال الألفية الثالثة منذ سنوات وإن كنا في العالم العربي وكالعادة قد بدأنا متأخرين . . وأول ظاهرة تواجهنا من ظواهر القرن الجديد هي أنه – وكما تؤكد تباشيره – هو قرن الكيانات العملاقة، فأوروبا التي احتكرت معظم الصراعات في القرن الأخير وكانت بؤرة

الحربين العالميتين جمعت صفوفها ووحدت كلمتها وأزاحت جانباً وإلى حدٍّ بعيد خلافاتها التقليدية . . أقامت السوق المشتركة . . وحَّدت العملة . . وضعت الإجراءات الحمائية الكفيلة بحماية أسواقها ومنتجاتها . . عززت الترابط بين سياساتها الخارجية وخلقت كياناً عملاقاً يقف الآن على مشارف القرن وهو على أهبة الاستعداد .

وأمريكا التي تتربع الآن على عرش القطب الواحد والتي كانت في مقدمة الصفوف للمسيرة الإنسانية نحو الغد القادم . . أحكمت ومنذ سنوات استعداداتها وقد عملت مؤسساتها على أن تظل هي القوة المهيمنة لدرجة أن البعض أطلقوا شعار أن القرن القادم هو القرن الأمريكي . . فالمؤسسات الاقتصادية وضعت أقدامها ومن الآن في كل مكان بالعالم والمؤسسات المالية أحكمت قبضتها على عنق جميع المؤسسات المالية في كل مكان . . فمعظم أرصدة العالم في بنوكها وبكلمة يعلو سعر الدولار أو ينخفض وتعلو معه أو تهوي كل الكيانات الصغيرة على امتداد الكرة الأرضية .

والمؤسسات الاجتماعية بإمكانها الآن أن تلبس شباب العالم الجينز وتطعمهم الهامبورجر . . وبإمكانها وفي لحظات أن تغير ذلك إلى لباس جديد وطعام جديد . فالمؤسسات الإعلامية تخدم أغراضها بكفاءة واقتدار .

الشمال إذن أنهى استعداداته أو كاد . . فماذا فعل الجنوب، ونحن جزء منه ؟ !

عندما استيقظت آسيا وأرادت أن تنسج على المنوال الأوروبي كانت كارثة إندونيسيا التي عصفت بالمؤسسات المالية فيها وأشرفت بها على هاوية الإفلاس بعد أن تحولت استثماراتها إلى ناطحات سحاب لا تجد من

يسكنها أو يقدر على أن يسكنها وخرجت من السباق وهي لم تكد تدخل فيه . .

والكيانات الكبرى وحتى قبل أن تفكر في الاستعداد، أثيرت بينها العداوة الكامنة وتوترت الأوضاع على الحدود الهندية الباكستانية . . والبؤر الصغيرة الخامدة دبت فيها الحياة فجأة وبدأ الكل يحمل السلاح وتتمزق في ظل ذلك كل الصفوف . فالجنوب يجب أن يظل ممزقاً ومتخلفاً ومنقسماً ومجرد تكدس بشري ضخم مستكين وخاضع للشمال القوي الغني المتحد المتفاهم على تقسيم الأسواق والهيمنة على القرن الجديد .

ونحن في العالم العربي نرى ذلك ونفهمه ونعيه جيداً ولكننا لا نحرك ساكناً فالاتفاقية العربية لتحرير التجارة مازالت دراسات في ملفات تفتح في الاجتماعات، ثم تغلق في انتظار اجتماع جديد . والسوق العربية المشتركة حلم يطوف في سماء الفكر الاقتصادي العربي تنظم فيه القصائد والأهازيج وهي تراوح في مكانها لا تريم والخلافات العربية - العربية مرض عجز كل الأطباء والحكماء عن علاجه أو حتى تسكين آلامه وآثاره . . والصف العربي الواحد يتفتت ويتمزق على الحدود العربية بين الأشقاء في خلافات حول أمتار من الأرض .

لقد حان الوقت في العالم العربي لوقفة حاسمة مع النفس، وإجراءات سريعة وحازمة لمواجهة القرن الجديد وربما كان في مقدمة هذه الإجراءات القضاء مرة واحدة ونهائياً على جميع الخلافات العربية العربية . وأعتقد أن الوقت أصبح مهيأً لقمة عربية شاملة يجلس فيها القادة العرب الأشقاء ليستعرضوا مواطن الخلاف القائمة حالياً بروح الأخوة والعدالة معاً ثم

ليقولوا فيها كلمتهم التي يلتزم بها الجميع فالصف الواحد هو أول الضرورات للزحف الجديد ومواجهة القرن الجديد فرادى خطر يهدد الجميع فالكيانات العملاقة لن ترحم الوحدات الصغيرة والكيانات الصغيرة نفسها لن تقوى على مواجهة هذه الكيانات الكبيرة التي تتحين الفرص لافتراسها والهيمنة عليها . . إن الخلافات العربية أصبحت ظاهرة شاذة وهي أمر ليس في صالح الجميع وأي مشكلة مهما كبرت لابد لها من حل إذا خلصت النوايا وحسنت النيات وحسن النيات هنا أصبح ضرورة حياة أو موت وليس من الحكمة - والعرب هم أرباب الحكمة - أن يضيع المستقبل كله من أجل خلافات صغيرة يمكن حلها في جلسة واحدة على مائدة مستديرة .

لقد دخلت أوروبا حربين عالميتين جرّت معها فيهما العالم كله وقضت إحداهما فقط وهي الحرب العالمية الثانية على ٤٥ مليوناً من البشر وكان ذلك كله من أجل الصراع على حدود بين دولتين . . هذه الحدود نفسها التي لم تعد شيئاً مهماً فقد تلاشت ضمن خطوات استعداد أوروبا لاستقبال القرن الجديد . لقد كانت الحدود تمتد وتتراجع في القرنين الماضيين مع نشوء الإمبراطوريات وتوسعاتها ثم انهيارها والقرن القادم لن يكون قرن الإمبراطوريات السياسية . فقد أصبحت تلك الإمبراطوريات مجرد صفحات في التاريخ . والكيانات العملاقة الجديدة كيانات لا تقف أمامها الحدود الجغرافية ولا تعوقها البوابات الجمركية . . وقد كانت مشاكل الحدود في العالم كله من إفرازات الإمبراطوريات السابقة في القرن التاسع عشر ولم يعد منطقياً أن تختفي تلك الإمبراطوريات وتبقى إفرازاتها . . لقد صنعوا هذه المشاكل وكانوا يعلمون أنها يمكن أن تخدم أهدافهم في يوم ما وليس من الكرامة أن يسمح العالم العربي - والعرب هم صناع الكبرياء - أن تظل

انعكاسات المؤامرة الاستعمارية قائمة وفعالة حتى بعد أن تحررت الإرادة العربية واستقلت الأرض العربية .

حقيقة هناك بعض الجروح . ولكن الإرادة العربية قادرة على تجاوز الألم فالهدف كبير والخطوة المطلوبة هي خطوة مصير، نكون أو لا نكون، وهو أمر يدعو الجميع للسمو فوق الآلام وتجاوز كل ذيول المحنة وفتح العقول والقلوب لإحساس يمحو ما خلفه الأمس في الجسد العربي الكبير . مع الإدراك بأن العمق الإسلامي أساس متين للتحرك نحو المستقبل المنشود فالإسلام عباءة يمكن أن تظل الجميع وتوفر لهم الأمن وتتيح لهم حشداً أكبر لمواجهة التحديات القادمة وإزالة النزاع القائم على حدود المشرق العربي مدخل رئيسي للقرن القادم وهو نزاع يدخل في منظومة النزاع المنتشر هنا وهناك وهو نزاع الحدود وعلينا أن نتذكر بعمق أن الدولة الإسلامية في عصرها الذهبي كانت ساحة عريضة واحدة تضم شعوباً عديدة لا تفرق بينهم حدود ولا تمزقهم سدود، ولا ترسم خطواتهم جوازات سفر ولا يقلقهم اختلاف العملات وتباين النقد وهو ما تفعله الآن أوروبا التي مزقت دول العالم الإسلامي ووحدت بين دولها وصنعت مختلف الهويات للشعوب الإسلامية والعربية وتعمل اليوم على إيجاد هوية واحدة لجميع شعوبها واصطنعت عشرات العملات للدول الإسلامية ووحدت اليوم عملتها . فهم يستفيدون من تاريخنا الماجد ونحن ننسج على منوال تاريخهم المشين . يسيرون على منهج الوحدة الإسلامية ونحن نقلد عصر الصراعات الأوروبية .

إن علاقة الدول العربية بدول العالم الإسلامي يجب أن تتخذ لها بعداً جديداً في القرن القادم فلم يعد يكفي القول بأننا أمة واحدة أو استعادة الماضي الجميل والتغني به شعراً ونثراً ولم يعد يكفي مجرد تبادل الأمنيات

الطيبة . بل يجب حشد الإمكانيات والتنسيق بينها والإسراع في الخطوات التي بدأت التحرك منذ سنوات ولكن على استحياء نحو السوق الإسلامية وتنشيط الصادرات بين دول العالم الإسلامي وتنشيط التبادل التجاري وخلق نوع من الوحدة على الأقل في المجالات التي لا تفجر خلافات مثل المجالات الإعلامية والثقافية والسياحية . . ومحاولة تنسيق المواقف وخلق حد أدنى من الاتفاق والتعاون والتنسيق . إن القرن الجديد يحث الخطى ويطل بكل تحدياته ولم يعد يكفي الآن الحديث مجرد الحديث أو استعراض الأمنيات بل إن العمل، والعمل الجاد السريع والمتواصل أصبح ضرورة إذا كنا نريد حقاً أن نحجز لنا مكاناً بين الأقوياء وإذا كنا حريصين حقاً على أن نحمي أنفسنا وأجيالنا مما يعد له الأقوياء.

عبد الله بن خالد آل خليفة

التحقيق في تاريخ أو توقيـ
لتوحيد الجزيـ

بمقارنة المصادر المطبوعة بالوثـ

[من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا]

لقد خلد التاريخ ذكرهم، وإن آثارهم المادية والمعنوية دالة عليهم. فهي تحكي سيرة رجال عاهدوا الله تعالى أن يسيروا على هدي كتابه وسنة نبيه فزادت دولتهم قوة إلى قوة عدَدِها وعُدَدِها، وسمت نفوسهم على الماديات إلى معنويات فأصبح هدفهم واحداً وهم مستميتون في سبيل تحقيقه. ومن هؤلاء القادة الملك (عبد العزيز) رحمه الله فهو الذي وجد قومه متفرقين يغزو بعضهم بعضاً فوحدهم، ووجد الدخيل الأجنبي يحاول أن يجعل له



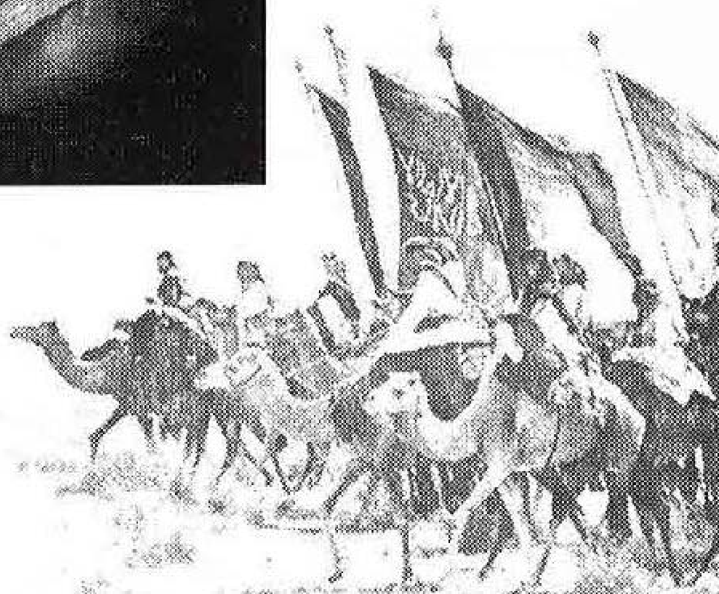
...ت حروب الملك عبد العزيز
...دة العربية



...ائق المخطوطة

إعداد :

أ.د. علي عبد الرحمن أباحسين



الوثيقة - ١٥

موطأ قدم فأبى إلا أن يحقق ما يصبو إليه وهو طرد الأجنبي وتوحيد الجزيرة العربية، ورسم خطة حكيمة لتحرير البلاد وتوحيدها تحت راية [لا إله إلا الله]، فكان الله في عونه وعون أبنائه وأتباعه وأعوانه وقومه الذين التفوا حوله يدافعون عن بلادهم ويعيدون الحكم لأهله . فوحد البلاد وأمَّن طرق العباد ورزقهم الله من فضله حتى أصبحت الدولة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

في هذا البحث سوف نلقي الضوء على أهم الحوادث التي تطرق إليها الباحثون، ثم نقارنها برسائل الملك عبد العزيز رحمه الله وذلك للتوصل للحقيقة التأريخية ومن تلك الحوادث استعادة كل من :

١ - الرياض .
٢ - مكة المكرمة .
٣ - المدينة المنورة .
٤ - ينبع .
٥ - جدة .
٦ - عسير .
٧ - تحقيق في طلب الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود الإقامة في (الزبير) أو (الكويت) .
٨ - تحقيق في تاريخ وفاة الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود .

تمهيد

لما كـــان التـاريخ في اللغـة هـو التوقيت . فيقال أرخ الكتاب يؤرخه أي وقّته وجعل له تاريخاً . فالتاريخ تعريف الوقت[1] . أما علم التاريخ : فيتضمن ذكر الوقائع ولاسيما ما كان منها متعلقاً بالقبائل والأقاليم مع تعيين أوقاتـها وبيان أسبابها ومسبباتها . ولتوخي الدقة في تسجيل هاتيك الوقائع ، لابد من الاعتماد على من يكون قريباً من (زمان ومكان) الواقعة التي يشهد وقوعها بشكل مباشر . فهو في الغالب أكثر دقة في تدوين الحوادث من البعيد في الزمان أو المكان أو فيهما معاً . مع العلم أن كثيراً ما يفتقد المؤرخ القريب من الحادثة زماناً ومكاناً إلى الدقة والأمانة ، وبخاصة في القضايا التي تتعلق بالعقيدة الدينية أو المذهبية أو السياسية .

ومصادر التاريخ كثيرة ومنـها : (الوثـائق) و (الكتـب المخطـوطة والمطبوعة) .

ولاشك أن (الوثائق) من المصادر الأولى في كتابة التاريخ وإن اختلفت في أهميتها وفقاً للزمان والمكان الذي وقعت فيه الحوادث أو بما تحويه من معلومات عن أشخاص أو مواضع أو وقـائع تاريخية . فمن الوثـائق : التقـارير والرسائل التي يكتبها الحكام والسفراء والقناصل والمعتمدون السياسيون والوكلاء اعتمادا على مخبريهم ، وهنا ، يدخل فيها عامل التحيز المقصود أو غير المقصود لأنهم يكتبون والحالة هذه وفقاً لمنظورهم أو سياسة البلاد التي ينتمون إليها . وأحياناً يكتب لهم الخبر شخص لا يتحرى الدقة في كتاباته فتأتي مخالفة للحقيقة أو بعيدة عنـها . ولما كـان الباحث في التاريخ يبحث عن الحقيقة أينما كانت ليصل إلى القرار النهائي . فالوثيقة هي التي تكشف عن حقيقة الماضي سواء كانت مكتوبة بالحروف أو كانت خريطة أو صورة على ورق أو مصورة على شريط مرئي أو مسموع أو محفورة على حجر أو نحو ذلك . فهي التي تدل الباحث على الحقيقة المنشودة ، ومن هنا ظهر الاهتمام بالوثائق والحفاظ عليها وتخزينها على ميكروفيلم

وعمل فهارس لها . وكلما كانت الوثائق أو الرسائل مكتوبة بخط أصحاب الشأن أو مختومة بأختامهم كتبت بنفس الزمان موضوع البحث وبنفس المكان كانت في الغالب أكثر دقة واعتمد عليها الباحثون إلى حد كبير لأنها تؤرخ أحداثاً وتصف وقائع وصفاً قريباً من الحقيقة إن لم تكن هي الحقيقة نفسها، لأنها تمتاز والحالة هذه بالدقة في التوقيت والوضوح في الوصف وكتبت من شاهد عيان . وبين أيدينا عشرات من الوثائق والرسائل الأصلية غير المصورة والمحفوظة في مركز الوثائق التاريخية في البحرين ونرفق منها ما يتعلق بالبحث، وهي مختومة بختم الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود وعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود طيب الله ثراهما، وبعد دراستها وجدنا أن في بعضها إشارة إلى أشخاص أرسلت معهم الرسائل وتم استلام الجواب من يد آخرين . ولدى تحقيقنا وجدنا أن أولئك الرسل الذين حملوا رسائل الملك عبد العزيز أو الذين سلموا له الرسائل من الشيخ عيسى بن علي آل خليفة شيخ البحرين، كانوا أشخاصاً ثقاة يعتمد عليهم بدليل أن بعض الرسائل تشير إلى أن المرسَل متروك له تفاصيل ما أوصى به كقوله : *"والباقي من رأس هذلول"* .

وقوله : *"وباقي الحقائق من رأس عبد اللطيف المنديل شفاهاً"* في رسالة حررت في ٢٥ رجب ١٣٣٢هـ . وفي رسالة أخرى ذكر : *"والأخ عبد اللطيف المنديل بعد كم يوم يتوجه إلى الحسا ومنه إلى طرفكم وإن شاء الله يبلغكم شفاهاً روابط المواد بيننا وبين الحكومة"* حرر في ٢٠ رجب ١٣٣٢هـ . وقوله : *"والباقي من رأس حمود"* ورد ذلك في رسالة الملك عبد العزيز المؤرخة في ٢ ذو الحجة ١٣٢١هـ . بينما يحمل المرسَل رسالة لا تعدو كلماتها عن عبارات المجاملة فقط . وكان أولئك الرسل في مستوى المسئولية لتبليغ الرسالة إلى الملك أو لشيخ البحرين ومنهم : محمد بن ذهيبان، وسالم المطوع[٢]، ومحمد بن ثنيان[٣]، وعبد الله بن جلوي[٤]، وعمر بن عبد العزيز السويلم[٥]، وعبد اللطيف المنديل[٦] وعبد العزيز القصيبي[٧] . فقد جاء في رسالة نقلها عبد العزيز القصيبي قوله : *"إن ما أوصيتم به عبد العزيز القصيبي قد بلّغنا إياه وأوصينا المذكور بما يلزم"* . وورد في رسالة حملها زيد بن ربيعة وفيها : *"أن حامل كتابنا هذا من آل ربيعة القيمين في الزبير وأعرف حضرتكم به لينوب عني بمعرض احتراماتي فالرجاء استبقاء توجيهاتكم*

لنحوه"(٨) . ونقل عبد الرحمن القصيبي رسائل من الملك إلى شيخ البحرين(٩) . وفي جواب من شيخ البحرين إلى الملك نقله بشر بن رحمه الجلهمي(١٠)، وعبد العزيز الرباعي(١١)، وعبد الرحمن بن محمد البسام(١٢)، وعبد العزيز العومي(١٣)، وهذلول، وعبد الله نادر، ومحمد بن زيد، وسليمان الشبيلي وغيرهم(١٤) . وإن التعريف بهم يحتاج لبحث نتركه للباحثين بعد اطلاعهم على رسائل الملك عبد العزيز والدور الذي قاموا به .

ويلاحظ أن الملك عبد العزيز يثق كل الثقة بالشيخ عيسى بن علي آل خليفة بدليل أنه يخبره عما سوف يقوم به من عمليات عسكرية . فقد ورد في رسالة مؤرخة في ١٠ ربيع ثاني ١٣٣٢هـ قوله : "*سوف نثور بعد ٤ أو ٥ أيام إن شاء الله حنا وجميع أهل نجد ورباعنا إن شاء الله ببطن هالديرة (يعني القطيف) حدر نرجو من الله التوفيق*" .

وورد في رسالة مؤرخة منه في ١٣ محرم ١٣٣٢هـ قوله "*وحنا حالاً مثورين على بركة الله حنا وجميع أهل نجد وحادرين مرباعنا إن شاء الله من القطيف إلى الحسا نرجو من الله التوفيق*" .

وسوف أستعرض طرفاً من تلك الرسائل مقارناً ما ورد فيها مع ما ذكر في الوثائق والتقارير الأجنبية أو مع ما نشر في كتب كتبها كُتّاب اعتمد بعضهم على أقوال من شهد أو اشترك في الأحداث التاريخية في عهد الإمام عبد الرحمن بن فيصل وابنه الملك عبد العزيز كما اعتمد البعض الآخر على تقارير سنوية من حكومة الهند البريطانية(١٥) .

استعادة الرياض

لقد كان الملك عبد العزيز يخطط للقيام بحملة لتحرير بلاده - بلاد آبائه وأجداده - ويمهد لها سياسياً حين اتصل به قبطان الطراد الروسي (أسكولد) في عام ١٩٠١م رمضان ١٣١٩هـ وعرض عليه القبطان عقد اتفاقية معه ولكن الملك امتنع لكيلا يؤدي ذلك إلى تألب الإنجليز والعثمانيين ضده وقد أشار

الشيخ مبارك آل صباح في الكويت برسالته التي أرسلها إلى (أوفسينكو) القنصل العام الروسي في الخليج وأكد ذلك فؤاد حمزة حيث قال له الملك : *"أنني طوال شهر شعبان إلى ٢٠ رمضان ١٣١٩هـ كنت في الربع الخالي ومن هناك توجهت صوب الرياض"*(١٦) . وكان (لوريمر) يحدد زيارة قبطان الطراد (أسكولد) في ١٤ ديسمبر ١٩٠٢م الموافق ١٢ رمضان ١٣٢٠هـ(١٧) . وذلك بعد استرداد الرياض على يد الملك عبد العزيز في الخامس من شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٥ يناير ١٩٠٢م . وقد أرسل الإمام (عبد الرحمن الفيصل) خطاباً إلى القنصل العام الروسي في بوشهر بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٣١٩هـ الموافق ١٨ فبراير ١٩٠٢م - أي بعد شهر تقريباً من ضم الرياض - تأكيداً للصداقة كما يخبره : *"أنه من فضل الله استولى الأولاد على الرياض وأخرجوا أوادم ابن رشيد منها"*(١٨) . هذه الرسالة أرسلت بيد محمد بن عبد الوهاب الفيحاني، الذي أبقى لديه الرسالة حتى ٢٣ صفر ١٣٢٠هـ الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢م . والذي لم يكن يعرف أو سبق أن كاتب القنصل العام الروسي، حتى إذا ما صارت مع القنصل مكاتبة أرسل رسالة الإمام عبد الرحمن له فاستلمها متأخرة أي بعد أكثر من أربعة أشهر من كتابتها، فكان لهذا التأخر أثره حين حدث اتصال بين الإمام عبد الرحمن الفيصل مع القنصل الروسي العام في الكويت والذي عرض عليه المال والسلاح فرفض الإمام عبد الرحمن عرض القنصل الروسي وتحتفظ الوثائق البريطانية بنسخة من رسالة الإمام عبد الرحمن الفيصل الموجهة إلى المقيم السياسي في الخليج (كامبل) والمؤرخة في ٥ صفر ١٣٢٠هـ الموافق ١٤ مايو ١٩٠٢م وهي تشير إلى الاتصال الذي أجراه الإمام عبد الرحمن مع القنصل الروسي أوفسينكو في الكويت، وقد عرض القنصل الروسي على الإمام عبد الرحمن المساعدات فرفض العرض . وكان القنصل قد طلب من الإمام عبد الرحمن أن يكتب له رسالة يصف فيها سوء معاملة العثمانيين له والمساعدة التي قدموها لابن رشيد ضده، فرفض الإمام ذلك . وقد أراد ابن سعود بذلك وقوف الدول العظمى كبريطانيا وروسيا إلى جانبه ضد ابن

رشيد، بينما أراد الروس تحقيق نشاطهم وطموحاتهم في المنطقة[19] . ولذا فإن عرض روسيا جاء متأخراً بسبب تأخر استلام الرسالة التي تذكر استعادة الرياض . وإن الشيخ مبارك آل صباح أرسل خطاباً للقنصل العام الروسي في بوشهر (أوفسينكو) يخبره أن عبد العزيز ووالده الآن في بلدهما الرياض وإنه سوف يبلغ الإمام عبد الرحمن الفيصل تحيات القنصل العام الروسي أوفسينكو، وإن جميع أهالي نجد وعشائرها أدخلوا آل سعود ورغبوا فيهم وأعطوهم الطاعة . ويستطرد الشيخ مبارك في رسالته بقوله : *"وفي الأول من شهر شعبان ١٣٢٠هـ حدثت معركة مع ابن رشيد فقابله الملك عبد العزيز بينما بقي والده في الرياض مقر الحكم .*

وبعد ثلاثة أيام من المعارك انكسر ابن رشيد وقتل من عسكره من أهل بلد حايل ثلاثمائة وعشرون نفراً وانهزم ابن رشيد ليلاً وترك الخيام والجمال والخيل . وحالياً ابن رشيد بين بلده والقصيم وأحواله متناقصة وتضرر كثيراً وجميع العشائر نفروا منه حتى رفاقه عافوه واتجهوا صوب عنزة من جهة بلاد الشام وما بقي معه إلا القليل . وسوف يكتب لكم الإمام عبد الرحمن آل فيصل مكتوب ويرسله لحضرتكم مع مرسوله الخاص لأجل إنضار دولتكم عليه قبل الغير حسب مواجهتكم له بالكويت في شهر رمضان من العام الماضي ١٣١٩هـ" . هذه الرسالة كتبها الشيخ مبارك آل صباح بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٢٠هـ الموافق ١٦ ديسمبر ١٩٠٢م[٢٠] . ومن هنا يتضح أن مقابلة القبطان الروسي (أسكولد) للإمام عبد الرحمن ما يثبته خطاب الشيخ مبارك في رمضان ١٣١٩هـ عام ١٩٠١م . وأن لوريمر قد جانب الحقيقة فجعل زيارة (أسكولد) في عام ١٩٠٢م .

فالرسالة التي أشار إليها الشيخ مبارك هي التي أرسلها الإمام عبد الرحمن الفيصل قبيل استرداد الرياض بشهر أي في رمضان ١٣١٩هـ ويبدو أن القنصل العام الروسي (أوفسينكو) لم يستلمها أو نحن لم نعثر عليها بعد . ومما يؤكد ذلك الرسالة التي أرسلها الشيخ مبارك إلى شيخ البحرين في ١٧ شوال ١٣٢٢هـ الموافق ٢٦ ديسمبر ١٩٠٤م والتي يذكر فيها أنه كتب للإمام عبد الرحمن الفيصل أن يتوجه إلى الكويت للاجتماع في مكان ما قرب سفوان (الزبير) بتاريخ ٥ و٦ ذي القعدة

وبحضور والي البصرة ممثلاً للباب العالي العثماني وذلك للمذاكرة في تسوية الأمور في نجد وما فيه إصلاح العباد والبلاد والاطمئنان وحقن دماء المسلمين[٢١].

ويذكر (لوريمر) قوله : "*وفي ١٥ يناير ١٩٠٢م استطاع الملك عبد العزيز أن يسترد الرياض باسم أبيه عبد الرحمن وعدد رجاله لا يتجاوزون ٨٠ رجلاً . فقتل حاكم الرياض وتم طرد حاميات ابن رشيد في الخرج والحريق. وأعلن ابن سعود للباب العالي أنه سيحكم البلاد التي حررها*[٢٢] *بينما ذكر آخرون أن عدد رجال عبد العزيز كان ٤٠ رجلا وقيل ستين رجلا . وفي برقية عثمانية طلب الإمام عبد الرحمن الفيصل السماح له ولرجاله البالغ عددهم أربعين رجلا وأفراد أسرته أن يقيموا في مدينة الزبير أو الكويت*"[٢٣].

وعن زيارة الطراد الروسي (بوبارين) للكويت في الفترة بين ٤ - ٨ مارس ١٩٠٣م ٤ - ٨ ذي الحجة ١٣٢٠هـ. وأثناء هذه المناسبة عقدت مناقشات بين القنصل العام الروسي في بوشهر والأمير عبد العزيز آل سعود الذي كان في الكويت آنئذ على ما أورده (لوريمر)[٢٤]. ولدى الرجوع إلى الوثيقة المرفقة صورتها والمحفوظة في الأرشيف الروسي وهي رسالة جوابية من الإمام عبد الرحمن الفيصل (والد الأمير عبد العزيز) وفيها يخبر قنصل دولة روسيا في بوشهر (قودان) بتاريخ ٩ ذي الحجة ١٣١٩هـ الموافق ١٨ فبراير ١٩٠٢م أن الأمير عبد العزيز استرد الرياض وأخرج أوادم (رجال وأتباع) ابن رشيد منها، ويتفق المؤرخون على أن ذلك حدث في يناير ١٩٠٢م[٢٥]. فكيف كان الأمير عبد العزيز آل سعود في الفترة من ٤ إلى ٨ مارس ١٩٠٣م - على حد قول لوريمر - في الكويت يجتمع مع القنصل العام الروسي بينما واصل الأمير عبد العزيز حروبه في نجد، فلم تذكر المصادر ذلك اللقاء والمناقشات مع القنصل العام الروسي في ١٩٠٣هـ. وفي هذه الفترة طلب الشيخ مبارك آل صباح النجدة من عبد العزيز فجاءه مسرعاً بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل لحرب ابن رشيد الذي توجه إلى الرياض. إلا أن الإمام عبد الرحمن وأهل الرياض هزموا ابن رشيد وأعوانه فنجت الرياض. وأسرع عبد العزيز للرياض ثم اتجه لفك الحصار عن (شقراء) واستولى عليها ثم (ثرمدا) و (الروضة) و (جلاجل) ودانت له مدن (الوشم وسدير) واحدة بعد الأخرى[٢٦].

هذه الأحداث المتواصلة لم تدع لعبد العزيز فرصة للاجتماع بالقنصل العام الروسي ويبقى التساؤل فقط عما ذكره لوريمر حول زيارة الأمير عبد العزيز في هذه الفترة للكويت واجتماعه بالقنصل الروسي ؟ .

وللتسلسل التاريخي نذكر سقوط (الطائف) فقد حدث في اليوم السابع من شهر صفر عام ١٣٤٣هـ بعد أن خرج منها الأمير علي وهرب إلى الهدي فدخلت قوات التوحيد المدينة . وصلى الموحدون صلاة الظهر في مسجد ابن عباس ونادى المنادي بالأمان فاستسلمت الطائف(٢٧) .

دخول مكة المكرمة

رحم الله الملك عبد العزيز الذي رفع راية التوحيد خفاقة فوق الجزيرة العربية، بعد أن وحدها تحت قيادته الحكيمة . وترك لنا سفراً خالداً من الرسائل التي ختمها بخاتمه، وأرخها باليوم والشهر والسنة، وهي تحكي تاريخ حروبه ومعاركه حين كتب يقول : *"حدثت المعركة (ضحى) أو في (السحر) أو عند (الفجر) بدقة التوقيت التاريخي"* . وحين راجعنا ما تيسر من الكتب التي دونت وأسهبت في ذكر المعارك التي قادها الملك عبد العزيز رحمه الله. وجدنا اختلافات في التوقيت التاريخي أحياناً، أو في النصوص التاريخية أحياناً أخرى .

وعلى سبيل المثال فقد أورد بعض المؤرخين : بأن (وصول السلطان عبد العزيز إلى مكة المكرمة ودخوله إليها محرماً مع حاشيته كان في (السابع) من شهر جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ(٢٨). بينما ذكر الشيخ حافظ وهبة الذي كان مستشاراً لجلالة الملك أن وصول جلالته إلى مكة المكرمة كان في اليوم الثامن من شهر جمادى الأولى ١٣٤٣هـ الموافق للخامس من ديسمبر ١٩٢٤م . ومثله كتب خير الدين الزركلي(٢٩) .

أما (الأطلس التاريخي للدولة السعودية) فقد جعل دخوله وبصحبته رعاياه محرمين في اليوم الثامن من جمادى الأولى ١٣٤٤هـ الموافق للخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٢٥م ثم نجده

يجعل دخوله في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ، الموافق للخامس من ديسمبر ١٩٢٤م[٣٠] . وفي الرحلات الملكية أن دخول جلالته إلى مكة كان عشاء يوم الخميس من ليلة الجمعة الثامن من جمادى الأولى ١٣٤٣هـ . وهنا اختلف ما ذكره المؤرخون في قولهم أن دخوله في السابع من جمادى الأولى أو الثامن منه . أو القول في اليوم الثامن من جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ في صفحة من (الأطلس التاريخي) وعام ١٣٤٣هـ في صفحة أخرى. وهذا يعطينا توقيتاً آخر وربما ذلك خطأ طباعي . وعن (تذكرة أولي النهي والعرفان) الذي جعل جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ دخول جلالته للأبطح في مكة المكرمة[٣١] .

والآن نحو الخبر اليقين في رسائل الملك عبد العزيز رحمه الله . فقد ورد في رسالة عنه إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين مؤرخة في ٢٨ ربيع أول ١٣٤٣هـ الموافق للسابع والعشرين من أكتوبر ١٩٢٤م مختومة بخاتم الملك ومحفوظة في مركز الوثائق التاريخية في البحرين وصورة منها مرفقة بالبحث، ومما جاء فيها : بعد الديباجة والبشارة بدخول مكة ذكر أفعال (الحسين بن علي) ومنعه أهالي نجد عن حج بيت الله مدة (سبع سنوات) من أداء فريضتهم، وظلمه وجوره تجاه الحجاج، فلما رأى أهل نجد إصراره وتماديه على ظلمه لم يروا بداً من تجريد السيف بوجهه، وعزمو على تمشاه جيش من الموحدين . وفعلاً مشى الجيش ثم استولى على الطائف وكان في استطاعة الجيش التقدم لمكة، ولكن احتراماً لحرم الله وحرصاً على عدم إراقة الدماء . فاتبعوا الدعوة للحق والتخلي عن الجور، حتى خلع الحسين وفر ابنه بنفسه ليلاً سراً .

وطلب أهالي مكة أن يدخل جيش ابن سعود مكة فدخلوها محرمين والناس يبيعون ويشترون في أسواقهم ولم يسفك دم ولم يؤخذ مال . وختم الرسالة بأن قصدنا تطهير بيت الله الحرام وأن يكون حراً لكل قاصد . . . على ما فيه راحة وأمان الحجاج وساكني مكة المكرمة ومجاوري الحرم .

باسمه

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب الاجل الاعلى الاكرم الافخم الاخ الشيخ عيسى بن علي الخليفة المحترم سلمه الله تعالى آمين

بعد اهدا مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر لازلتم بكمال الصحة وتمام السرور

وعنا نحمد الله يسرنا ان نعرف حضرتكم بحصول النصر المبين خير اخبار ناجحة واجد ما يوجب اثارة مسرتكم فقد ليس خافيا

على حضرتكم افعال الحسين ابن علي ومنعه اهالي نجد عن حج بيت الله مدة سبع سنوات وما ياتيه من الظلم والجور تجاه

حجاج بيت الله مما لا يخفى على احد فلما رأى اهل نجد اصراره على ذلك وتماديه في ظلمه لم يروا بداً من تجريد السيف

من وجهه وبعد مشيئة الله عزموا على انشاء جيش من المسلمين لتطهير بيت الله من دولة الجور والظلم ونفذ هذا

الجيش واستولى على الطائف بمعونة الله وتوفيقه وكان في استطاعته التقدم الى مكة المكرمة ولكن احتراما لحرم الله حرصا

على عدم اراقة الدماء جعلوا يسايرون الامور ويدعون الناس الى اتباع الحق والتخلي عن اهل الجور والعسف حتى

فهم الناس ذلك وخلع الحسين وتبعه ابنه فارا بنفسه ليلا بدون ان يعلم به احد وقد سرع اهالي مكة المكرمة

واتصلوا بالجيش النجدي بالخبر يخبرونهم ويدعونهم للتقدم اليهم فاقدم جند المسلمين وتم دخول الامكنة لنا مع الناس

وتطمينهم ودخلوها محرمين ملبين احرامهم بكل ادب وتعظيم خاضعين رؤوسهم ذلاً وهيبة لجلاله تعالى وتقدس

وتعظيما لبيته المحرم واتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا يبصرون ويطوفون والاهالي يسيرون ويغدون

ويبيعون في اسواقهم ويشترون لم يسفك دم ولم يؤخذ مال ولم تتغير حالة من الاحوال فله سبحانه الحمد والمنة

على تتابع نعمه وتطهير بيته المحرم الذي غاية قصدنا ان يكون حرا لكل قاصد وان تكون ادارته حسب ما نتراجع

به نحن والعالم الاسلامي على ما فيه راحة واطمئنان لحجاج بيت الله وامن كسبه ومجاوريه واصلاح البلد ونفعنا الله واياكم

لما فيه الخير هذا ما احببنا بشارتكم به والرجا ابلاغ السلام للاولاد الكرام كما منا سيدي الوالد والاخوان والعيال يسلمون

ودمتم محروسين

١٣٤٣

٢٨ ربيع [illegible]

٢٤/ اكتوبر ١٩٢٤م

أسباب استعادة مكة المكرمة على يد الملك عبد العزيز

أما أسباب استعادة مكة المكرمة على يد الملك عبد العزيز فهي :

١ - حرمان أهل نجد من أداء فريضة الحج لسبع سنوات كما ورد في رسالة الملك المؤرخة في ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٣هـ .

٢ - ما يتعرض له المسلمون من أهالي مكة والحجاج والمقيمون من ظلم وجور .

٣ - إهمال مكة المكرمة عامة والحرم المكي الشريف خاصة من حيث النظافة وتوفير الماء لأهلها وللحجاج والمعتمرين، والتعديات التي يواجهونها من العثمانيين والأشراف . كما أورد ذلك الرحالة والحجاج الروس في كتاباتهم ومنهم القبطان (عبد العزيز دافلتشين) وأكد ذلك الملك عبد العزيز في رسالته المؤرخة في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ بقوله : *"والحقيقة أن المدينة المنورة وجدة وينبع يرثى لها مما جرى فيهن من الظلم والضنك"* .

٤ - الخلافات الأسرية بين شريف مكة والأشراف المعارضين له وهذا ما أوردته الوثيقة العثمانية في مذكرة الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) جواد باشا إلى الديوان الهمايوني (السلطاني) في العرض عليه ما جاء في برقية والي الحجاز أحمد راتب باشا من اختلاف بين شريف مكة والأشراف المعارضين له . وأكدته رسالة محمد بن ثنيان لشيخ البحرين والتي ورد فيها : توقف الحج عام ١٣٣٤هـ وذلك لحدوث اختلاف الشريف مع الدولة العثمانية وإعلان استقلاله، فضربوا بيته بالأطواب وأظهروه من مكة وهو في البياضية(٣٢) .

٥ - بعض التعديات بسبب وشاية وتحركات الشريف حسين باشا .

ولما جاء عيد الأضحى من عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م ووفد على الرياض المهنئون وتذاكروا مع إمامهم عبد العزيز

في مسألة الحج وحرمان أهل نجد من أداء فريضته وهو ركن من أركان الإسلام وعرض الإمام عبد العزيز مسألة الجهاد بضم الحجاز فهلل الحاضرون وكبروا وعقدوا النية على ذلك(٣٣).

ورب متسائل يتساءل كم عاماً منع الشريف حسين أهل نجد من أداء الفريضة ؟ مما لم تذكره طائفة من المصادر التاريخية . ولكن الجواب جاء في رسالة الإمام عبد العزيز المؤرخة في ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤م . إذ كتب رسالة إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة قال فيها :

"ليس خافياً على حضرتكم أفعال الحسين بن علي ومنعه أهالي نجد عن حج بيت الله مدة (سبع سنوات)، وما يأتيه من الظلم والجور تجاه حجاج بيت الله مما لا يخفى على أحد، فلما رأى أهل نجد إصراره على أمره وتماديه في ظلمه لم يروا بداً من تجريد السيف بوجهه . وبعد مشيئة الله عزموا على تمشاة جيش من المسلمين لتطهير بيت الله من دولة الجور والظلم . وفعلاً مشى الجيش واستعاد الطائف بمعونة الله وتوفيقه . وكان في استطاعته التقدم إلى مكة المكرمة ولكن احتراماً لحرم الله وحرصاً على عدم إراقة الدماء جعلهم يسيّرون الأمور ويدعون الناس لاتباع الحق والتخلي عن أهل الجور والتعسف حتى قضى الله أمره وخلع الحسين ثم تبعه ابنه فاراً بنفسه ليلا بدون أن يعلم به أحد" . فلابد من تصحيح ما ورد في الكتب التاريخية من أن الحسين وأبناءه منعوا الحج عن أهل نجد مدة (خمس سنوات) إلى (سبع سنوات) حرموا فيها أهل نجد من دخول مكة المكرمة(٣٤). ويحدثنا التاريخ أن المسلمين حرموا من أداء فريضة الحج في عهد القرامطة سنة ٣١٧هـ وفي فترات أخرى .

وجدير بالذكر فإن رسالة من الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين أورد فيها : *"أن الشريف حسين باشا قد بلغ فيه الجهل والغرور أن أخطر أهالي نجد بأن لا يحجون لهذا العام وهو عام ١٣٢٩هـ بدليل رسالة الملك عبد العزيز لشيخ البحرين المؤرخة في ٢٢ ذي القعدة ١٣٢٩هـ والمرفقة صورتها مع البحث . ويستطرد بقوله : أن الشريف حسين منع جميع سابلة أهالي نجد من مكة وهذا العام ما حج أحد من أهالي نجد وقاية وخوفاً من ضغط واستبداد أمير مكة*

*المكرمة، وذلك بدون داعي إلا أنه يروم أمر عظيم . وطلب مساعدتنا والاتحاد معه ولا وافقناه على فكره لأن المرام الذي هو يريد مستحيل وبغاية الأسف تغافل الدولة عن حركات هذا السفيه فتعجب من هكذا جسارة مع أنه أكبر موظف ومأمور للدولة العلية . وبحوله تعالى إنه إن شاء الله امعثور ونحن إن شاء الله قويين بالله نسأل أن يحسن العواقب للمسلمين . وإنه تعالى يذهب كل عدو ثم نعلمكم بهذه الأيام (عدينا واكنا) * على (العدو) أخذهم الله ثم أخذناهم وجاء منهم جملة أباعر وغنم .وحبينا إعلامكم بذلك لأن الذي يسرنا يسركم وحالاً تيسر وصولنا إلى الوطن مصحوبين بعناية الله تعالى"* .

هذه الرسالة أوضحت أن الشريف كان يذكي الفتنة بين القبائل بما ينشره من وشايات كاذبة ودعايات مغرضة ويحرك القبائل العربية ضد بعضها البعض ويعلن على الملأ بمنع أهالي نجد عن الحج، ولذا فإن ما ذكره الملك عبد العزيز في رسالة مؤرخة في ٢٨ ربيع الأول ١٣٤٣هـ أن الشريف حسين منع أهل نجد من الحج لسبع سنوات لا لخمس سنوات تثبته هذه الرسالة المؤرخة في ٢٢ ذي القعدة ١٣٢٩هـ والتي أخطر الشريف فيها أهل نجد بأن لا يحجوا فلم يحج أحد من أهل نجد هذا العام وهذا ما يثبت ما ذهبنا إليه لسبع سنوات منع أهل نجد من الحج .

وان ما ذكره الإمام عبد العزيز بقوله : *"ما يعانيه أهل مكة وحجاج البيت الحرام من الظلم والجور مما لا يخفى على أحد"* أكد ذلك كثير من المستشرقين الروس الذين قدموا ما كتبه الرحالة والحجاج الروس فقالوا : لما دخل القبطان الروسي (دافلتشين) مكة المكرمة في حج عام ١٨٩٩م كتب تقريراً عن مسلمي الحجاز أيام العثمانيين يقول فيه : *"للعجب أن يتعرض البعض لإخوتهم الحجاج في مكة فينهبونهم برغم أنهم تحملوا الكثير من أجل دينهم الإسلامي. ينهبونهم نهاراً أمام أعين العثمانيين دون خوف، فإن السلطات*

---

* عدينا وعَدَوْنا : من العدو أي تقدمنا على العدو . وأكنا من الكون أي اشتداد الحرب بعد أن هجمنا عليهم .

يبدون عدم اهتمام بسلامة الحجاج بتاتاً وإن الحج والحالة هذه لا يؤدي إلى الوئام بين الأجناس المختلفة من المسلمين" .

فالخلافات بين الأفراد والقبائل تؤدي إلى هدر الدماء . وأما الحرمين الشريفين فيفتقدان للنظافة . ومع علمنا أن ما كتبه الأجانب يحتاج إلى مزيد من الدقة ويفتقر بعض ما كتبوه للأمانة التاريخية فلابد أن نأخذه بحذر، وأن هذا الوصف من عبد العزيز دافلتشين سبق فترة حكم الشريف حسين بن علي في مكة ولكن لم يكن حال الحرمين الشريف في عهده بأحسن مما ذكره القبطان دافلتشين .

لذا لا نعجب إذا ما رأينا أهل الحجاز يبايعون السلطان عبد العزيز يستبشرون بحكمه، وقد دخل مكة المكرمة سلماً وبدون إراقة دماء، لما عرف عن عدالته وحكمه بالشرع الإسلامي الذي يستند على ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وهو الذي قضى على الجهل والجهالة فساد الأمن والأمان بين المسلمين المقيمين والوافدين للديار المقدسة خاصة والجزيرة العربية بمختلف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم . ومن يقرأ تقرير (دافلتشين) يرى أن حكم الملك عبد العزيز قد عالج ما ورد في تقريره الذي يصف الأحوال في مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل فتحها من قبل الملك عبد العزيز .

ونتساءل من أَعْلَمَ الإمام عبد العزيز عن خلع الحسين ثم فرار ابنه علي من مكة بدون أن يعلم به أحد ؟

إنهم أهالي مكة المكرمة الذين أرسلوا لجند الموحدين بالخبر بفراره ويدعونهم للقدوم إليهم . هذا ما لم نجده عند بعض المؤرخين والمحققين، ولكن رسالة الإمام عبد العزيز كشفت عن ذلك . فأحرم جند الموحدين وقدم خيلاً إلى مكة لتأمين الناس وتطمينهم فدخلوها محرمين، رافعين أصواتهم بحمد الله وتمجيده خافضين رؤوسهم ذلاً وهيبة لجلاله تعالى وقدرته، وتعظيماً لبيته المحرم واتباعاً لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا يسعون ويطوفون، والأهالي يروحون ويغدون ويبيعون ويشترون في أسواقهم . ولم يسفك دم ولم يؤخذ مال ولم تغير حال من الأحوال . هذا ما ذكره الإمام عبد العزيز في رسالته . وبذا فإنه قد اجتمعت كلمة المسلمين من أهل نجد والحجاز وأهل مكة نفسها على

طلب دخول جند الإمام عبد العزيز إلى مكة واستلامها، وكان حريصا على دخول جنده محرمين وسيوفهم في أغمادها وبدون إراقة دم أو أخذ مال لأحد، وتطهير بيته الحرام وهو غاية قصدنا . وختم الإمام عبد العزيز خطابه الذي وجهه إلى شيخ البحرين بقوله : *"هذا ما أحببنا بشارتكم به"* .

هكذا رسم الإمام عبد العزيز خطة دخول جنده لمكة المكرمة بسلام، بعد أن اتفقت كلمة المسلمين على دخول جنده لمكة المكرمة بعد أن أخبره أهلها إن الحكم البائد قد انتهى . فكان لهم ما أرادوا إذ دخلوها بدون إراقة دماء . ويقول الإمام عبد العزيز عن ذلك (وهذا هو غاية قصدنا) . ثم جعل إدارة الحرمين بعد الاتفاق مع العالم الإسلامي بما فيه راحة وأمان المسلمين . وشاءت إرادة الله تعالى أن يسود الأمن ربوع الحرمين الشريفين وسائر أنحاء الجزيرة العربية . فبينما كان الحجاج يعانون ما يعانون من مشقة السفر واضطراب الأمن والقتل والنهب وإذا بالسبل قد تيسرت والطرق قد أمنت وتوفر الماء في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة . وفي البلاغ الأول الذي أعلنه لمن في مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والباد .

ورسم سياسته الحكيمة التي جاء من أجلها وهي أن مصدر الشريعة كتاب الله وسنة رسوله . وأبقى من كان يعمل في الحرم الشريف فلم ينقص أحداً إن لم يزده . وختم بلاغه بقوله : *"لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه"*[٣٥] .

ضم المدينة المنورة

كان عبد العزيز يريد أن تستسلم المدينة سلماً وبدون حرب، ولكن الحامية رفضت التسليم . فأرسل لهم الملك عبد العزيز ابنه الأمير محمد فكاتبهم فأبوا إلا المصابرة على الحرب والامتناع عن الدخول في حوزة المسلمين، فضيق عليهم جميع المسالك الداخل مأخوذ والخارج عن الحرم مأخوذ . وبعد أن استقاموا ثمانية عشر يوماً كتبوا للأمير محمد يطلبون الأمان . وظهر أكابر أهل المدينة

وعاهدوا على السمع والطاعة، ودخل المسلمون المدينة المنورة في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ/ الموافق ٧ ديسمبر ١٩٢٥م من غير قتال وسلموا جميع ما عندهم من القوة منه أطواب ومكاين وأسلحة وتفكان وغيره . ورتبوا جميع حصونها وخططوها ودقوا تيل (أبرقوا برقية) لأهل العلا والحجر وتبوك فأجابوا لذلك وأخذ عليهم عبد المجيد باشا الأمان على رقابهم وأموالهم الذي لهم وأما الذي لحكومة المدينة المنورة يسلمونه . وأرسل لهم الأمير محمد جملة من المسلمين يقبضون القوة التي عندهم ويصيرون في محلهم . هذا ما كتبه الأمير سعود بن عبد العزيز لشيخ البحرين برسالة مؤرخة في ٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ . وأكد الملك عبد العزيز لشيخ البحرين برسالة مؤرخة في ١٠ جمادى الآخرة ذلك بقوله : "*تعرف حضرتكم بما من الله به على المسلمين في ١٩ جمادى الأولى فتح المدينة على يد الابن محمد، وبعد ما فتحها الله ذهبت قوة الشريف وأتباعه وصار لهم رعب عظيم وطاحت العلا وتبوك والحجر على الابن محمد . وأمنهم وقبض جميع المهمات والقوات التي عندهم*" . لم يذكر أن الجيش المحاصر للمدينة بقيادة (فيصل ابن سلطان الدويش) لا في رسالة الملك عبد العزيز ولا في رسالة الأمير سعود بن عبد العزيز[٣٦] . وكذلك أرسل الأمير محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى شيخ البحرين رسالة أرخها في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ ذكر فيها قوله : "*تبشركم بما من الله علينا من العز والنصر، لابد بلغكم خبر توجهنا إلى المدينة لاستلامها من الأهالي وبعد ما وصلنا كتبوا لنا على أنهم مستعدون للحرب ولا هم مسلّمين . واستعنا بالله عليهم وحاصرنا البلد وضيقنا عليهم وبعد ما أخذنا مدة أيام كتبوا لنا يطلبون الأمان وظهر علينا خمسة من الضباط وأعطيناهم أمان على رقابهم . واستلمنا منهم جميع الأسلحة التي للحكومة والذخائر . ودخلنا الديرة (المدينة المنورة) نهار الأحد ٢٠ جمادى الأولى*" .

مما ورد في نصوص هذه الرسائل الثلاث المرفقة صورتها بالبحث والمرسلة من كل من : الملك عبد العزيز والأمير محمد بن عبد العزيز والأمير سعود بن عبد العزيز لم يذكر أن مدة الحصار دامت (عشرة أشهر)[٣٧] بل أياماً على ما ذكره الأمير محمد بن عبد العزيز أو

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب الاجل الاكرم الاخ الشيخ الكرم عيسى بن علي آل خليفة سلمه الله [illegible]

[illegible]

١٣٤٤
٢٤ جا

١١ ديسمبر ١٩٢٥م

بسم الله

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب الاجل الاكرم [illegible] الشيخ عيسى بن علي آل خليفة سلمه الله [illegible]

[illegible]

١٣٤٤
٦ ج

٢٢/١٢/١٩٢٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى جناب الأجل الأمجد الأفخم [illegible] الشيخ الوالد المكرم عيسى بن علي الخليفة المحترم سلمه الله تعالى آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم لا زلتم بحال الطيب والسرور وأحوالنا من فضل الله بجميله

من قبل أخبارنا الحمد لله نشكر الله المحمود على ذلك نعرف حضرتكم بما أن الله يسر على المسلمين [illegible] (١٩) جماد الأول وفتح الله المدينة على يد الابن محمد

وبعد ما فتحها الله ذهب فوج الشريف وأتباعه وصار معهم رعب عظيم [illegible] العلا والوجه وتبوك والحجر على الابن محمد [illegible] منهم

وقبض جميع المهمات والذخائر التي عندهم وبعد ذلك صار بيننا وبين بعض القواد الذي في جدة بعض المخابرة [illegible]

[illegible] وخرجنا إلى المخيم الذي مخيم فيه جيوشنا الذي مع العيال الأخ عبد الله والابن فيصل ولكن [illegible] على [illegible] وأتباعه

على تنصل دولة الإنكليز بجدة وطلب توسط [illegible] على أنه يخرج من جدة وفعلاً واجهنا القنصل المذكور في المخيم وأخبرنا

أن الحالة حرجة في جدة [illegible] من فتنة تحدث في جدة يحصل منها ضرر على رعاياهم ورعايا الدول الأجنبية وعلى الأهالي

وطلب منا قبول وساطته [illegible] علي وأتباعه الذي [illegible] يشاؤون وأن نسمح لعلي بالأشياء

الخاصة به التي لا تتعلق بالحكومة وأن نصدر عفواً عاماً عن جميع المجرمين الموجودين بجدة وهم يتعهدون لنا بجميع الموجودات والمهمات

من مدافع وأسلحة ورشاشات ودبابات وطيارات والمراكب والسيارات وجميع الذخائر وجميع ما هو متعلق بالحكومة [illegible]

[illegible] لذلك موجب محبتنا للسلم وعدم سفك الدماء [illegible] والضيق [illegible]

[illegible] فتنة يحصل منها ضرر على الرعايا الأجنبية لهذا أجبناهم لذلك [illegible]

[illegible] وطيارات [illegible] وجميع الذخائر [illegible]

[illegible] الحكومة [illegible] البلاد من فضل الله جرت فيها العدالة

والأمن والطمأنينة والحقيقة [illegible] من الظلم والفساد ولكن الله سبحانه وتعالى [illegible]

لا [illegible] والظلام من ظلم نفسه [illegible]

[illegible] أحبابنا [illegible]

[illegible] هذا ما لزم [illegible] والأولاد [illegible] والسلام

[illegible] ١٣٤٤

١٠ ج ٥

٢٧/١٠/١٩٢٥م

(ثمانية عشر يوماً)على ما ذكره الأمير سعود بن عبد العزيز . أما ما قيل أن على الجيش المحاصر للمدينة (فيصل بن سلطان الدويش)[٣٨] . فلو كان كذلك لذكرته الرسائل الثلاث . كما أن مدة الحصار لم تبلغ إلا (أياماً) بدليل ما ورد في رسالة الأمير محمد بن عبد العزيز لشيخ البحرين التي أرخها في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ إذ قال فيها أنه توجه لاستلام المدينة من الأهالي ولكنهم رفضوا التسليم، فحاصرنا البلد وضيقنا عليهم، وبعد أيام كتبوا لنا يطلبون الأمان واستلمنا أسلحتهم ودخلنا المدينة المنورة سلماً في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ . فليس هناك ذكر لمدة الحصار (بعشرة أشهر) ولا ذكر لقائد الحصار .

وعود على بدء فإن الرسائل المختومة بخاتم الملك عبد العزيز هي أوثق من المصادر التي لم تعتمد على وثائق مكتوبة . وأن المصادر التي ذكرت أن مدة الحصار (عشرة أشهر) تعني أن المقاومة طويلة بينما وجد ابن سعود وجيشه تجاوباً من أهالي المدينة المنورة .

ضم ينبع

ورد في الرسالة المؤرخة في ٨ رمضان ١٣٤٣والمختومة بختم الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة شيخ البحرين بعد الديباجة قوله : *أخبارنا والحمد لله فإن العدو ذاله الله ومضيقين عليه المسلمين . كذلك لفوا علينا(الأخوان بن ربيعان) ومن معه من المسلمين يذكرون أنهم عدو يبون (ينبع) وأخبروهم العرب أن (الشريف) شاكر (وجماعته) التي معه من البادية وغيرهم قريب ينبع على ماء يقال له (ملحه) . ويوم الجمعة ١٧ شهر الماضي (١٧ شعبان) صبحوهم الموحدون وأعان الله عليهم وذبحهم الله ثم الموحدون ولا سلم منهم إلا القليل فهزم شاكر هو و (جماعته) خياله معه زبنوا ينبع (ينبع البحر) وإن شاء الله تعالى يخرجهم الله ثم الموحدون منهم بعون الله وقوته . أما قتلى العدو فكثير، السالم منهم قليل والمشهورين منهم (الشريف عبد الكريم)*

و *(ابن بديوي وولده)* و *(عوده بن زويد)* و *(حمد العصلاني)* *وقد أخذ الموحدون بيارقهم وغنموا جميع ما كان معهم من (خيل ودبش وابل وأغنام وبقر وسلاح وذخيرة) والموحدين بحمد الله لم يفقد منهم جلد . فلما رأينا ما من الله به أحببنا بشارتكم . نرجو الله أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويوفقنا لما به الخير والصلاح "* .

ولدى مراجعتنا لما تيسر لنا من مصادر تاريخية[٣٩] وجدنا أنها تختلف في التوقيت فمنهم من كتب : أن أعلن السلطان بتاريخ ١٢ شوال ١٣٤٣هـ وذلك بعد أن سيطر على مكة المكرمة وميناء (ينبع) وميناء القنفذة فلابد أن تصحح إلى ٨ رمضان ١٣٤٣هـ مع العلم أن ما أوردته الرسالة المذكورة من الملك عبد العزيز والمؤرخة في ٨ رمضان ١٣٤٣هـ إنما هو فتح (ينبع النخل) .

أما فتح (ينبع البحر) فقد أوضحتها رسالة كتبها الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ١٨ صفر ١٣٤٤هـ : *" أن الأمير سعود بن عبد العزيز نزل (ينبع النخل) وحاصر (ينبع البحر) وله همة إن شاء الله مباركة نرجو أن الله تعالى ينصره"* .

ثم تلتها رسالة مؤرخة في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ وفيها أن (ينبع) سلمت وقبضوا على جميع ما فيها من أسلحة .

أما ما ذكره صاحب كتاب (المعالم الجغرافية لمواقع الملك عبد العزيز الحربية) فإن الملك عبد العزيز سيطر على ينبع في ١٢ شوال ١٣٤٣هـ وهذا ما يؤكد أن السيطرة كانت على (ينبع النخل) . أما (ينبع البحر) ففي ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ .

ويفصل لنا القائد الأعلى الملك عبد العزيز خطة ضم (ينبع) برسالة مؤرخة في ١٤ ذي القعدة ١٣٤٣هـ ورسالة مؤرخة في ١٤ ذي الحجة إذ يقول فيهما : *"وبعد أن انقلبنا من (جدة) أرسلنا سعود بن عبد العزيز آل سعود وخالد بن لؤي ومعهم من الموحدين سبعة بيارق إلى جهات (ينبع) وأطرافها "* وهذا دليل آخر يؤكد على أن فتح (ينبع النخل) تم في رمضان ١٣٤٣هـ . كما تؤكد الرسالة أن فتح (جدة) في عام ١٣٤٣هـ، أما المفاوضات والتسليم فقد تم في جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ .

الخلاصة بناءً على ما ذكره الملك عبد العزيز في رسائله فإن ضم (ينبع

النخل) حدث في رمضان ١٣٤٣هـ وضم ينبع البحر حدث في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ وليس في ١٢ شوال ١٣٤٣هـ كما ذكر في بعض المصادر التاريخية لذا جرى التنويه(٤٠) . فإن الرسالة المؤرخة في ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ تذكر :

"بعد استسلام (جدة) سلمت (ينبع) وقبض جند الملك عبد العزيز جميع ما في جدة وينبع من مدافع وأسلحة ورشاشات وطيارات ودبابات ومراكب بحرية وجميع ما فيهما (جدة وينبع) من الذخائر والأمور العائدة للحكومة . وتفرق عسكر الشريف كل إلى وطنه . والبلد بحمد الله جرت فيها العدالة والأمان بعد ما حصل من أمور الظلم والجور والضيق والحمد لله رب العالمين على نصر دينه وإعلاء كلمته ، من إهلاك أعدائه . فلما رأينا ما منّ به علينا وعلى المسلمين كافة بهذا الفتح العظيم، أحببنا بشارتكم بذلك. وربنا المحمود لا رب غيره ولا سواه" .

هكذا كتب الأمير سعود الذي أمره والده عبد العزيز بضم ينبع فتم ذلك في وقت ما قبل ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ .

ضم جدة

يكاد يجمع المؤرخون الذين كتبوا عن تاريخ الملك عبد العزيز رحمه الله على أن استرداد أو تحرير (جدة) حدث بعد حصار استمر سنة كاملة، وفي رسالة جلالته المؤرخة في ٢ رجب ١٣٤٣هـ والموجهة إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة أمير البحرين يقول : *"وأما من جهة تأخرنا عنهم فهو مهوب من قوة بهم ولا عجز بالمسلمين من فضل الله. إلا فهم إن شاء الله ضعيفين ومأخوذين بحول الله وقوته لكن ما يخفى جنابكم أنها ديره بها أجانب بها قناصل ورعايا الإنكليز والفرنسيين والطليان (الإيطاليين) والمسقوف (الروس) والهولنديين والعجم . والجميع منهم يكاتبونا على أنهم معطين أعراض . ومن طرف (جدة) يكفيكم فيها فقط رعايانا لا يجيهم خلاف . ومعلوم جنابكم أن من المسلمين من فيهم جهله لو يصير هجوم لابد يصير على رعاياهم*

خلاف ويصير الأمر مشكل، ولكن حنا أخرنا المسألة إن الله أحلها بهون فهو المطلوب، وإلا آخر الأمر فسوف لنا رأي إن شاء الله مبارك، ونستعين الله عليهم" . هذا ولم يذكر الملك عبد العزيز أن جيشه حاصر مدينة جدة سنة كاملة وهي ثغر مكة وبعد أن حررت مكة المكرمة لابد من تحرير جدة خاصة وأن أهلها رحبوا بالملك عبد العزيز . لذا فإن تحرير جدة تم حوالي شهر رجب ١٣٤٣هـ حسبما ورد تفصيل ذلك في رسالة الملك عبد العزيز . هذه السياسة الحكيمة المستمدة من عقيدته الإسلامية السمحاء، ومن فهمه للدبلوماسية الدولية، وعلمه أن عدوه ضعيف وغير قادر على الدفاع عن نفسه ولأجل المحافظة على الأرواح عامة والأجانب بصفة خاصة فقد اكتفى بالحصار حتى يتم الاستسلام . أما المفاوضات والتسليم فحدث حين حضور الملك وهذا تم في جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ .

وهنا كتب المؤرخون المعاصرون أو قريبو العهد من هذه الأحداث بأن الملك عبد العزيز فتح جدة يوم الخميس، ومنهم من قال صباح أو إطلالة يوم الخميس السابع أو الثامن من جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ[٤١] . ثم كتب فيما أطلعنا عليه من المصادر أن تسليم جدة حدث في السادس أو السابع من جمادى الآخرة عام ١٣٤٤ الموافق ٢٢ و٢٣ ديسمبر ١٩٢٥[٤٢] . وذهب آخرون إلى أن دخول عظمة السلطان جدة في الساعة الرابعة من يوم الأربعاء السابع من شهر جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ[٤٣] . ومن قائل أن مغادرة الشريف جدة في يوم الأحد الرابع من جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ وأن دخول الملك عبد العزيز في السابع منه[٤٤] .

وإذا رجعنا إلى فيصل القول وهي رسائل الملك عبد العزيز التي ختمها بخاتمه والمؤرخة في ٢رجب ١٣٤٣هـ الموافق ٢٧ يناير ١٩٢٥م والتي وجهها إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين وكان يفتتح جميع رسائله بكلمة (الوالد) فيقول وهو يصف (الخطة التي وضعها جلالته وأشرف على تنفيذها): *"وأما من جهة (جدة) والله ما يظهر منهم ولله الحمد إلا المدافع . فأولاً مدافعهم جيدة في كثرة الرمي . وعقب ما ركبنا عليهم المدافع من ثلاثة الجهات خذلهم الله وبان عجزهم ولله الحمد . والمسلمين حطيناهم قسمين : أهل الغطغط وتبعهم من هجر الجنوب هؤلاء من اليسار . وأهل دخنة، وأهل*

الشبيكية وأهل الداهنة وتبعهم حطيناهم يمين . وأما من قبلهم هم من أهل جدة فهم لهم رتبه *، حطيناهم في محلة يقال لها المحلة اليمانية، وهي تبعد عن جدة ربع الساعة أو ثلث الساعة، وتولوها الموحدون وذبحوا الرتب التي فيها مقدار مائة رجل وهي بيد (الموحدين) الآن ومضيقين عليهم ولله الحمد، ومن قبل يأتي الموحدون كل ليلة يهجدونهم وكل منهم يجي يقول ذبحت والله أعلم بصدقهم، ولكن من شاف بفضل الله خذلانهم عن الخروج وانحجارهم في الديرة، درى أنهم إن شاء الله مخذولين بحول الله وقوته .

وكانت تأتينا طيارتين منذ أن شدينا من مكة ولكنها لم تضر حيوان ولا آدمي حتى أسقط الموحدون الطائرتين واحترقتا وجاء للموحدين من فضل خير كثير من الغنايم من إبل وغنم وبقر وحمير وإن المحرج يحرج بالمخيم والمطارد يطارد" .

هذه الخطة الحكيمة التي رسمها ونفذها جلالته ووصفها برسالة إلى شيخ البحرين . ورسالة مشابهة أخرى إلى ابنه الشيخ عبد الله بن عيسى آل خليفة وأرخها بنفس التاريخ وهو الثاني من رجب ١٣٤٣هـ، وفيها : "ومن قبل جهة عربان أهل الحجاز عقب أكاوين المسلمين عليهم طاحوا علينا كلهم من المدينة إلى القنفذة والله ما أخبر فيها . . . ولله الحمد والمنّة وكلهم سامعين ومطيعين وكل آمن وذلك من فضل الله" . ثم ذكر الخسائر بقوله : "واحد من غلماننا وغلام للأخ محمد وثلاثة من الأخوان وأربعة مجاريح، وأحببنا نشرح لحضرتكم وهذه هي الحقيقة والله وما غيرها شيء . والتي نخبركم بها لأجل اطمئنان خواطركم . . .". وكما يبدو لنا أن جدة استسلمت أو تكاد في هذا التاريخ وهو في ٢ رجب ١٣٤٣هـ وليس في الرابع أو السادس أو السابع أو الثامن من جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ أي بعد عام أو نحو عام .

ودليل آخر فإن الرسالة المؤرخة في (السادس من جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ) ومختومة بخاتم الأمير سعود بن عبد العزيز والموجهة إلى الوالد الشيخ عيسى بن علي آل خليفة : ليس فيها أي ذكر عن خروج الشريف علي من جدة ولا تسليمها، وهو حدث هام جداً

---

* الرتبة : الجند الذين يحافظون على موقع عسكري .

بل أسهب في استرداد المدينة المنورة التي دخلها (الموحدون) في ٢٠ جمادى الأولى من غير قتال ولله الحمد . فإذا كان استسلام جدة قبل تاريخ هذه الرسالة بيومين فلماذا لم يذكر فيها ما يشير إلى خروج الشريف علي والمفاوضات والتسليم ؟

ذكر طائفة من المؤرخين أن مغادرة الشريف جدة كان في الرابع وفي قول آخر في السادس من شهر جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ فإذا حدث ذلك فلم لم يذكره الأمير سعود في خطابه المؤرخ في السادس منه ؟ . ودليل ثالث أن الملك عبد العزيز كتب إلى شيخ البحرين رسالة مؤرخة في الثاني من شهر ذي القعدة ١٣٤٣هـ وفيها : *"والعدو حاصرينه (الموحدون) أشد الحصار وخذلانه وعجزه ظاهر وقريباً إن شاء الله تعالى يجيكم الخبر السار"* ثم ختمه الملك عبد العزيز بخاتمه .

وفي رسالة مؤرخة في ١٤ ذي الحجة ١٣٤٣هـ كتب الملك عبد العزيز يقول : *"وبعد أن انقلبنا من جدة أرسلنا سعود بن عبد العزيز وخالد بن لؤي ومعهم من المسلمين سبعة بيارق إلى جهات ينبع"* . مما يدل على أنه تم تحرير جدة عسكرياً وفق الخطة التي وضعها الملك عبد العزيز . أما تسليمها وما جرى من مفاوضات بحضور جلالة الملك فتم في جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ .

واستطرد الملك قائلاً : *"وخلفنا وراءنا لحصار جدة من (الموحدين) قدر ألفين وكمنوا عن العدو وبعد أن (شدينا) في ثلاثة أيام ظهر لهم خيل وموتر أعان الله المسلمين عليهم فقلعوا* * *عنهم عشراً من الخيل وذبحوا خمسة عشر، وجميع أهل الخيل المذكورة لا القلايع ولا المذبوحة أهلها ذبحوا، فيم جاء من باكر أظهروا لهم قدر أربعمائة رجال من عسكرهم قصدهم يجعلونهم في قلعة يكمنون بها لخيلنا، فشافهم (الموحدون) بالأولى واستعانوا بالله عليهم، ولا والله رجع منهم إلا ثلاثة وخيال معهم والباقي جميعهم ذبحوا . أما (الموحدون) فقتلاهم أربعة وثلاثة صُوّب وأربعاً من الخيل"* .

وفي رسالة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي مؤرخة في ١٠ جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ ذكر فيها ما منّ الله

---

* فقلعوا : ما أخذ من الخيل والقلاعة من الخيل هي الفرس التي يقتل صاحبها وتؤخذ . أو تؤخذ بعد أن انهزم صاحبها .

به علـى المسلمين في ١٩ جمـادى الأولى بفتح الله المدينة على يد الابن محمد بـن عبد العزيز . واستطرد جلالته في رسالته حول فتح جدة فأكد الأمير محمد بن عبد العزيز دخوله المدينة المنورة في يوم الأحد ٢٠ جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ .

ولما كان التاريخ رواية ودراية ، فالرواية رواها لنا الملك عبد العزيز في رسائله الموثوقة ، والدراية فمن غير المعقول أن يبقى الملك عبد العزيز لمدة عام حتى يحرر جدة بعد أن انضمت إليه مكة المكرمة في ٢٨ ربيع أول ١٣٤٣هـ ، وأن قيل في ٨ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ . علماً أن الحجاج القادمين بحراً ينزلون في جدة وهي ثغر مكة التي انضمت لابن سعود بينما جدة تحت سيادة الشريف وأبنائه . بينما تذكر رسالة الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين بتاريخ ٢ رجب عام ١٣٤٣هـ ، *"أن أهل الحجاز عقب أكاوين الموحدين عليهم من المدينة إلى القنفذة طاحوا علينا وكلهم سامعين ومطيعين"* . ولما كانت جدة تقع بين المدينة والقنفذة يفهم من نص الرسالة أنها قد ضمت في هذا التاريخ .

وفي هذا البحث تم الاعتماد على الوثائق أو الرسائل التي كتبها الملك عبد العزيز إلى كل من شيخ البحرين وابنه المؤرخة في ٢ رجب ١٣٤٣م وختمها بخاتمه ، وهي أن ضم جدة كان بأمر جلالة الملك عبد العزيز وأن الخطة العسكرية التي رسمها الملك نفسه لجيشه ونفذ الجيش الأوامر الصادرة من الملك عبد العزيز كان في رجب ١٣٤٣هـ ، وأكمل تحرير جدة في ذي الحجة ١٣٤٣هـ . ثم نادى عبد العزيز ابنه فيصل من فوق أسوار جدة فجاء مسرعاً على رأس قوة من أهل العارض غادرت الرياض في منتصف ربيع الثاني ١٣٤٤هـ .

وهنا كان تاريخ المعركة الحاسمة والتي أدت إلى النصر لتحرير جدة في رجب ١٣٤٣هـ . أما الثامن من جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ فكان الفتح العظيم بتسليم جدة ليد جلالة الملك عبد العزيز .

ضم عسير

لقد وردت رسالة مطولة من جلالة الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ٢٥ صفر ١٣٤١هـ تتضمن تفاصيل عسكرية حول دخول الأمير

فيصل بن عبد العزيز آل سعود عسير . فقد نزل الأمير فيصل بجيشه وأرسل سرية مؤلفة من أربعة بيارق ووصل خميس مشيط وأبها عاصمة عسير فدخلها وقتل من قاوم فطلب أهل عسير العفو والأمان من الابن فيصل أما حسن بن عايض فزبن الحرملة فأمنه الأمير فيصل . وفي الرسالة أخبار هامة أخرى .

وبعد ثلاثة أيام من إرسال هذه الرسالة إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة شيخ البحرين ورد جواب إلى الملك يهنئه بالانتصارات في عسير[٤٥] .

ولدى استقراء ما كتبه طائفة من المؤرخين حول انضمام عسير فأنه حدث في (شوال ١٣٣٨هـ)[٤٦] أي قبل ما كتبه عبد العزيز بنفسه بثلاث سنين[٤٧]

وأضاف آخرون أن الأمير فيصل بن عبد العزيز أتم استرداد عسير في (٢١ جمادى الأولى ١٣٤١هـ)[٤٨] . وهكذا أصبحنا نجد من يجعل تاريخ تحرير عسير قبل ما دونه الملك عبد العزيز ببضع سنين بينما نقرأ ممن يجعل تاريخ التحرير بعد ما دونه الملك بنحو ثلاثة أشهر .

وتحدثنا الوثائق العثمانية عن ربط لواء عسير بولاية الحجاز تسهيلاً للأمور الإدارية[٤٩] من جهة، ولقربها من الحجاز[٥٠] من جهة أخرى، كما أن ميولها السياسية عربية (سلفية) أما ميول اليمن فهي ترمي إلى إقامة إمامة زيدية[٥١] .

تحقيق في طلب الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود الإقامة في (الزبير) أو (الكويت)

إن بحثنا حول فترة تاريخية هامة عاشها الملك عبد العزيز مع والده الإمام (عبد الرحمن الفيصل) وأسرته وبني قومه في الكويت، فوالده الإمام (عبد الرحمن الفيصل) رأى أن يستقر وأفراد أسرته ورجاله في بلد يتقي بها شر الحروب[٥٢] . فأرسل الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود (برقية) مؤرخة في ٤ يونيو ١٣٠٩ رومي الموافق ١٨٩٣م/١٣١٠هـ عرض فيها على الدولة

العثمانية أن تسمح له بالإقامة في مدينة (الزبير) أو (الكويت) وكانت الدولة العثمانية قد وجدت من الأفضل أن تتفق مع الإمام عبد الرحمن بن فيصل تقرباً منه وجاء في (البرقية) المرسلة من والي البصرة إلى الديوان الهمايوني بسراي يلدز رداً على برقيته إليه وقام الكاتب الأول (ثريا) بتبليغ ما جاء فيها للباب العالي (الحكومة العثمانية) وتم إعلام ما جاء في البرقية (للإمام عبد الرحمن الفيصل) وورد فيها طلب الإمام عبد الرحمن وأتباعه وهم زهاء الأربعين شخصاً الإقامة في (قصبة الزبير) الواقعة على بعد يسير من البصرة أو الإقامة في (الكويت) . والملف لا يضم غير هذه الوثيقة النادرة وندرتها أنها ذكرت رغبة الإمام عبد الرحمن الفيصل آل سعود في سكنى (الزبير) دون أن يرد ذكرها في أي مصدر، وليس في الملف ما يتعلق ببرقية الديوان إلى الوالي حمدي باشا في سؤاله عما يطلبه الإمام عبد الرحمن الفيصل ولا ما اتخذه الباب العالي من إجراء عقب إبلاغه الطلب . أما سبب طلب الإمام عبد الرحمن الفيصل الإقامة في مدينة (الزبير) أو (الكويت) وعن جواب الباب العالي على طلبه فلا يمكن الإجابة عليه إلا إذا عثرنا على وثائق متممة للموضوع فالبحث مستمر والعثور على الأجزاء المتممة مأمول .

والوثيقة من وثائق (يلدز) تقع تحت رقم ٧٩/٢٦ ومؤرخة في ٩ يونيو ١٣٠٩ رومي الموافق ٧ ذي الحجة ١٣١٠هـ/٢٣ يونيو ١٨٩٣م وأصلها محفوظ في (أرشيف رئاسة الوزراء العثماني) باستنبول وجاء فيها : "برقية شفرية من والي البصرة حمدي باشا حول طلب (الإمام عبد الرحمن الفيصل) السماح له ولرجاله البالغ عددهم أربعين نفر وأفراد أسرته - ومنهم عبد العزيز - أن يقيموا في مدينة (الزبير) أو (الكويت) . ومن هذه الوثيقة علمنا أن إقامته في الكويت حدثت بعد هذا التاريخ .

فلقد تطرق طائفة من المؤرخين الذين هم قريبو العهد من الحوادث التي مرت فيها البلاد حول مطالبة (الإمام عبد الرحمن الفيصل) العثمانيين أن يسكن (الكويت) - وحسب علمنا - فمنهم من ذكر ذلك دون أن يحدد تاريخا موثقاً ولا ذكر أنه طلب السكنى في (الزبير) . فقال بعضهم إنه وصل إلى الكويت في الفترة بين ١٣١٠هـ إلى ١٣١٣هـ الموافق ١٨٩٣ - ١٨٩٦م وأن الدولة العثمانية وافقت على انتقاله إلى

الكويت دون الإشارة إلى وثيقة تثبت ذلك أو إرفاقها بالبحث . وذكر آخرون أنه كان في ضيافة الشيخ محمد آل صباح عام ١٣١٠هـ ثم الشيخ مبارك في عام ١٣١٣هـ مدة عامين وبعض العام من ١٣١٠هـ ودون ذكر الشهر . وكتب آخرون أن الإمام عبد الرحمن اختار الإقامة في (الكويت) في عام ١٣٠٩هـ(٥٣) . وهذا خطأ لأن الرسالة التي كتبها الإمام يطلب فيها الإقامة بالزبير أو الكويت مؤرخة في شهر ذي الحجة ١٣١٠هـ . . .

ولما كان التاريخ (توقيت أو إعلام بالوقت) فإن ما أورده البعض لم يشر إلى وثيقة تحدد تاريخ دخوله إلى الكويت . بينما سكناه الكويت حدثت بعد ذلك التاريخ ويمكننا أن نحدده في عام ١٣١١هـ . كما أن أحداً لم يذكر أن (الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود) قد طلب أن يسكن مدينة (الزبير) مع أنه كتب في طلبه للدولة العثمانية برغبته في سكنى (الزبير) وجعلها تسبق طلبه لسكنى (الكويت) وربما سكتت الوثائق أو لم نعثر عليها بعد ونحن نتساءل : لماذا قدَّم الإمام عبد الرحمن طلبه بأن يسكن (الزبير) في برقيته المرفق صورتها على سكناه في (الكويت) ؟

والتاريخ يستند على (الرواية والدراية والآثار المكتوبة أو البادية للعيان) . فالرواية مستندة والحالة هذه على هذه (الوثيقة العثمانية) المرفق صورتها . أما الدراية فهي أن الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود اختار (الزبير) لأنها مدينة أسسها النجديون وعمروها وبقوا ولازالوا على ولائهم لأهلهم ولموطنهم الأول بلاد نجد بمدنها وقراها وقد قال شاعرهم :

ياراكب الحمراء وُقيتَ العدى
إن عاينت عيناك نجداً فانزل
نجد بلاد فاخرت شهب السما
فازت بقوم كالبدور الكُمَّل

ولا تجد في (الزبير) غير أسر نجدية نزحت في فترات من التاريخ لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية وقلما تجد أسرة في نجد إلا وتجد منها نسبة في مدينة الزبير . فالإمام عبد الرحمن كان يرغب في سكنى الزبير بين أهله وبني جلدته من قومه الذين سبق وأن استقبلوا الداعية والإمام المصلح (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) بعد أن واجه اشد الأذى في البصرة فأُخرج منها وقت الهجيرة ولما توسط بينها وبين بلد

(الزبير) أدركه العطش وأشرف على الهلاك ماشياً وحده متجهاً إلى (الزبير) فوافاه رجل يقال له (أبوحميدان)(٥٤) وهو من أهل الزبير فسقاه الماء وحمله على دابته إلى مدينة الزبير ومذهب أهلها المذهب الحنبلي فأكرموه ونصروه بعد أن وجدوا أن دعوته خالصة لله ومستنده على ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة . وكانوا ولازالوا على العهد يواكبون السير في ركاب الدعوة السلفية ومن ناصرها تحت ظل القيادة الحكيمة من آل سعود .

ومن العوامل الأخرى التي جعلت الإمام عبد الرحمن يطلب السكن في (الزبير)، موقع بلدة (الزبير) الجغرافي على طريق التجارة إلى العراق والمطل على الخليج العربي من جهة ويقع بينها وبين نجد من جهة أخرى فهي والحالة هذه تقع على مشارف الصحراء وعلى مقربة من الخليج العربي وتشارك الكويت الزبير في هذه الميزة بالإضافة لقرب الزبير من (سوق الشيوخ والخميسية) وكان جل أهلها قد نزحوا وقتئذ من نجد . وتمر القوافل التجارية صوب العراق والشام إلى حلب، فكانت الزبير مدخلاً للتجار النجديين الذين استقروا فيها، وينتقل بعضهم إلى الهند لبيع الخيول العربية الأصيلة التي تجد لها رواجاً هناك . وجلهم أخذوا مكانتهم في التجارة في الزبير والبصرة وكان التوفيق حليفهم لما عرف عنهم من أمانة وصدق معاملة وإخلاص ووفاء . وهاتيك لعمري من صفات التاجر الذي يتصف بإيمانه بعقيدته السمحاء وعروبته الصريحة . كما ان توفر الماء في الزبير قد يكون أحد الأسباب التي دعت الإمام عبد الرحمن أن يطلب السكنى فيها .

هذه العوامل وغيرها أدت إلى أن يكتب الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود للدولة العثمانية برغبته في أن يسكن الزبير ولم نعثر على جواب السلطنة العثمانية ولا إشارة من كتابات السلطة البريطانية .

وجدير بالذكر فإن الزبير ظلت الموضع المناسب للإمام عبد الرحمن ولابنه الأمير والسلطان والملك عبد العزيز يفضل الاجتماع فيها حين يطلب منه ذلك، فقد طلبت الدولة العثمانية من شيخ الكويت أن يتوسط لدى الإمام عبد الرحمن بن فيصل لأن يجتمع مع الوالي مخلص باشا في (الزبير) لحل المشاكل

5110

Y.MTV. 79/26

[illegible]

نوع الوثيقة : Y. MTV. (يلدز متنوعا)

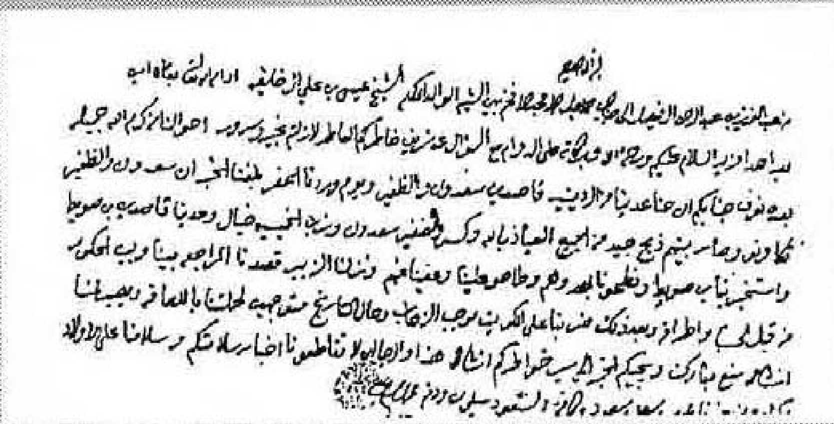
رقمها : ٧٩/٢٦

تاريخها : ٩ يونيو ١٣٠٩ رومي/ ٧ ذي الحجة ١٣١٠هـ

محل وجودها : الأرشيف العثماني باستانبول

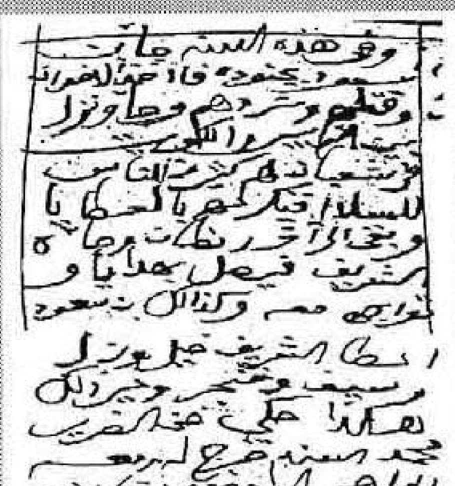
برقية شفرية من والي البصرة حمدي باشا في طلب عبدالرحمن الفيصل تخصيص معاش شهري له بمقدار ٢٥٠٠ قرش، ومائة قرش في الشهر لكل واحد من رجاله البالغ عددهم أربعين نفرا، والسماح له بالإقامة في مدينة وبير أو الكويت.

5109



من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب الاجل الاكرم الشيخ عيسى بن علي آل خليفة [illegible]

[illegible]



وهذه الفتنة جابت
سعود بجنوده فاخذ الاخوان
وقتلهم وشردهم حتى نزل
[illegible] الكويت
واستعاذ بهم [illegible]
للسلام فتلقاهم بالعطايا
[illegible]
الشريف فيصل هدايا و
[illegible] مصر وكذلك ابن سعود
[illegible]

التي تحدث وقتذاك فحدث الاجتماع بعد معركة (الشنانة) أو ما يسمى وقعة (وادي الرمة) التي انتصر فيها الإمام عبد العزيز على ابن رشيد وذلك في ١٨ رجب ١٣٢٢هـ الموافق في سبتمبر ١٩٠٤م . وقد حضر والي البصرة العثماني إلى الزبير واجتمع مع الإمام عبد الرحمن الفيصل كما حضر الاجتماع الشيخ مبارك آل صباح ولم يثمر الاجتماع عن نتيجة وذلك لأن الإمام عبد الرحمن رفض أي تدخل أجنبي في شئون بلاده[٥٥] .

وفي رسالة وجهها الوالي العثماني بالبصرة (مخلص باشا) إلى قائمقام الكويت الشيخ مبارك آل صباح مؤرخة في ٢٨ رمضان ١٣٢٢هـ الموافق ٦ ديسمبر ١٩٠٤م جاء : أن مخلص باشا يوافق على الاجتماع بالإمام عبد الرحمن الفيصل في أحد المواقع المناسبة (كالزبير) لحل المشاكل المتعلقة بدون حاجة للسوقيات العسكرية . وحدث ذلك الاجتماع أيضاً، والذي يبدو أنه نفس الاجتماع المذكور . وقد أشار الملك عبد العزيز في رسالته المؤرخة في ١٩ ربيع الثاني ١٣٢٩هـ أنه (نزل الزبير) وذلك حين قصدا ابن سعدون والظفير ثم بلغه الخبر أنهما تكاونوا (تقاتلوا) فانكسر سعدون وزبن الخميسية . ويستطرد الملك قائلاً : "*وعدينا قاصدين بن صويط واستخبرنا ونطحونا بهدوهم وطاحوا علينا وعفينا عنهم ونزلنا الزبير قصدنا المراجعة بيننا وبين الحكومة . . . وبعد ذلك ضربنا على الكويت لأجل الزهاب*"[٥٦] .

فالزبير موضع مناسب للاجتماع يفضله الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود والشيخ مبارك آل صباح وذلك لتوفر الأمن بين الرعايا السعوديين من أهل الزبير لذا لبى الإمام عبد الرحمن والشيخ مبارك أي اجتماع يعقد في مدينة الزبير . فلا غرو إذا ما رأينا الإمام عبد الرحمن الفيصل يفضل أن يقيم في (الزبير) فإن لم تتم الموافقة يقيم في (الكويت) .

الخلاصة أن تاريخ إقامة الإمام عبد الرحمن الفيصل في الكويت حدث في أوائل عام ١٣١١هـ وانه طلب الإقامة في (الزبير أو الكويت) بناءً على برقية من والي البصرة إلى الديوان الهمايوني بسراي يلدز . وأخيراً حصل على إذن السلطات العثمانية لسكنى الكويت في أواخر عام ١٣١٠هـ أو بداية عام ١٣١١هـ .

وسبب اختلاف المؤرخين في تحديد

وقت إقامته في الكويت هو أن بعضهم يقول : رأيت أكداساً من الأوراق المهملة وسجلات حكومية في دار الإمارة في عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م فكتبت تاريخ الجزيرة العربية في القرن العشرين وضمنتها هذه الأوراق مع معلوماتي الخاصة والتي لم أصل فيها إلى درجة الكمال في البحث لنقص بعض المستندات التاريخية[٥٧] .

وإن من عاصر الملك عبد العزيز وكان مترجماً في ديوانه منذ مايو ١٩٢٦م/١٣٤٤هـ مرافقاً له في أسفاره وحروبه حتى منتصف الثلاثينات . وقد دون عن حياة الملك عبد العزيز إلا أنه يقول في كتابه توحيد المملكة العربية السعودية : لقد اعتمدت على الرواية الشفهية لأولئك الذين شاركوا فعلاً في صنعها بدلاً من الإشارة إلى ما كتبه المؤلفون عنها . ومع الأسف فقد مضى على تركي العمل أكثر من أربعين سنة ولم تعد ذاكرتي كما كانت من حيث القوة والكمال ولكني بذلت جهدي وأملي أن يعذرني القارئ على ما يجده من أخطاء فيما كتبت . وهذا يدل على أن من يكتب بعد أربعين عاماً من تاريخ وقوع الحوادث التاريخية سيجعل من عامل النسيان مجالاً للخلط وعدم الدقة في سرد الحوادث وذكر الأسماء والمواضع وعدم الدقة في التوقيت التاريخي[٥٨] .

ومثل ذلك من أخذ عن رواة رووا عنه رواية من عاش الأحداث ورآها عن كتب[٥٩] .

تحقيق في تاريخ وفاة الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود

لقد كتب المعتمد البريطاني في البحرين رسالة إلى المقيم في الخليج يخبره بوفاة الإمام عبد الرحمن بن فيصل رحمه الله ويحدد تاريخ وفاته في أول يونيو ١٩٢٨م الموافق للثاني عشر من ذي الحجة ١٣٤٦هـ[٦٠] . بينما نجد من ضمن الرسائل التي بعثها الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين رسالة مؤرخة في ١٦ ذي الحجة ١٣٤٦هـ الموافق في ٦ يونيو ١٩٢٨م وفيها : *"بعد السؤال عن رفاهيتكم*

دمتم بموفور النعمة وعن مودكم يشكر الله على مزيد نعمه بخير، ثم نهنئكم بحلول عيد النحر السعيد أعادنا الله وإياكم على أمثاله أعواماً عديدة. متمتعين باليمن والأمان والسعادة والرضوان. وعن أخبارنا فهي من كرم الله على ما يرام من جميع الوجوه. الحج يوم الثلاثاء والصحة عامة والراحة شاملة والماء متوفر للغاية والوقت بارد جداً والناس مطمئنون بحمد الله على ذلك. ومن عندنا الإخوان والأولاد يسلمون والله يحفظكم والسلام"(٦١).

وهذه الرسالة مؤرخة كما أوردنا في ١٦ ذي الحجة ولم يذكر الملك شيئاً يدل على وفاة والده. فإذا كان قد توفى في الثاني عشر من شهر ذي الحجة كان لابد وأن تتغير صيغة الرسالة لا أن يقدم التهنئة لشيخ البحرين بعيد الأضحى ولم يمض على وفاة والده سوى أربعة أيام.

وإن أرجح تاريخ لوفاة الإمام عبد الرحمن بن فيصل هو في ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٦هـ الموافق ١٤ يونيو ١٩٢٨م بناءً على الرسالة التي أرسلها جلالته إلى شيخ البحرين يشكره فيها على رسالته المؤرخة في ٢٤ ذي الحجة. والتي ذكر فيها تعزيته بوفاة الإمام عبد الرحمن فقال جلالته: "*وإن ما ذكرتم عما وقع في قلبكم من الحزن الشديد عندما بلغكم خبر وفاة والد الجميع سيدي الإمام*"(٦٢). ومن هنا نخرج بنتيجة أن الوثائق الأجنبية ليست من الدقة بمكان - ولا أقول كلها بل بعضها - وأن في تراثنا ووثائقنا ما هو أكثر دقة وصحة منها خصوصاً إذا كان كاتبها معروفاً بالأمانة والصدق، وكتبت في نفس الزمان والمكان. ولدى السؤال من كبار السن في البحرين علمت أن خبر وفاة الإمام عبد الرحمن وصل إلى البحرين من الرياض عن طريق التلغراف الذي كان مركزه الرئيسي وقتئذ بالبحرين، فأبلغ شيخ البحرين بالخبر، فأرسل بدوره تعزية إلى الملك عبد العزيز الذي كان يؤدي فريضة الحج في مكة المكرمة قبل أن يصله الخبر من الرياض.

أما لوريمر فقد أشار إلى ولادة الإمام عبد الرحمن بن فيصل في عام ١٨٥٦م(٦٣). وأورد (جون فيلبي) أن الإمام توفى عن عمر يناهز الثامنة والسبعين(٦٤). وتصبح وفاته والحالة هذه ١٩٣٤م وهذا خطأ واضح.

خلاصة القول فإن في رسائل الإمام

عبد الرحمن والملك عبد العزيز وشيوخ الخليج وحكام العرب جميعاً ما قد يلقي الضوء بعد تحقيقه ويصحح ما كتبه الأجانب على ضوئه .

ولما كان التاريخ في اللغة تعريف الوقت وأرخ الكتاب وقته[٦٥] . أي جعل له تاريخاً فإننا نواصل التحقيق في رسائل الملك عبد العزيز ونطابقها مع ما كتبه الكتاب ونترك لهم وللباحثين مزيداً من التحقيق لا في دقة التواريخ فحسب بل وفي مجريات الأحداث والوقائع ووصفها لقناعتنا بأن ما كتبه الملك عبد العزيز عن تلك الأحداث أقرب إلى الصحة أو أصح مما كتبه الآخرون إلى حد كبير لاعتمادهم على مصادر أجنبية أو بعيدة عن مجريات الأحداث .

خاتمة

هاهو التاريخ يحكي قصة الإنسان وآثاره، ويروي الحوادث بمختلف صورها . فلقد سجل التاريخ للملك عبد العزيز رحمه الله آثاراً خالدة . ومآثر شاهدة من العمران . ولاشك أن العمران من مظاهر الحضارة وعلى قدر عمران الأمصار تكون مدنيتها . وسار على نهج السلف الصالح الذين عمروا البلاد التي فتحوها . فقد عمروها بعلمهم وبعملهم . ويقف المرء إجلالا لأولئك الخالدين في التاريخ العربي الإسلامي . فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يهيئ للجزيرة العربية بطلاً من أبنائها المخلصين ألا وهو صقر الجزيرة الذي عمرها بعدله وأمنه وإصلاحاته وتوحيده للجزيرة العربية المترامية الأطراف والتي ساد فيها الأمن وعمرت البلاد في خدمة حجاج بيت الله الحرام الذين يعودون وهم يلهجون بالدعاء للملك العظيم لأنه وفر لهم الأمن والعلاج والماء وسائر مرافق الحياة الهانئة .

أ.د علي عبد الرحمن أباحسين

مدير مركز الوثائق التاريخية - البحرين

الهوامش

١ – مختار الصحاح . ص ١٣ ، (مادة تاريخ) والمنجد، ص ٨، ط ٢٤، بيروت .

٢ – رسالة مؤرخة في ١٠ محرم ١٣٢١هـ الموافق في ٩ أبريل ١٩٠٣م و٢٨ شوال ١١٣٢٥هـ/٥ ديسمبر ١٩٠٧م، وفي ٢ ذي الحجة ١٣٣٧هـ .

٣ – رسالة في ٢٧ رمضان ١٣٣٤هـ .

٤ – رسالة مؤرخة في ذي القعدة ١٣٣٤هـ .

٥ – رسالة مؤرخة في ٢ جمادى الآخرة ١٣٣٤هـ و٢٢ شعبان ١٣٣٧هـ .

٦ – رسالة مؤرخة في ٢٠ رجب وأخرى في ٢٥ رجب ١٣٣٢هـ .

٧ – رسالة مؤرخة في ١٢ رجب . ١٣٤٠هـ وأخرى في ٢ رجب ١٣٤٣هـ، و٢٤ رجب ١٣٤٣هـ، ورسالة مؤرخة في ١٥ محرم ١٣٣٨هـ، ورسالة مؤرخة في ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٣٥هـ .

٨ – رسالة مؤرخة في ٢٦ رجب ١٣٤٠هـ الموافق في ٢٦ مارس ١٩٢٢م .

٩ – رسالة مؤرخة في ٢٤ صفر ١٣٤٧هـ .

١٠ – رسالة مؤرخة في ١٠ شعبان ١٣٤٧هـ .

١١ – رسالة مؤرخة في ١٨ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ .

١٢ – رسالة مؤرخة في ٦ و٨ محرم ١٣٥٣هـ الموافق ٢٢ و٢٤ أبريل ١٩٣٤م .

١٣ – رسالة مؤرخة في ٢٩ ربيع الثاني ١٣٣١هـ الموافق ٨ أبريل ١٩١٣م .

١٤ – رسالة مؤرخة في ٢٧ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ . وأخرى مؤرخة في ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٤هـ .

١٥ – أمين سعيد . تاريخ الدولة السعودية . ج ١ ص ١٣ ، من مطبوعات دارة الملك عبد العزيز بالرياض (٩) . ورسالة مؤرخة في ١٠ ربيع ثاني ١٣٣٢هـ . وأخرى مؤرخة في ١٨ محرم ١٣٣٢هـ .

١٦ – رسالة من الشيخ مبارك آل صباح، رقم ٤٤٧، إلى القنصل العام في بوشهر أوفسينكو. مؤرخة في ١٤ رمضان١٣٢٠ هـ الموافق ١٦ ديسمبر ١٩٠٢م . وفؤاد حمزة . البلاد العربية السعودية . ص ٢٠ – ٢٤ .

١٧ – لوريمر، الجزء الأول التاريخي، ص ١٠٣٧ .

١٨ – وثيقة في أرشيف السياسة الخارجية في موسكو، رقم ١٧٠ مؤرخة في ٩ ذي القعدة ١٣١٩هـ، وأخرى مؤرخة في ٢٣ صفر١٣٢٠هـ الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢م .

١٩ – كامبل المقيم السياسي في الخليج، إلى حكومة الهند، نقلاً عن د. الحمداني . العثمانيون

والروس في الخليج العربي . الوثيقة العدد ١٦ يناير ١٩٩٠م، ص ١٠٥ - ١٠٦ . وسالدنها . عن شئون الكويت، ١٨٩٦ - ١٩٠٤م، ص ١٦٦ .

٢٠ - من الشيخ مبارك آل صباح، إلى القنصل العام الروسي في بوشهر أوفسينكو، رقم ٤٤٧، مؤرخة في ١٤ رمضان ١٣٢٠هـ/١٦ ديسمبر ١٩٠٢م .

٢١ - ورسالة الشيخ مبارك آل صباح إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مؤرخة في ١٧ شوال ١٣٢٢هـ الموافق ٢٦ ديسمبر ١٩٠٤م .

٢٢ - لوريمر، الجزء ٣، القسم التاريخي، ص ١٦٩٩ .

٢٣ - الأطلس التاريخي ص ١٣٢ و١٣٦ . وثيقة عثمانية برقم ٧٩/٢٦ يلدز مؤرخة في ٩ يونيو ١٣٠٩ رومي الموافق ١٠ ذي الحجة ١٣١٠هـ في ٢٣ يونيو ١٨٩٣م، ووثيقة عثمانية (داخلية إدارية) رقم ٥/١-١٣ في في ٢١ أكتوبر ١٣٢٨ رومي/١٣٣١هـ/١٩١٤م . ووثيقة عثمانية رقم ٧٩/٢٦ مؤرخة في ٧ ذي الحجة ١٣١٠هـ .

٢٤ - لوريمر . الجزء الأول التاريخي، ص ١٠٣٧ .

٢٥ - رسالة مؤرخة في ٩ ذي القعدة ١٣١٩هـ الموافق ١٨ فبراير ١٩٠٢م وأصلها في الأرشيف الروسي، وخير الدين . الزركلي . الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز . ص ٢٧، طبع بيروت، ط٤، ١٩٨٤م - فلبي . العربية السعودية . ص٢٣٩، طبع بيروت، ١٩٥٥م . والمجلة التاريخية . ابن سعود والشريف حسين، المجلد ١٤، رقم ٣، ١٩٧١م - الأطلس التاريخي للدولة السعودية، ص ١٣٤ و ص ١٣٨ - والمانع، ص ١٧ و١٨ وفهد المارك، من شيم الملك عبد العزيز، ج ١، ص ١٢٧ - ولوريمر، دليل الخليج القسم التاريخي، ج ١/ب، ص ١٠٣٧ النص الإنجليزي، وج ٣ . ص ١٦٩٩ - وابن هذلول . تاريخ ملوك آل سعود . ص ٦٢، طبع الرياض، ط١٦، ١٩٦١م - وصلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها . ص ٤٢، طبع بيروت بلا ت .

٢٦ - الأطلس التاريخي، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

٢٧ - المعالم، ص ١٨٦ - ٢٨٨ ، والأطلس التاريخي، ص ١٩١، وتحفة المستفيد، ص ٢٤١ .

٢٨ - أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج ٢ . ص ١٦٦ . مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، رقم ٩ . مطابع الهلال بالرياض بلا ت - وعمر بن غرامة العمروي، المعالم الجغرافية، دراسة ميدانية . ص ٢٩٦، ط ١، الرياض ١٩٨٥م - وسمو الأمير سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، ص ١٦٦ و١٦٧، ط ١، الرياض ١٩٦١م - وأمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ط١، بيروت، ١٩٢٨م، ص ٣٣٨ - وأحمد عبد الغفور عطار، صقر الجزيرة العربية، المجلد ٢ . ص ٤٥٩ .

٢٩ - حافظ وهبة . جزيرة العرب في القرن العشرين، ط ٥ ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٧٠ .

والزركلي . ج ١ ص ٣٤١ .
٣٠ – د. إبراهيم جمعة . الأطلس التاريخي للدولة السعودية، مطبوعات الدارة رقم ١١، طبع الرياض ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ص ١٧٨ و١٩٢ .
٣١ – إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن . تذكرة أولي النهي والعرفان، ج ٣، ص ٦٤، ط ١، الرياض . ويوسف ياسين . الرحلات الملكية، ص ٤٥ .
٣٢ – وثائق يلدز خصوصي، ٢٧٢/٧١، مؤرخة في ١٤ رمضان . ١٣١٠هـ/ ٣ أبريل ١٨٩٣م، أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في استنبول . تسلسل ٥٣٥٧ و٥٣٥٨ . ورسالة من محمد بن ثنيان إلى شيخ البحرين مؤرخة في ٢٧ رمضان ١٣٣٤هـ . ودفلتشين : قبطان روسي عين كضابط مخابرات قام برحلة إلى مكة المكرمة . وبعد عودته أعد تقريراً عن بعثته فقامت القيادة العسكرية العامة في سان بطرسبرج بطبع تقرير الرحلة وذلك في عام ١٨٩٩م . وكان التقرير مختوماً بكلمة (سرّي)، أنظر بحث للدكتور أفيم رزفان، ص ١٥ (مخطوط) . وبحث للدكتور جورجي مورسكي حول سفر القبطان دافلتشين وسلطانوف للحجاز ص ٦ و٧ (غير منشور) .
٣٣ – الأطلس ١٧٥ .
٣٤ – الأطلس ١٧٨ . ورسالة من الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ٢٨ ربيع أول ١٣٤٣هـ الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٢٤م .
٣٥ – أم القرى . العدد الأول، ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣/١٢ ديسمبر ١٩٢٤م . ورسالة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مؤرخة في ٢٢ ذي القعدة ١٣٢٩هـ . وتقرير للكابتن دافلتشين حول سفرة للحجاز عام ١٨٩٩م (بحث للدكتور جورجي مورسكي – مخطوط) .
٣٦ – الأطلس ص ١٧٩ . ورسالة الملك عبد العزيز لشيخ البحرين مؤرخة في ١٠ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ . ورسالة من الأمير سعود بن عبد العزيز مؤرخة في ٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ .
٣٧ – المعالم الجغرافية ص ٣٢٤ و ٣٤٩ . ورسالة من الأمير محمد بن عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ٢٤ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ .
٣٨ – الأطلس ص ١٧٩ . أما (الدويش) فقد قتل في ٦ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ . ورد ذلك في رسالة من الأمير سعود بن عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ٦ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ .
٣٩ – المعالم الجغرافية والتاريخية لمواقع الملك عبد العزيز الحربية، ٣٢٤/٢ . وانظر رسالة من الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ٨ رمضان ١٣٤٣هـ الموافق ٣ أبريل ١٩٢٥م .
٤٠ – نفس المصدر السابق . ورسالة من الملك عبد العزيز إلى شيخ البحرين مؤرخة في ١٨ صفر ١٣٤٤هـ .
٤١ – أولي النهي ص ١٥٠ . والزركلي شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز . ج ١، ص ٣٤٨ . وعمر غرامه العمروي ص ٣١٢ – ٣٦٣ . والرحلات الملكية المنشورة في جريدة أم القرى ص ١٤ . ورسالة من الملك عبد العزيز مؤرخة في ٢ رجب ١٣٤٣هـ .

٤٢ – الريحاني ص ٣٩٢ . وأم القرى . السنة الأولى . العدد ٢٥ . وأمين سعيد . تاريخ الدولة السعودية ج ٢ .
٤٣ – أم القرى، السنة الأولى العدد ٥٢ . ص ٤ .
٤٤ – مجلة العرب . مؤلفات تاريخ مكة . ص ٩٤٩ .
٤٥ – رسالة مؤرخة في ٢٥ محرم ١٣٤١هـ وأخرى في ٢٥ صفر ١٣٤١هـ ورسالة مؤرخة في ٢٨ صفر ١٣٤١هـ .
٤٦ – أمين سعيد . تاريخ الدولة السعودية، ج ٢، ص ٢٠ . والأطلس التاريخي ص ١٩١ .
٤٧ – رسالة مختومة بختم الملك عبد العزيز مؤرخة في ٢٥ محرم ١٣٤١هـ وأخرى في ٢٥ صفر ١٣٤١هـ وثالثة في ٢٨ صفر ١٣٤١هـ .
٤٨ – العقيد محمد إبراهيم رحمو . أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه ص ١١٧ .
٤٩ – مجلس وكلاء مضبطة لري . رقم ٣٠/صفحة ٣١ في ٦ رجب ١٣٠٥هـ/١٨٣٤ .
٥٠ – داخلية سياسية ٣٧/١٥ مؤرخة في ٥ صفر ١٣٣٠هـ ٢٢٣٨ . ووثيقة أخرى رقم ٣٧/١٥ مؤرخة في ٨ يناير ١٣٢٧ رومي الموافق ١٣٢٩ و١٣٣٠هـ/١٩١١ و١٩١٢م .
٥١ – داخلية سياسية رقم ٢ – ٤٠/٧ مؤرخة في ٢٧ أكتوبر ١٣٢٧ رومي الموافق ١٣٢٩ و١٣٣٠هـ/١٩١١ و١٩١٢م تسلسل ٢٤٩٧ .
٥٢ – إبراهيم جمعة، الأطلس التاريخي للدولة السعودية ص ١٢٧، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، عن أمين سعيد . تاريخ الدولة السعودية المجلد الأول، دار الكتاب العربي، بيروت ص ١٨١ .
٥٣ – جون فلبي . العربية السعودية، مكتبة لبنان، ١٩٥٥، ص٢٣٥ . والزركلي . الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، طبع بيروت ط ٤، ١٩٨٤م . ص ١٩ و٢٠ . والدكتور خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ٤٢ . وحافظ وهبة . جزيرة العرب في القرن العشرين . ط ٥ . القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٤١ . ومحمد المانع . توحيد المملكة العربية السعودية . ط ١، طبع في الدمام ١٩٨٢م ص ٣٦، وإبراهيم بن صالح بن عيسى، بعض الحوادث الواقعة في نجد، ط١، دار اليمامة بالرياض ١٩٦٦م، ص ١٩٧ و١٩٨ . ووثيقة عثمانية (يلدز متنوع) ٧٩/٢٦ في ٩ يونيو ١٣٠٩ رومي / ٧ ذي الحجة ١٣١٠ه/٢٣ يونيو ١٨٩٣م .
٥٤ – فصيح بن صبغة الله الحيدري . عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد، ص ١٢٣، مخطوط . وعثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، الجزء الأول، ص ٨ . الرياض .
٥٥ – الأطلس التاريخي ص ١٤٤ .
٥٦ – رسالة مخلص باشا إلى الشيخ مبارك باشا آل صباح . مؤرخة في ٢٤ تشرين الثاني ١٣٢٠ رومي.

الموافق ٢٨ رمضان ١٣٢٢هـ/ ٦ ديسمبر ١٩٠٤م . ومن الشيخ مبارك آل صباح إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة رسالة مؤرخة في ١٧ شوال ١٣٢٢هـ الموافق ٢٦ ديسمبر ١٩٠٤م . ورسالة من مخلص باشا إلى الشيخ مبارك آل صباح مؤرخة في ٢٨ رمضان ١٣٢٢هـ . ورسالة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة مؤرخة في ١٩ ربيع ثاني ١٣٢٩هـ .

٥٧ – حافظ وهبة، مقدمة، الطبعة الأولى ١٩٥٤م .

٥٨ – محمد المانع، توحيد المملكة العربية السعودية ص ١٨ و١٩ .

٥٩ – فهد المارك . من شيم الملك عبد العزيز . ج ١، ص ١٢٧ ، ١٣٧٥هـ . وجون فلبي، العربية السعودية، ص ٢٣٥ .

٦٠ – ميكروفيلم (ميك) ١٨٢ ، ص ٢٣٣/آر/١٥/٢/١/٦ الرسالة من (بارت) إلى (هاورث) المقيم البريطاني في بوشهر .

٦١ – رسالة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة، برقم ٥١٦، وتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٣٤٦هـ .

٦٢ – رسالة جلالته برقم ١٠٦٣ وتاريخ ٢٨ ربيع أول ١٣٤٧هـ .

٦٣ – لوريمر، دليل الخليج . شجرة آل سعود ج ١٤/٣/٣ .

٦٤ – جون فلبي . العربية السعودية (الطبعة الإنجليزية) ص ١٩٥٥/٢٣٩م .

٦٥ – ابن منظور، لسان العرب ٤٤/١ .

المراجع

- آل عبد المحسن، إبراهيم بن عبيد . تذكرة أولي النهي والعرفان، ج ٣، ط ١، الرياض .
- ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، إعداد يوسف خياط، بيروت، بلات .
- الأحسائي، محمد بن عبد الله بن عبد المحسن الأنصاري . بتاريخ الأحساء القديم والجديد، دمشق، ١٩٦٣م .
- ابن بشر، عثمان . عنوان المجد في تاريخ نجد، الجزء الأول، الرياض .
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ط ١، دار اليمامة، الرياض، ١٩٦٦م .
- ابن هذلول، سمو الأمير سعود . تاريخ ملوك آل سعود، ط١، الرياض ١٩٦١م .
- جمعة، إبراهيم . الأطلس التاريخي للدولة السعودية ومطبوعات دارة الملك عبد العزيز، رقم ١١، الرياض، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- حمدي. عبد الله . ابن سعود، بيروت، ١٩٥٣م .
- حمزة، فؤاد . البلاد العربية السعودية، ص ٢٠ – ٢٤ .
- الحيدري، فصيح بن صيغة الله . عنوان المجد في أحوال بغداد والبصرة ونجد، مخطوط، صورة محفوظة في مركز الوثائق التاريخية بالبحرين .
- رحمو، العقيد محمد إبراهيم . أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبد العزيز وحروبه .
- الريحاني، أمين . تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ط ١، بيروت، ١٩٢٨م .
- الزركلي، خير الدين . شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز . بيروت .
- الزركلي، خير الدين . الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، الجزء الأول، بيروت، ط ٤، ١٩٨٤م .
- السعدون، د. خالد . العلاقات بين نجد والكويت، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، رقم ٣٣، الرياض، ١٩٨٣م .
- سعيد، أمين . تاريخ الدولة السعودية . الجزء الأول والجزء الثاني، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز بالرياض(٩) .
- عطار، أحمد عبد الغفور . صقر الجزيرة العربية، المجلد ٢ .
- العمروي، عمر بن غرامة . المعالم الجغرافية لمواقع الملك عبد العزيز الحربية، دراسة ميدانية، ط ١، الرياض ١٩٨٥م .
- فلبي، جون . العربية السعودية، مكتبة لبنان . ١٩٥٥م .

- فلبي، جون . العربية السعودية (الطبعة الإنجليزية) ١٩٥٥م .
- لوريمر، ج.ج. . دليل الخليج القسم التاريخي، الجزء الأول والجزء الثالث، الدوحة .
- المارك، فهد . من شيم الملك عبد العزيز، الجزء الأول، الرياض، ١٣٧٥هـ .
- المانع، محمد . توحيد المملكة العربية السعودية . ط ١، الدمام، ١٩٨٢م .
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر . مختار الصحاح . طبع دار المستقبل، بيروت، ١٩٨٧م .
- المختار، صلاح الدين . تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها' بيروت .
- وهبة، حافظ . جزيرة العرب في القرن العشرين، ٥b، القاهرة ١٩٦٧م .
- ياسين، يوسف . الرحلات الملكية عام ١٣٤٣هـ . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . ط ٢، الرياض ١٤٠٤هـ .

الدوريات والصحف

- أم القرى . هذا بلاغ، العدد الأول، ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ/١٢ ديسمبر ١٩٢٤م .
- أم القرى . فتح جدة، السنة الأولى . العدد ٥٢، ١٣٤٤هـ .
- المجلة التاريخية . ابن سعود والشريف حسين . المجلد ١٤، رقم ٣، ١٩٧١م .
- مجلة العرب . مؤلفات تاريخ مكة، ص ٩٤٩ .
- مجلة الوثيقة . الصلة التاريخية بين البحرين والمملكة العربية السعودية . أباحسين، د. علي . ١٩٨٦م، العدد ٩، ص ٦٤ – ١٠٦ .
- مجلة الوثيقة . العثمانيون والروس في الخليج العربي . الحمداني، د. طارق، ١٩٩٠م، العدد ١٦، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

الدور الحضاري

وانعكاساته على الشعر

بقلم الدكتورة :

أنيسة أحمد خليل المنصور

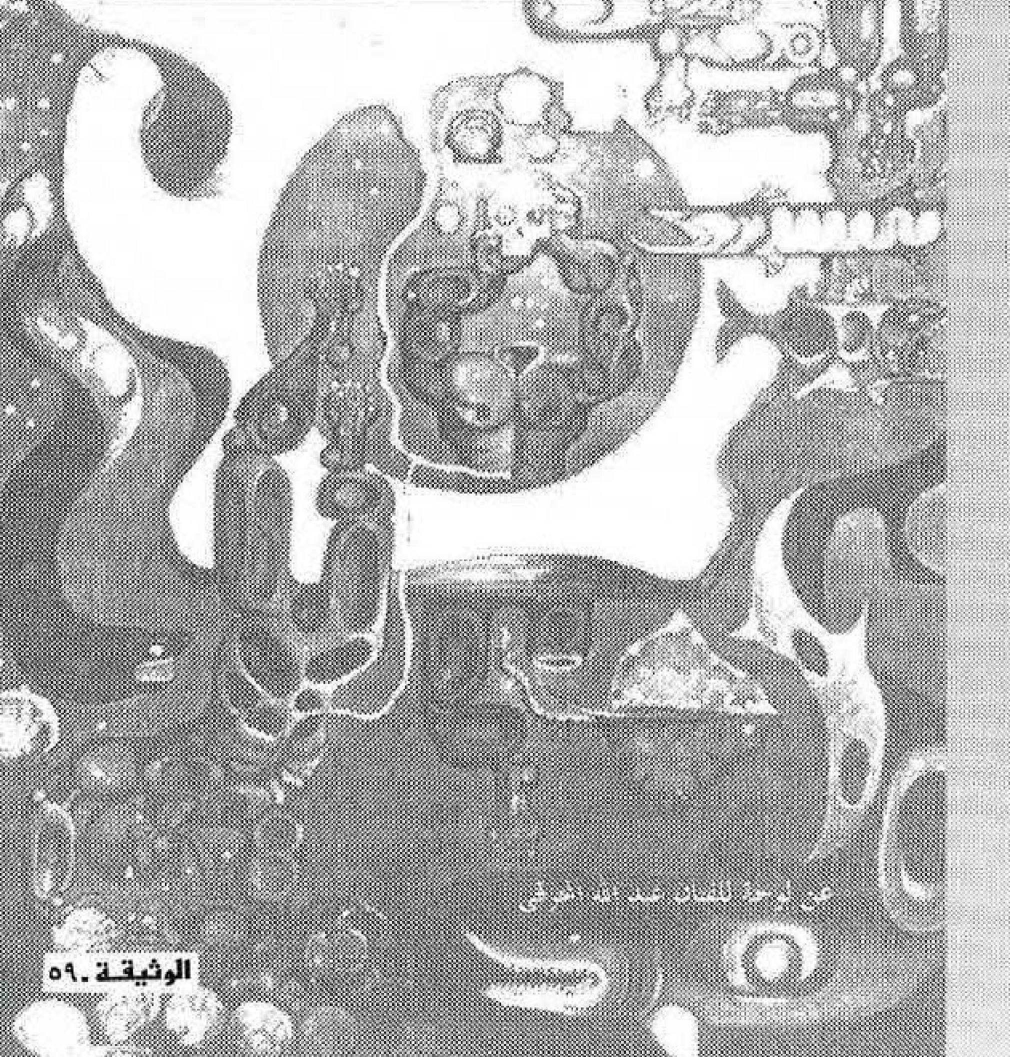
لعبت منطقة البحرين دوراً حضارياً مميزاً على امتداد العصور القديمة، فقد كانت أحد مراكز التحضر الهامة في الجزيرة العربية، وساعدها على ذلك عدة عوامل أهمها :

الموقع

يحتل إقليم البحرين الجزء الشرقي من الجزيرة العربية ويمتد من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً، ويتاخم أرض اليمامة التي كانت تشكل مع البحرين إقليم العروض وتتصل المنطقة ببحار هامة فهي تقع على الخليج العربي وما يتصل به من امتدادات بحرية كالمحيط الهندي الذي يتصل بعوالم متحضرة .

ولقد أضفى عليها هذا الموقع تميزاً وأهمية، فهي تقع في منتصف الطريق المؤدي إلى بلدان آسيا من جهة وبلاد ما بين النهرين وسوريا والشرق الأدنى من جهة أخرى . وكانت تمثل شرياناً هاماً ومحطة للاتصال والتبادل التجاري بين بلدان العالم القديم . فهي المنفذ البحري للجزيرة العربية من جهة الشرق، وحلقة الاتصال البري بين بعض مناطق الجزيرة والعراق موطن حضارة بابل وآشور التي تجاور الشام

منطقة البحرين
في العصر الجاهلي



الوثيقة .٥٩

وبلدان البحر المتوسط من جهة أخرى . كما أن خطوط الملاحة التجارية جعلتها على اتصال وثيق بحضارة الهند والصين وما جاورها[1] .

وقد أهلها هذا الموقع لأن تلعب دوراً هاماً في حركة التجارة العالمية، وأن تمارس دوراً في التفاعل الحضاري بين دول العالم القديم، منذ فترة تاريخية مبكرة .

الحياة الاقتصادية

عاشت منطقة البحرين حياة اقتصادية رخيَّة وشكلت عناصر الاقتصاد فيها أهم المرتكزات الحضارية حيث مارس أهلها ألواناً شتى من النشاط الاقتصادي، تمثل في :

التجارة : وضع لبناتها الأساسية أبناء المنطقة من الفينيقيين . وقد ازدهرت تجارتها منذ أقدم الأزمنة وشكلت عنصراً حيوياً في الحياة الاقتصادية وزخر الساحل العربي بالموانئ التي تغص بأنواع التجارات . ويذكر أن البحرين في عام ٣٦٠٠ ق. م كانت تتوسط الطرق البحرية التي تسير عبرها تجارة السومريين . وخلال الألف الثاني ق. م أصبحت دلمون من أهم مراكز الخليج التجارية، وكونت بذلك حلقة الوصل بين بلاد الرافدين ووادي السند[2] .

وتشير الدلائل إلى أن التبادل التجاري مع "أور" كان مستمراً، وأن بلاد الرافدين كانت تستورد من البحرين الذهب والحجارة والأخشاب والنحاس ومواد نفيسة مثل اللؤلؤ والأحجار الكريمة[3] .

وتمثل الهند الجهة التجارية الرئيسية مع المنطقة . ويذكر أن سكان دلمون تاجروا في ٤٢ نوعاً من السلع كالمنتجات الخشبية والحيوانية والمنتجات البحرية والأحجار الكريمة والمعادن والمحاصيل الزراعية[4] .

وتشير الدراسات أن أهل جرها على ساحل الاحساء كانوا من أنشط الناس في التجارة، وأنهم تاجروا في البر والبحر . وكانوا قوماً مسالمين، ولهذا فإنه لما أراد أنطيوخس الثالث (ملك السلوقيين) الاستيلاء على بلادهم سألوه الصلح وألا يقضي على ما أعطتهم الآلهة من سلم وحرية أزليين . ويظهر

أنهم بلغوا درجة عالية من الثراء حتى اصطبغت أخبارهم بصبغة أسطورية . ويذكر أنهم زينوا منازلهم بالعاج والفضة والحجارة الكريمة ، وجملوا سقوف أبنيتهم وأبواب غرفهم بالذهب والأحجار النفيسة(٥) .

وكانت دارين من الموانئ الشهيرة التي عن طريقها تصل بضائع الهند إلى مختلف أنحاء الجزيرة كالأقمشة وأنواع الطيب والأفاويه والأسلحة وغيرها(٦) ، وفي العصر الجاهلي احتفظت المنطقة بمكانتها التجارية ، ويذكر أن سادات اليمامة والبحرين كانوا من الأثرياء الثقال . وأنهم كانوا يحملون تجاراتهم من أقمشة وتجارة بحرية إلى مكة(٧) وتشير المصادر إلى ابن يامن كان أحد أغنياء المنطقة الذين نالوا صيتاً بعيداً(٨) .

واشتهرت بعض مناطقها بألوان من التجارة نسبت إليها وظهر صداها في التراث الأدبي . وقديماً قيل "كجالب التمر إلى هجر" للدلالة على غناها بهذا المحصول . واكتسبت دارين سمعة في تجارة الطيب وازت شهرة هجر بالتمر وشهرة الخط بالرماح الخطية .

وإذا كان للبحر دوره الخطير في تجارة المنطقة فقد برز أيضاً كعنصر حيوي في إنتاج اللؤلؤ وهو أحد الموارد الاقتصادية التي ارتبط اسمها بالبحرين . وكانت مغاصاته تمتد من الكويت شمالاً حتى مضيق هرمز جنوباً وأهمها ما وقع حول جزر البحرين وشكلت مياه الخليج بيئة صالحة لإنتاجه(٩) وكان اللؤلؤ من السلع الرائجة والمطلوبة ، ولكنه شكّل في الوقت نفسه إغراء مادياً دفع الطامعين للاستيلاء على المنطقة والسيطرة على تجارته .

وقد صاغت صناعة الغوص حياة الناس وفرضت نفسها على الحياة الأدبية خاصة في الشعر وأشار إليها بعض شعراء الجاهلية كالأعشى والمسيب بن علس والمخبّل السعدي فوصفوا أسلوب صيد اللؤلؤ ، وأدواته ، والمعاناة التي يتعرض لها الغواص(١٠) كما كان هذا المنتوج من أهم عناصر الترف التي جُعلت حلية تتزين بها نساء ذلك العصر .

ومن ناحية أخرى فإن النشاط البحري الواسع أدى إلى انتشار وإتقان صناعة السفن وأشار طرفة بن العبد إلى بعض أنواع السفن الرائجة فذكر

"العَدَوْلِيَّة" ويبدو أنها سفينة كبيرة . فعَدَوْلى في الاصطلاح اللغوي يعني الشجرة القديمة الطويلة . ويرجح صاحب القاموس المحيط أنه ربما كان اسم رجل يتخذ السفن أو اسماً لقوم كانوا ينزلون هجر، وربما عَنَتْ الملاح(١١) .

لقد شكلت التجارة أحد المرتكزات الهامة التي دعمت الدور الحضاري للمنطقة وهيأت فرصة التفاعل مع الأمم المتحضرة ولعب البحر دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي، حيث شكل عنصراً حيوياً استثمرت مياهه لنقل التجارة، واستغلت ثرواته من أسماك ولآلئ لزيادة الرخاء .

الزراعة :

للبحرين تاريخ زراعي عريق، فقد تميزت بخصوبة أراضيها ووفرة مياهها بفضل ما حباها به الله من عيون متدفقة شابهت الأنهار في جريانها، مما شكل قاعدة صلبة لتدعيم النشاط الزراعي .

يصف البكري بلاد البحرين فيقول: "هي بلاد سهلة كثيرة الأنهار من العيون عذبة الماء، ينبطون الماء على القامة والقامتين، والحناء والقطن على شطوط أنهارها بمنزلة السوسن، وهي كثيرة النخل والفواكه، ولهم ثمر يسمى المانجي" .

ويعدد ما تنتجه جزيرة أوال من محاصيل فيذكر أنها كثيرة النخل والموز والجوز والأترج والزرع والأشجار والأنهار(١٢) ومن القدماء من يرجح تسميتها بالبحرين لوجود بحيرة على باب الاحساء بينها وبين البحر عشرة فراسخ(١٣) .

وكانت النخلة تشكل القاعدة الصلبة في النشاط الزراعي وقد تعددت أصناف البلح واختلفت ألوانه وصاغت النخلة حياة الناس، واعتمد عليها سكان المنطقة كمادة غذائية رئيسية، كما زودتهم بالكثير من احتياجاتهم، فمن ليفها صنعوا الحبال، ومن سعفها عملوا الكثير من أدواتهم، واستمدوا من بعض أجزائها وقودهم . كما كان التمر من صادراتهم التجارية الهامة، بسبب كثرة إنتاجه، وجودة بعض أصنافه حتى ضرب به المثل كما أشرنا .

وعلى الصعيد الأدبي مثُلت البيئة الزراعية ببساتينها ونخيلها وأشجارها عنصراً بارزاً في شعر البحرين .

ترتب على نشاط الحياة الاقتصادية قيام مراكز تجارية عدُ بعضها من أسواق العرب المعدودة، وأشهرها : **سوق هجر** وتقام في ربيع الآخر، **وسوق المشقَّر** في جمادى الثانية وكان يقصدها أحياء من العرب من مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، كما يقصدها تجار فارس ويشرف عليها بنو تميم . ويذكر المرزوقي أنها أرض معجبة لا يراها أحد فيصبر عنها وكان لا يقدمها لطيمة إلا تخلف بها منهم ناس فمن هناك صارت بهجر أحياء عديدة من العرب وغيرهم . ويذكر الدارسون سوق الزارة والجرعاء ودارين ذات الشهرة البعيدة بتجارة العطور وبالقرب من هذه الأسواق تقع أسواق اليمامة وصحار ودبا وكان يتولى التعشير فيها سادات القبائل[١٤] وشكلت المكوس والضرائب مبالغ ضخمة .

لقد كان الرخاء الاقتصادي مؤشراً له دلالته على ما بلغته البحرين من رقي . كما كان له أثره في تدعيم الدور الحضاري للمنطقة .

الحياة الاجتماعية

من أبرز المظاهر الاجتماعية التي أدت إلى وقوع تقارب بين أجزاء المنطقة من الناحية الأدبية انتماء أغلب سكانها إلى قبيلة ربيعة . الذين هاجروا إليها في أزمنة متفاوتة . فهاجرت تنوخ إلى البحرين، ثم لحقتها عبد القيس فدفعتها عنها . وانتشرت الأخيرة في أجزاء اليمامة . وعندما جاء الإسلام كانت عبد القيس تنتشر في معظم أرجاء البحرين خاصة في المناطق الساحلية . وسكنت معها قبيلة بكر بن وائل التي امتدت مساكنها إلى اليمامة أيضاً كما شاركتها في العيش بعض عشائر تميم وقبائل من الأزد[١٥] .

ساعدت الطبيعة وألوان النشاط البشري على تحول الكثير من السكان إلى مجتمعات متحضرة أو شبه متحضرة . فقد عملوا في الزراعة . وتطلبت هذه المهنة عناية بالزرع، ورعاية للمحصول أدت في النهاية إلى الاستقرار الذي يعدُ الخطوة الأساسية في طريق التحضر وقد هيأ لهم ذلك فرصة التأمل في خواص البيئة وعناصرها وتطويرها، مما أكسبهم خبرة بالحياة نفسها .

كما أتاح لهم احتكاكهم بعناصر متحضرة عربية وغير عربية فرصة التعرف على أساليب في الحياة جديدة، ووسّع رؤاهم، وعمّق تجاربهم . فبحكم قربهم من فارس وقيام روابط سياسية وتجارية معهم تهيأت لهم فرصة التعرف على مظاهر حضارتهم، وما شاع عندهم من معارف ومعتقدات، وتفتحت عيونهم على بيئات جديدة، وأساليب في العيش متعددة هذا مع بقاء الكثير منهم محافظاً على نسق حياته البدوية .

ومن المظاهر الحضارية قيام المدن، وتطالعنا أسماء عديدة ذكر البكري سبعاً منها كالقطيط والعقير وأوال(١٦) وتحول بعضها إلى موانئ، كما انتشرت فيها المنشآت العمرانية ويشير اللغويون إلى وقوع ارتباط بين لفظتي "هجر" والبناء فيسمي العرب البنّاء "هجرياً" وفي ذلك دلالة على التصاق أهل هجر بهذا العنصر الحضاري(١٧) .

الحياة السياسية

(دور المناذرة في المنطقة)

مع غلبة النظام القبلي عرفت المنطقة لوناً من التنظيم الحكومي المركزي، وضرباً من التوحد بسبب خضوعها للدولة الفارسية . التي كانت تحكمها حكماً مباشراً فيه الكثير من العسف والقمع . وحين تم لها بسط سيادتها على مملكة الحيرة جعلت منطقة البحرين تابعة لملوك المناذرة واستطاع هؤلاء مد نفوذهم إلى نجد .

ولعب المناذرة دوراً هاماً ومزدوجاً في حياة المنطقة فعلى صعيد الحياة السياسية ساد العلاقة لون من الصراع المكشوف بينهم وبين أهل البحرين . وكانت الحيرة قد أنشأت جيشاً ضخماً منظماً يتكون من خمس فرق قوية : أشهرها على الإطلاق كتيبة "دوسر" التي ضرب بها المثل في العنف حتى قيل "ابطش من دوسر"(١٨) . ووصل بعض ملوكها إلى درجة عالية من الاستبداد والقسوة والغرور، كعمرو بن هند، الذي اشتط في أخذ المكوس من أهل البحرين . وقد ولّد ذلك نفوراً منه عندهم . ومما أجج الصراع تأبّي قبائل البحرين على سلطة الحكومة المركزية، ورفضهم الانصياع لها، وسعيهم للتخلص من نفوذها .

ويفيض شعر المنطقة بوصف جبروتهم وطغيانهم . ويشير يزيد بن

خذاق الشئي إلى الأسباب التي دعته إلى هجاء النعمان بن المنذر فيخاطبه ذاماً متوعداً[١٩] : (كامل)

نُعمـانُ إنك خـائن خَـدِعُ
يُخفي ضميركَ غير ما تُبدي
فإذا بـدا لك نحتُ أثلتِنـا
فعليكَهـا إن كنتَ ذا حَرْدِ
يأبـى لنـا أنّـا ذوو أنَفٍ
وأصولنا من محتِد المجدِ
إنْ تغـزُ بالخرْقـاءِ أسرتَنا
تلقَ الكتـائبَ دوننا تُرْدي

ومن شعراء البحرين الذين هجوا عمرو بن هند طرفة بن العبد، والمتلمِّس الذي أقذع في هجائه وآخرون[٢٠] على أن لهذه التبعية وجهاً إيجابياً تمثل في تقريب المناذرة مسافة الخلاف بين القبائل، وإيجاد ضرب من التوحد بينهم . كما أن الجيش الضخم الذي أنشأوه أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية . فكان من مهامه حماية اللطائم وهي إبل التجارة التي تحمل الطيوب .

كما شكل المناذرة مرجعية للقبائل يراجعونهم في شئونهم ويحكمونهم في خلافاتهم، وقد قرّب كثير من ملوكهم أشراف العرب، ومنحوهم رعايتهم. وخصوا السادة بعطاياهم السنية، كما أسندوا إليهم بعض المهام السياسية والمالية[٢١] .

على أن أبرز الوجوه الإيجابية للمناذرة هو الدور الذي قاموا به إزاء الأدب، مما ترتب عليه قيام نهضة شعرية، شاركوا فيها مشاركة فعالة . فقد أحبوا الشعر وتذوقوه، وساهم بعضهم في قرضه . وكانت قصورهم موضع إشعاع للشعر واستقطاب للشعراء فاستقبلوهم واستمعوا لإنشادهم ومنحوهم الجوائز[٢٢] .

ويشير الرواة إلى دورهم في المحافظة عليه فيذكرون أن النعمان بن المنذر أمر بأن تنسخ له أشعار العرب في الكراريس وأنه وضعها في أسفل قصره الأبيض . ويقال إنه كان عند أبنائه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته[٢٣] . وقد أصبحت الحيرة في أيام عمرو بن هند موئل الشعراء . ولأكثرهم أخبار مع هذا الملك، فكانوا يتنافسون في مجلسه وينقدون بعضهم البعض[٢٤] .

ويعدُّ طرفة بن العبد وخاله المتلمس من أبرز شعراء هذا المجلس، ومع ذلك فهما ممن غدر بهم هذا الملك .

ويمكن القول أن الخطاب الشعري الذي علا في تلك الدوائر دار جزء منه حول مديح أولئك الملوك، كما اتجه قسم منه إلى هجائهم ورثائهم . وقد غذت تلك البيئة المترفة وما شاع فيها من مظاهر البذخ خيال الشعراء، وأمدتهم بمضامين عديدة . ومن ثم أصبح المناذرة عنصراً مؤثراً في حياة المنطقة سياسيا وحضارياً وأدبياً .

الحياة الفكرية

شاعت في بيئة البحرين كما هو الشأن في البيئات العربية الكثير من المعطيات المعرفية البسيطة، ومبادئ العلوم الفطرية التي أدركها العرب بواسطة التجربة أو صدق الحس وقوة النظر، أو عن طريق التأثر بغيرهم من الشعوب . فكانت لهم معارف في علم الفلك والتداوي . وباعٌ طويل في علم الفراسة والقيافة، ومعرفة بالأنساب والأخبار وما إلى ذلك .

وقد هيأ عنصر التجارة واحتكاك سكان البحرين بالعديد من الأمم المتحضرة كالروم والفرس والهنود فرصة التعرف على الكثير من الاتجاهات والأفكار، فعرفوا مختلف الديانات من يهودية ومسيحية ومجوسية . التي كانت تتصارع فيها المذاهب والآراء مما رقّى مداركهم وأثرى رصيدهم المعرفي فأكسبهم ذلك مرونة عقلية، ومقدرة على النظر في مختلف التوجهات الفكرية . وزاد في تعميق رؤاهم وصقل مشاعرهم ألوان الصراع الذي خاضوه نتيجة شيوع النظام القبلي، وخضوعهم لسلطة المناذرة المستبدة .

وكان لهذه العوامل أثرها في إخصاب حركة الشعر وإثراء الرصيد الأدبي . وقد شكلت بيئة البحرين بكل ما فيها من خصائص تربة صالحة وفضاء مواتٍ نبتت فيه بذور الشعر وترعرعت . فقد غذّت الظروف السابقة مواهب الشعراء وصقلتها، وأنضجت تجاربهم منذ فترة مبكرة وأذنت بمولد الشعر فيها قبل غيرها . هذا فضلاً عن الميل الفطري عند العرب إلى بلاغة الكلام وفصاحته .

فكان من الطبيعي أن يكون للبحرين دور نشط، ومساهمة إيجابية في بناء الشعر العربي وإرساء قواعده .

أسبقية الشعر في منطقة البحرين

يشير رواة الأدب إلى أسبقية هذه المنطقة في الشعر فيقول ابن سلام : "كان شعراء الجاهلية في ربيعة أولهم المهلهل والمرقشان وسعد بن مالك وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة ثم تحول (الشعر) في قيس . ."[٢٥] ويدل قوله "ثم تحول" على هذا الترتيب الزمني وتابعه في مقولته تلك رواة الأدب الآخرون[٢٦] .

وقد شاع الشعر في جميع القبائل المنحدرة من ربيعة وأكثرهم من قبيلة بكر بن وائل .ومن شعرائها عمرو بن قميئة والمرقشان وطرفة . . ومن تغْلِب مهلهل وعمرو بن كلثوم . ومن عبد القيس المثقب والممزق والمفضل النكري ويزيد بن خذاق . . . أما المتلمس فهو نزيل تلك المنطقة . . .[٢٧] .

ويذهب رواة الأدب إلى أن عمرو بن قميئة أول من قال الشعر، وقصَّد القصيد، وأنه كان معاصراً للمهلهل بن ربيعة، وصحب امرأ القيس حين ذهب إلى بلاد الروم يستمدّهم على بني أسد[٢٨] .

ونحن وإن لم نكن على يقين من صحة الروايات والمقولات المذكورة إلا أننا نعتقد أن لها دلالتها التي تشير إلى دور البحرين الفعال في وضع اللبنات الأولى للشعر العربي، ومساهمتها الإيجابية في تأسيس قواعده .

إن القول بأسبقية المنطقة في قرض الشعر يستتبعه الاعتقاد بريادتها في الكثير من مضامينه . ويذكر المرزباني أن عمرو بن قميئة أول من بكى الشباب[٢٩]، فوضع بذلك ركائز مضمون شعري أصيل استثمره من أتى بعده من الشعراء وتوسعوا فيه . كما أنه أول من نطق بوصف الخيال . وعلّق أبو هلال العسكري على أبياته بأنها أبلغ ما قيل في وصف بخل المحبوب، ومنها أخذ المحدثون معانيهم . كما نوّه بها الشريف المرتضي[٣٠] . ونسب لابن قميئة نفسه أول تشبيه للهلال بقلامة الظفر . ولعل تلك الابتكارات الشعرية هي التي حدت بالنقاد الأقدمين إلى تصنيفه ضمن فحول الشعراء . وقد قيل أن للفحل منهم مزية كمزية الفحل على الحقاق[٣١] .

وللمثقَّب العبدي معان في وصف الناقة لم يسبق إليها . وبلغ من إعجاب أبي عمرو بن العلاء به – وهو من *مشاهير رواة الأدب* – أن قال : "لو كان الشعر مثلها – *أي القصيدة التي منها وصف الناقة* – لوجب على الناس أن يتعلموه" وقيل عن وصفه للغبار إنه لم يوصف بأحسن من لفظه قط(٣٢) .

وليزيد بن خذاق الشنِّي سَبْقٌ في تناول موضوع الزهد، فهو أول من ذم الدنيا(٣٣) .

ولا نعتقد بعد الذي ذكرناه أننا بحاجة إلى المزيد من الأدلة لبيان دور شرق الجزيرة العربية في الشعر فمساهمتها فيه واضحة، ودورها في ابتكار معانيه بارز . ولعمري فإنه لمن فضول القول أن تلك التلوينات الفكرية والإسهامات الأدبية هي أهم مظاهر الحضارة الإنسانية والرقي العقلي .

العناصر الحضارية وانعكاساتها في شعر البحرين

فرضت البيئة الحضرية التي عاشتها البحرين نفسها على الشعر وقد استوعبت عناصر الحضارة - التي تعامل معها البحرينيون - العديد من جوانب حياتهم، وتغلغلت في نفوسهم في تفاعل واضح، متسربة إلى فنهم الشعري، مادّةً إياهم بمعين لا ينضب من المعاني والصور . وقد تجلت في بعدين :

مادي ونقصد به ما اتخذ صوراً محسوسة، فقد شكل شعرهم فضاءً رحباً تجسدت فيه كل إيقاعات بيئتهم وحياتهم بتنويعاتها المادية المختلفة .

أما البعد الآخر فهو البعد المعنوي ونقصد به ما انعكس في شعرهم من رقي عقلي ووجداني .

عناصر الحضارة المادية

تلوح في شعر البحرين ضروب شتى من مظاهر الحياة المادية . ويمكن تصنيفها إلى صنفين : عناصر تختص بالبيئة الطبيعية التي تعانق في أحضانها البر والبحر وتآلفت ظواهرهما . وعناصر تختص بحياة الإنسان ومستلزماته وما كان يشيع في حياته من إيقاعات حضارية كالمواد التي يقتنيها، وتلك التي عمد بواسطتها إلى زخرفة حياته .

عناصر البيئة الطبيعية ذات الطابع الحضري

أ - الحياة النباتية

تشكل الزراعة عنصراً أصيلاً في نشاط البحرين . صاغ حياة أبنائها . ومثل ركيزة هامة من ركائز الاستقرار والتحضر، وتتمتع البحرين بغطاء نباتي ظليل، فاض الشعراء في وصفه وما يتضمنه من زروع ونباتات، وما ينجرّ عنه

من ظلال وأفياء، وتكثر في شعرهم صورة الخمائل الملتفة، وما يتدلى منها من فروع وأوراق، مثلت ملاذاً أغرى الغزلان بالالتجاء إليه للاستمتاع بأفيائه ورعي أغصانه فهاهو طرفة بن العبد يشبه صاحبته بتلك الغزالة التي رعت في ظلال تلك الجنة فاطمأنت واكتنزت : (طويل)

خَذُولٍ تراعي رَبْرَباً بخميلة

تناولُ أطرافَ البرير وترتدي[٣٤]

وتتكرر نفس الصورة عند المثقّب العبدي فيشبه نساء القبيلة الراحلات بالغزلان التي رعت في تلك الرياض : (وافر)[٣٥]

كغزلانٍ خذلْن بذات ضالٍ

تنوشُ الدانياتِ من الغصون

وتشف لفظة "خذلن" بما تعنيه من تخلف عن القطيع بإغراء تلك الروضة وشدة جذبها . وينم كثرة تداول هذا المعنى عند الشعراء على شيوع الرياض في المنطقة . ويعرض الشعراء صورة النبات وقد انتشر وتكاثف فسد الخصاص؛ يقول المرقّش الأكبر في وصف أطلال الحبيبة وما نبت فيها من زروع بعد الرحيل : (منسرح)

أضحت خلاءً نبتها ثئِدٌ

نَوَّرَ فيها زهْوُه فأعتم[٣٦]

وتوحي لفظة "**الزهو**" بتعدد الألوان بين أحمر وأبيض وأصفر، وتفيض لفظة "**فأعتم**" بمعنى الكثرة والكثافة .

وتلوح في شعر البحرين ضروب شتى من النباتات ومعظمها ينتمي للبيئة الصحراوية ومن النباتات التي كان لها ذكر في شعرهم "الحربث" و"الينم" وهما بقلتان تنبتان في السهول، فيقول المرقش الأكبر في وصف الخصب الذي نعم به الثور الوحشي : (سريع)[٣٧]

بات بغَيْبٍ مُعشِبٍ نبتُهُ

مُختلطٌ حُرْبُثُه بالينَمْ

ويوحي الوصف بكثرة النبت وشدة الخضرة . ويزخر شعر طرفة بصنوف النبات الشائع في تلك البيئة فيذكر الأقحوان، وأفنان الزهر، والحرمل' والأرطي' والفقع[٣٨] . كما ذكرالعشر والخروع وهما نبتتان صحراويتان شبَّه بهما امتلاء أطراف صاحبته : (طويل)

كأن البُرين والدماليج عُلِّقتْ

على عُشَرٍ أو خِرْوَعٍ لم يُخَضَّدِ[٣٩]

أما الأعشى فعلاوة على ذكر النباتات الصحراوية كالأقحوان والبان،

تبرز عنده ضروب شتى من الرياحين التي تبدو كأثر من آثار اختلاطه ببيئات فارسية في العراق . يصف مجلس لهوه، وما كان يطالعه فيه من ورود فيقول : (متقارب)

وشاهِدُنا الورد والياسَميـــــ
ـــنُ والمسمعاتُ بقُصّابها[٤٠]

كما يعتني بتعديد ما يحيط به في تلك المجالس من زهور ورياحين عناية بارزة فيذكر البنفسج والآس والخيري والسوسن والنرجس، هذا علاوة على ما يذكره من أسماء الزهور الفارسية[٤١] .

على أن أكثر منتوج زراعي برز في شعر البحرين هو النخلة . ولا غرو فقد شكلت محوراً هاماً في إيقاع الحياة اليومية، وكانت أبرز عنصر في المنظومة الزراعية للمنطقة بأسرها . ولقد تعززت مكانة النخلة في نفوس أبناء البحرين، وزودتهم بالعديد من احتياجاتهم، وتجلت أهميتها من خلال الطروحات التي تناولتها . فقد اعتنى الشعراء بإظهار العديد من سماتها وتحدثوا عن كثرتها وسعة انتشارها . يقول الأعشى مشيراً إلى ثراء الخط بهذا المنتوج فيقول في معرض العتاب : (طويل)

فإن تمنعوا منا المشقَّرَ والصَّفا
فإنا وجدنا الخطَّ جمّاً نخيلُها[٤٢]

وأشار امرؤ القيس إلى غنى الخط بالتمر، ووصف الأحمال الثقيلة التي يخرج بها الممتار من إحدى قرى البحرين وهي جواثي . وقد أكد ذلك ياقوت الحموي أيضاً[٤٣] .

وتطالعنا العديد من أسماء النخيل التي اكتسبت صيتاً وشهرة كنخيل محلّم . يقول بشر ابن أبي خازم متخذاً منها أداة فنية فشبّه بها هوادج النساء : (وافر)

كأن حُمُولَهُـم لمّـا استقلّـوا
نخيلُ محلّم فيها انحناءُ[٤٤]

وتتضمن الصورة الواصفة شدة الطول الذي أدى إلى التقوس . وأشار في موضع آخر إلى صفة أخرى لهذا النخل وهي النضارة والنضوج وما يوحى به من بهاء : (وافر)

كأن حُمُولَهُمْ لمّـا استقلّـوا
نخيلُ محلّم فيها ينُوعُ[٤٥]

ولشهرة هذه النخيل أشار إليها شعراء آخرون . يقول لبيد في وصفها : (كامل)

فكأن ظُعْنَ الحيِّ لما أشرفتْ

في الآلِ وارتفعتْ بهنْ حُزومُ

نخْلٌ كوارِعُ في خليج محَلِّم

حَمَلتْ فمنهـا مُوْقَرٌ مكموم(٤٦)

والصـورة توحـي بالضخامـة والامتلاء . كما تشير إلـى السبب وهو كـثرة الميـاه . ونافسـت قريـة "مَلْـهَم" باليمامة قرية مُحَلِّم فأشار الشعراء إلى كثرة نخلها وجودة عطائـهـا(٤٧) .اشتهر أيضاً نخيل ابن يامن، ولعله أحد أثرياء البحرين، ونوه امرؤ القيس بنتاجه وذكر العديـد مـن صفاتـه وبشكل مسـهب، فيقول في وصف ظعائن الحبيبة مشيراً إلى ضخامتها وترفـهـا وجمالـها وتعـدّد ألوانها : (طويل)

فشـبَّهْتُهُم في الآلِ لما تكمَّشـوا

حـدائـقَ دَوْمٍ أو سـفيناً مُقَيَّـرا

أو المُكْرَعَاتِ من نخيل ابن يامِنٍ

دُوَيْنَ الصفا اللائي يلينَ المِشَقَّرا

سـوامِقَ جبَّـار أثِيثٍ فروعُـهُ

وعَـالَيْن قِنْواناً من البُسْر أحمرَا

حمتْـهُ بنـو الرَّبْداءِ مَنْ آلِ يامِـنٍ

بأسـيافهمْ حتى أقِرَّ وأوقِـرا(٤٨)

ويوحي الشعر بحرص أصحابه على حراسته بنفاسته والضنّ به، وتبيـن بقيـة الأبيـات الرعايـة التـي حظـي بـهـا ذلـك النخل وتكليف عمال مـن الفرس بعمليـة صرمـه، كمـا اعتنـى الشـاعر بتجسـيد الناحيـة الجماليـة فأشاد بحسنه وتـألق ألوانه وزهوه الذي يأخذ بالألباب .

أمدّت النخلة الشـعراء بـالكثير مـن المضـامين، فقـد اسـتقطبتهم فنظـروا فـي صفاتها وما أحاط بها مـن تقـاليد، فذكـر المتلمـس العـادة التـي جـرت فـي غـرس النخيل صفّاً واحداً، واستلهم منها صـورة شبَّه بها قومه في مجال الفخر بتكاتفـهـم وتراصّ صفوفهم فقال : (مجزوء الكامل)

وإذا فزعْـتَ رأيْتَنـا

حلقـاً وعادِيَـةً ورَزْدَقْ

و"رزدق" لفظ معرب تعني السطر من النخيـل(٤٩) . وقـد تطـول النخلـة وتمتـد فتسمّى "السحوق" . ويصور عمرو بـن قميئة ظعون النساء لضخامتـها وارتفاعـها بهذا النوع من النخل فيقول : (متقارب)

تخالُ حمولهُمُ في السُّرا

بِ لما تَواهَقْنَ سُحْقـاً طِوالا(٥٠)

وقد أكد الشاعر بلفظة "طوالا" معنى الطول وزيادته، وذكروا من صفات بعض

النخيل كثرة العطاء وسميت "الخصاب" وقد استعار الأعشى هذه الصفة من عالم النخل وخلعها على ممدوحه ليدل على سخائه فقال : (متقارب)

هـو الواهبُ المائـةَ المصطفا

ةَ كالنخلِ طافَ بها المجترِمْ

وكلَّ كُمَيْتٍ كجـذعِ الخِصـا

بِ يَرْدي على سَلِطاتٍ لُثُمْ[٥١]

نظر الشعراء إلى أجزاء النخلة فاقتبسوا منها صوراً كثيرة ضارعوا بـها موصوفاتهم . ونكتفي هنا بذكـر بعضـها فقد اتخذ المرقش الأصغر من "العسيب" وهو طـرف السعفة صورة ماثـل بـها فرسه : (طويل)

غدوْنا بصافٍ كالعسيبِ مُجلّلٍ

طويناهُ حيناً فهو شِزْبٌ ملوّحُ[٥٢]

والصورة توحـي بـالضمور وسـرعة الحركة . وذكروا العـذق وهـو العرجـون بما فيه من شماريخ فشبه بـه الأعشـى ذنب فرسه : (طويل)

كأن على إنسائِها عِذْقُ خَصْبَةٍ

تدلّى من الكافورِ غيرُ مكمم[٥٣]

والصورة توحي بكثرة الشَّعر الـذي غطّى الذيل . كما اتخذ طرفة من الجذع صورة ضارع بـها أعناق الخيـول حيـن تشرئب : (رمل)

وأنـافـتْ بـهَـوادٍ تُلُـعٍ

كجُذُوعٍ شُذِّبَتْ عنها القِشـرُ[٥٤]

ويجسـد التشـبيه طـول الأعنـاق وملاستها .

بـرز إلـى جـانـب النخلـة شـجرة شبيهة بها انتشـرت في البحريـن وهـي شجرة الـدوم فذكرهـا الشعراء واتخذوهـا صـورة واصفـة شـبَّهوا بـهـا مراكـب النسـاء[٥٥] ، إلا أنـهـا لـم تكـن فـي ذيـوع النخلة .

وعلى أية حـال فقد غـدَت النخلـة خيـال الشـعراء، فاتخذوهـا تعبيراً فنيـاً وأداة واصفة جسَّدوا من خلالـها معانيـهم وشحنوها بالدلالات . فكان لـها دور فـي إثراء الشعر شكلاً ومضموناً .

ب - الحياة البحرية

شكلت ظاهرة التقاء البر بالبحر في بيئة البحرين ثنائية صاغت حياة أبنائها .وإذا كـان الـبر بصحاريـه وأوديتـه هـو الفضاء الذي شكل الحيـاة البدويـة ، فـإن البحر بأمواجه وخيراته هو الفضـاء الـذي

صاغ الحياة الحضرية ، فكان أداة اتصال بأمم راقية ، ووسيلة استحضار لمقتنيات حضارية ، ومصدراً للانتعاش الاقتصادي .

وإذا كانت النخلة قد غدت عنصراً أخصب خيال الشعراء فإنهم اتكأوا بالمثل على البحر واستثمروا عناصره ليخلعوها على موصوفاتهم متأثرين بما شاهدوه في بيئتهم البحرية . وقد أدت السفن الدور الذي أدته الناقة في الصحراء . ويكشف الشعر الجاهلي عن وجود علاقة وثيقة بين جزر البحرين (أوال) والسفن . كما يكشف عن الشهرة التي تمتعت بها هذه الجزر في تلك الفترة .

يقول تميم بن أبي بن مقبل في تشبيه الظعائن بالسفن الراسية على ضفاف هذه الجزر : (الكامل)

مالَ الحُداةُ بها لِحائِشِ قريةٍ

فكأنها سُفُنٌ بسيف أوالِ[٥٦]

وربما دلت الصورة على ضخامة تلك السفن أو طولها . وينم بيت لعمرو بن قميئة عن صفة أخرى للسفن الراسية بسيف أوال وهي السرعة يقول : (خفيف)

هلْ ترى عِيْرَها تُجيزُ سِراعاً

كالعَدَوْليِّ رائحاً من أوالِ[٥٧]

وتبرز صورة السفن ومشاهد البحر عند شعراء البحرين حتى لا يكاد يخلو منها شعر شاعر . وهي قد ترد عنهم في صورتها العامة دون تحديد كقول المثقِّب : (وافر)

وهن كذاك حين قطعن فَلْجاً

كأنَّ حُدُوجَهُنَّ على سفين

يشبهْن السفينَ وهن بُخْتٌ

عُراضاتُ الأباهِرِ والشُؤُونِ[٥٨]

ويدل البيت الثاني على أن غرض الشاعر من تشبيه الجمال بالسفن بيان ضخامتها . ويكشف شعر البحرين عن أنواع السفن التي استعملوها . ويحتل طرفة بن العبد مكانة هامة بين شعراء البحرين في هذا الصدد . يقول في ظعون صاحبته غداة الفراق : (طويل)

كأنَّ حُدوجَ المالكيةِ غُدْوَةً

خلايا سفينٍ بالنَّواصِفِ من دَدِ

عَدَوْلِيَّةٌ أمْ من سفينِ ابن يامِنٍ

يجُورُ بها الملاّحُ طوْراً ويهتدي[٥٩]

فهو يحدد ثلاثة ضروب من السفن : الخلايا وهي السفن العظيمة أو التي

يكون معها زورق[٦٠] . **وسفن ابن يامن** ورجحنا أنه كان من أثرياء البحرين أو ملاحيها وأنه ربما كان يمتلك أسطولاً من السفن وألمحنا إلى ارتباط اسمه بالنخيل . أما النوع الثالث فهو **العدولية** . ويذكر ابن منظور أن "عَدَوْلى" قرية بالبحرين وأن من دلالات اللفظة القِدم والضخامة . وتُظهر الأبيات طرفة ابناً أصيلاً لهذه المنطقة يعرف الكثير من أبعاد الحياة فيها . ويفسر بروز السفن "العدولية" في شعر المنطقة بشيوعها وكثرة استعمالها وربما ارتباط صناعتها بهذه المنطقة . ويشير "المثقب" إلى ضرب آخر من السفن العظيمة والتي يسميها "القرواء" ويضعها في نفس الإطار السابق وهو التمثيل لضخامة الناقة : (وافر)

كأن الكُورَ والأنْساعَ منها
على قَرْواءَ ماهِرةٍ دهينِ[٦١]

فالقرواء هي السفينة الطويلة، وينم وصفها بـ"ماهرة" بإحكام صنعتها . فالماهر كما يقول ابن منظور الحاذق بكل عمل[٦٢] . ويشير البيت إلى سمة أخرى في مجال السفن وهو دهنها لحمايتها من التآكل . وواضح هذا الارتباط الشديد في وجدان الشعراء بين الناقة "سفينة الصحراء" وتلك المراكب التي صنعوها لامتطاء لجُة البحار بحيث لا نجد السفينة إلا في إطار تلك الملابسة بين كل منهما بالأخرى، وقد أدى ذلك إلى تكرار المعاني والصور .

وقد تولد عن شدة التصاق شعراء البحرين بالسفينة ومعرفتهم بأجزائها أن ظهر الكثير من أدواتها ومتعلقاتها في شعرهم، هذا مع اقتران واضح بين أدواتها ومتعلقات الناقة بحيث غدتا وجهين لصورة واحدة . وقد سمي المرقش الأكبر السوط مجدافاً مستعيراً أداة تسيير السفينة للناقة : (سريع)

تعْدُو إذا حُرِّكَ مِجْدافُها
عَدْوَ رباعٍ مُفرَدٍ كالزُّلَم[٦٣]

كما عمد الشعراء إلى ذكر بعض أجزاء السفينة واستخدموها صوراً واصفةً خلعوها على الموصوف ذاته وهو الإبل . يقول "طرفة" في تصوير قوة السفينة وقدرتها على امتطاء أمواج البحار خالعاً الصورة على ركب الأحبة المسافرين : (طويل)

يشُقُّ حَبابَ الماءِ حيزُومُها بها
كما قسم التُّرْبَ المُفايلُ باليدِ[٦٤]

وينسج "المثقب" على نفس المنوال فيقول واصفاً قوة السفينة وحدَّة صدرها (جُؤجُؤها) وقدرته على اختراق لجج البحار الممتدة في صورة استعارها للناقة : (وافر)

يشقُّ الماءَ جُؤجُؤُها وتعلو

غواربَ كلِّ ذي حَدَبٍ بَطينِ[٦٥]

ذكروا الملاح ووظيفته في الحرص على إقامة توازن السفينة وتعديل ميلها ولم يتجاوزوا إطار الإبل، فيقول المثقب في تشبيه نفسه وهو يقود ناقته بالصراري . أي الملاح الحريص على أداء تلك المهمة : (طويل)

كأنّي وأقْتادي على حَمْشَةِ الشّوَى

يجُورُ صَراريٌّ بها ويُقيمُها[٦٦]

وقد خرج "يزيد بن خذّاق" من إطار الناقة فحمل الملاحين معنى الخضوع والانقياد والاستسلام لدفع الضرائب انطلاقاً من مفاهيمه البدوية يقول : (طويل)

ألا ابنَ المعلّى خِلْتَنا وحَسِبْتَنا

صَراريَّ نعطي الماكسينَ مُكُوسَا[٦٧]

واستطاع الأعشى التحرر من إطار الصحراء وضمّن البحر معنى خلقياً فشبه به عطاء الممدوح ليدل على كثرته واستمراريته، يقول مخاطباً أحد ممدوحيه : (متقارب)

أهَوْذَ وأنتَ امرؤٌ ماجدُ

وبحرُكَ في الناس يعلو البحورا[٦٨]

تنعكس في شعر الأعشى أصداء ظاهرة من الظواهر البحرية الهامة ذات البعد الحضاري اشتهر بها الخليج منذ القدم وهي ظاهرة الغوص على اللؤلؤ . فقد تناول في إحدى قصائده أبعاد هذه العملية . فصور جمال صاحبته باللؤلؤة وإشراقها ووصف استعدادات الغوص وما يتعرض له الغواص من معاناة وأخطار، وما يساور نفسه من آلام وآمال كما ضمَّنها جوانب أسطورية تتمثل في الاعتقاد بحراسة الجن للؤلؤ،، وصاغ الموضوع في سياق قصصي طريف فيه الكثير من الظلال الواقعية، وجعل مطلعها قوله : (بسيط)

كأنها دُرَّةٌ زهراءُ أخرجها

غواص دارين يخشى دونها الغرقا[٦٩]

وقد برزت أصداء هذه العملية لدى شعراء آخرين[٧٠] .

أما اللؤلؤ فقد تجلى كعنصر حضاري في صورتين : فذكر كحلية تتزين بها المرأة[٧١] . كما ظهر كمادة واصفة في

سياقات عديدة . وعرض في حالة تحدّره من خيطه وانفراط سلكه حيث شبهت به الدموع[٧٢] . كما ماثلوا به القطيع الفارّ في حالة تشتته[٧٣] . أما بياضه ونقاء لونه فضارعوا به لون المرأة[٧٤] .

عناصر الحضارة المادية الخاصة بالإنسان ومتعلقاته

تتمثل في شعر البحرين صورة الإنسان المستقر الذي أخذ من أساليب الحضارة بنصيب وافر، فشاعت في حياته صنوف من معطياتها، وألوان من مظاهرها، وسمت حياته بنسق تزاوجت في إطاره عناصر الحضارة والبداوة . وتتعدد معطيات الرفاهية التي زخرت بها حياة البحرين وهي وإن لم تكن خاصة بها إلا أنها بارزة في شعرها ملتصقة بحياة أبنائها . ويمكن تلمسها من خلال العديد من المشاهد والصور ذات العلاقة بالمأكل والمشرب والملبس والمسكن . وقد أتاح لهم وفرة المال حياة راغدة وعيشاً ناعماً واقتناء أدوات الحضارة والاستمتاع بملذات الحياة . ويصف "عمرو بن قميئة" ما ينعم به من صنوف المتع فيقول : (وافر)

وندْمانٍ كريمِ الجَدِّ سَمْحٍ
صَبَحتُ بسُحْرةٍ كأساً سبيًا
فقال لنا ألا هلْ من شِواءٍ
بتَعْريضٍ ولم يُكْميهِ عَيًا

فأرسَلْتُ الغُلامَ ولمْ ألُبثْ
إلى خيرِ البَوائِكِ تَوْهَريًا
فظل بنعمةٍ يُسْعَى عليهِ
وراحَ بها كريماً أجفَليًا[٧٥]

ويتمثل ترف الشاعر في مجلس الشراب والرفاق الكرام والخمرة المجلوبة من بلد بعيد والشواء الطازج من لحم ناقة سمينة حسنة . أما "طرفة" فقد حدد ثلاث متع شدّته وجعلت لحياته معنى وهي الخمرة والمرأة والفروسية كما يشير إلى مجالس الغناء واللهو[٧٦] .

ويأخذ الاتجاه اللاهي بعداً بارزاً في شعر الأعشى، فقد انغمس في صنوف اللذات من خمر معتق ومجالس غناء ولهو بالمرأة وعب منها حتى الثمالة[٧٧] .

أخذت المرأة نصيبها من الترف والنعيم خاصة ما ناسبها . ووصف المرقش الأكبر حياة صاحبته وما تتقلب فيه من وجوه النعمة والرفاهية فقال : (وافر)

حواليْــها مهاً جُمُّ التَّراقِي
وأرامٌ وغِــزْلانٌ رُقُــودُ
نواعِـمُ لا تُعالجُ بُؤْسَ عيْشٍ
أوانِسُ لا تُـرَاحُ ولا تَـرُودُ
يرُحْنَ معاً بِطاءِ المشْيِ بُـدّاً
عليهنْ المجاسِدُ والبُـرودُ(٧٨)

ويتمثل الترف في اكتناز الأجسام وامتلائها وفي ملاحة الوجوه التي كنُّى عنها بالحيوانات ذات البعد الجمالي، كما تجسد في رقة العيش والبعد عمّا يشقّ عليها ويرهقـها وفيما تلبسه من لباس .

أدوات الزينة :

يشيع في شعر المنطقة ذكر العديد مـن المعطيـات الحضاريـة شيوعـاً واضحـاً، وتـبرز كوسيلة مـن وسائل الرفاهية، وهي تتنـوع وتأخـذ أشكالاً متعددة فمنها :

اللباس :

تجاوز وظيفته كمتطلـب يستر الجسم ويحميه من الحر والبرد وأخذ بعداً جمالياً تلوح فيه معاني الحضارة والترف، ويمكن رصد ضروب شتى من الملابس تتنـوع مـن حيث الألـوان والأشكال والمادة المصنوعـة منها . كما تتعدد المصـادر التي تنتجها . وهي تبرز كموصوف مقصود لذاته .

تبرز كذلك كمصدر واصف يصور من خلاله الشعراء العديد من موصوفاتـهم . وتتجلى مظاهر الرفاهية والنعمـة فـي الملبس في صور شتى، فقد تظهر في عدد الثيـاب الملبوسة، حيث يبدو أن عليـة القوم رجالاً ونساءً اعتادوا لبس ثوبين أو أكثر . يتحسر "عمرو بن قميئة" على شبابه ويتذكر تباهيـه وزهوه بثيابه آنذاك فيقول : (منسرح)

وأسحب الريْـطَ والبُرُودَ إلى
أدنى تِجاري وأنفُضُ اللِّمَمَا(٧٩)

ويعرِّف صاحب اللسان الريطة بأنها ملاءة غير ذات لفقين كلها نسج، وقيل هي كل ثوب رقيق . والـبرود هـي ثياب مخططة، وكثيراً ما كان يربط الشعراء بين هذين الضربين من الملابس(٨٠) .

وقرنوا أيضاً بيـن الـبرود والمجاسد وهي ثياب مصبوغـة بـالزعفران أو الـذي

يلي الجسد . ويصف "طرفة" لباس مغنية حضر مجلس غنائها فيقول : (طويل)

نداماي بيْضٌ كالنجوم وقيْنَةٌ

تروحُ علينا بين بُرْدٍ ومَجْسَدِ[٨١]

ويبدو مما قاله الشعراء أن البرود لباس أساسي يلبس فوقه ثوب آخر . وقد اعتنى الأعشى بذكر ما تلبسه المرأة المترفة ليدلّ على مكانتها : (خفيف)

خاشعاتٍ يُظهرن أكسِيَةَ الخـ

ـزِّ ويُبْطِنَّ دونَها بشُفوفِ

وحَثَثْنَ الجمالَ يسْهَكْنَ بالبَا

غِز والأرجُوان خَمْلَ القطيفِ[٨٢]

فملابسهن الخارجية من الحرير وتحتها ثياب من الشفوف وهو ضرب من القماش رقيق ويحيط بهن ستور من الخز، والثياب الحمراء، وأخرى ذات وبر وهي من القطيفة . وقد يتكون اللباس من ثوب واحد وتكون له خصائص معينة كقول الأعشى يصف ما ترتديه مغنية : (بسيط)

ومُسْتجيبٍ تَخالُ الصَّنْجَ يُسْمِعُهُ

إذا تُرَجِّعُ فيهِ القَيْنَةُ الفُضُلُ[٨٣]

فلبس الفضل أو الفضلة يوحي بالابتذال، وربما دل على مخالفة المرأة بين طرفي الثوب على عاتقها حين تتوشح به[٨٤] .

يظهر ترف الملابس أيضاً من خلال المادة المصنوع منها . ويمكن رصد العديد من الأصناف الفاخرة التي كانت شائعة في أسواق البحرين ومنها ما نسج من الديباج وقد أشار إليها "المثقب العبدي" في تغزّله بنساء القبيلة : (وافر)

أرَيْنَ مَحاسِناً وكَنَنَّ أخرى

من الديباج والبَشَرِ المصونِ[٨٥]

والديباج ثياب متخذة من الابريسم وهو أحسن الحرير وتكثر إشارات "الأعشى" إلى ملابس الخزّ فيقول في وصف ما تتمتع به النساء من ترف ونعيم : (بسيط)

والساحباتُ ذيول الخزِّ آونَةً

والرافِلاتُ على أعْجازها العِجَلُ[٨٦]

ويمثل طول الثياب وفضولها مظهراً من مظاهر النعمة . ويشير "يزيد بن خذّاق" إلى الملابس المسماة بالسندس وهي الخضراء المنسوجة من الديباج فيتخيل أن ناقته قد ارتدتها : (طويل)

وداويتُها حتَّى شَتَتْ حبشيةً
كأن عليها سُندساً وسَدُوسَا[٨٧]

وقد جسدت الصورة إعجاب الشاعر بها وما تحظى به من عناية وتدليل . ويشير "الأعشى" إلى "الرازقي" الذي يتجلى جماله في أنه ثوب أبيض من الكتان مخطط في موضع العضض، واتخذه صورة واصفة شبّه بها الصحراء حين غطاها السراب: (طويل)

وبيْداءَ تِيْهٍ يلعبُ الآلُ فوقهَا
إذا ما جرَى كالرَّازقيِّ المعَضَّدِ[٨٨]

كما برزت نفاسة الملابس من خلال المصدر الصانع لها ويشير المؤرخون إلى شهرة اليمن البعيدة في هذا المجال، وجودة صناعتها[٨٩] . ومما نسب لليمن من ملابس "الريدة" و"السحول" وهما قريتان لهما صيت في صناعة الثياب، يشبه "طرفة" أطلال الحبيبة وما تبقى من آثارها بالرسوم التي تزخرف تلك الثياب : (طويل)

وبالسفح آياتٌ كأن رسومها
يمانٍ وشَتْهُ رَيْدةٌ وسَحُولُ[٩٠]

ويشير المرقش الأكبر إلى الملابس الميسنانية وهي المنسوبة إلى "ميسان" كورة بالعراق، ويبدو أنها طويلة فاخرة فيقول واصفاً تبختر صاحبته : (طويل)

وأقبلتْ كالمُجتاز أدّى رسالةً
وقامتْ تجرُّ الميسانيَّ والبُرْدا[٩١]

وذكر الأعشى برود السدير وهي ثياب مخططة تنسب للسدير أرض باليمن واختارها لتكون صورة واصفة للصحراء الجرداء التي تتموج فيها الرمال . يقول : (متقارب)

وبيْداءَ قفْر كبُرْدِ السَديرْ
مشاربُها داثِراتٌ أجُنْ[٩٢]

وأشار "ابن قميئة" إلى الثياب "الرهاويات" المنسوبة إلى الرها، بين الموصل والشام .

ويذكر صاحب اللسان أن الرهو ثوب أو خمار يتميز بالرقة[٩٣] .

ليس من شأننا استقصاء صنوف الألبسة عند شعراء البحرين فهذا أمر يطول شرحه، وحسبنا أن نشير إلى أسمائها التي ذكروها فهناك "النصع"، وهو ثوب شديد البياض[٩٤] ، و"الخميصة" وهي كساء أسود مربع مخطط بخطين[٩٥] ، والبرجد وهو ثوب مخطط[٩٦] .

والمكانة . يصف "المرقش الأكبر" الحدوج وزينتها فيقول : (طويل)

تنزلن عن دَوْم تَهِفُّ مُتُونُـهُ

مُزَيَّنَةٌ أكنافُها بالزخـارفِ[١٠٠]

وتجسد الصورة ضخامة الهودج وشدة بريقه وما أحيط به من ألوان ورسوم . ويحدد "المثقب" ما يحف الهوادج من ستور وأقمشة فيقول : (رمل)

قد عَلَتْ من فوقِهـا أنماطُهـا

وعلى الأحْداج رقْمٌ كالشَّـقِر[١٠١]

فهي مغطاة بالأنماط وهي الثياب الملونة الخاصة بالهوادج ومحاطة بالرقوم وهي خزٌّ موشّى أو ضرب مخطط مزخرف أحمر يشبه لونه حمرة الدم، كما ذكروا في هذا الإطار العبقرية والنجود[١٠٢] .

وكشفوا في أشعارهم عن أنواع من المراكب فأشاروا إلى الرجائز ويقال أنه مركب دون الهودج أو ما زُين به الهودج[١٠٣]، كما ذكروا "المفائم" وهي المراكب الواقية الواسعة[١٠٤] . وفرشوا داخل الهوادج بالطنافس والوسائل[١٠٥] بغرض الراحة وإظهاراً للبذخ والنعمة .

أنواع الطيب :

يعد الطيب مؤشراً حضارياً شاع استعماله في حياة العرب رجالاً ونساءً، وأشار إليه شعراء البحرين كعنصر دال على الترف والنعيم، وذكروه كمادة تطيّب بها الملابس والبيوت . يقول "طرفة" في الفخر بقومه : (رمل)

ثم راحوا عبقُ المِسْكِ بهمْ
يُلحفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ[١٠٦]

ويتمثل بذخهم في تلك الرائحة الطيبة التي تفوح منهم وفي الملابس الطويلة التي يسحبون ذيولها، واستعمل الطيب لتطييب المساكن . ومما أثار أسى "الأعشى" مهاجمة البيوت التي تعبق بالمسك وفوح أرجها عند الهجوم : (مجزوء الكامل)

بادَ العتادُ وفاحَ ريـ
ـحُ المِسْكِ إذ هُجِمَتْ قِبابُه[١٠٧]

ويدل انتشار الرائحة على كثرة ما يقتني أصحاب ذلك المنزل من طيوب .

وارتبطت به المرأة فكان مما توصف به . فيقول "الأعشى" : (بسيط)

إذا تقومُ يضوعُ المسكُ أصْوِرَةً
والزنبقُ الوردُ من أردانها شَمِلُ

ويبالغ الشاعر في
فيجعل عبيرها يفوق فـ
الروضة المعشبة[١٠٨] ويشير
بعض الممارسات في اسـ
فيشير إلى تطييب المرأ
ويذكر عادة طلاء الجسـ
والزعفران[١٠٩] كما عرض الشـ
البخور وأوقات استعماله[١١٠].

وقد وردت العطور في الـ
واصفة استعارها الشعراء لبعـ
للدلالة على الرائحة الزكيـ
"طرفة" في تشبيه عبق ثغـ
برائحة المسك : (رمل)

وإذا تضحكُ تبدي حَبَـ
كرضابِ المِسْكِ بالماءِ الـ

واستعار "الأعشى" عبـ
وجعله صورة واصفة للخمرة

لها أرجٌ في البيت عالٍ كأ
ألمَّ به من تجر دارِ

ويشير البيت إلى شـ
بالعطور وإلى جودته ونفاذ
يلاحظ أن الشعراء يذكرون
إلى العطور والبخور .

المنشآت العمرانية :

تمثل المنشآت العمرانية مظهراً من مظاهر الرقي واكب ما وجد في المنطقة من مؤشرات التحضر وهو عنصر أوجدته حياة الاستقرار . وتبرز العديد من المنشآت وهي تبدو عامة دون تحديد حيناً، وتحدد بذكر أسمائها وأنواعها حيناً آخر .

ومن أبنية البحرين التي نالت شهرة وكان لها صداها في الشعر حصن المشقَّر، ويقال إنه قصر بناه أحد ملوك كندة(١١٣) . وأشار "طرفة" إلى قوته وصلابته في مجال إظهار عجز الإنسان عن رد المنايا : (كامل)

ولئن بنيتُ إلى المشقَّر في
هَضْبٍ تُقَصِّر دونهُ العُصْمُ
لتنقبنَّ عنّي المنيةُ إنَّ
الله ليسَ لحكمه حكمُ(١١٤)

فقوة هذا البناء لا تحول دون المنية . وذكر "طرفة" هذا الحصن عدة مرات، وقرنه حيناً بالصفا، وهو حصن آخر من حصون البحرين وهما يقعان في هجر، وكذلك ذُكرا مقرونين عند امرئ القيس(١١٥) .

أشار المتلمس إلى حصن "الجون" ويقال إنه من بناء طسم وجديس ويقع في اليمامة بالقرب من البحرين، وضرب به المثل في القوة والمنعة ورد الأعداء : (طويل)

ألمْ ترَ أنَّ الجَوْنَ أصبح راسياً
تُطيفُ به الأيامُ ما يتأيَّسُ
عصى تُبَّعاً أيامَ أهلكتِ القُرَى
يُطانُ على صُمِّ الصَّفيح ويُكلسُ

والبيت يتضمن إشارات تاريخية كما يحدد المواد التي بني بها، ثم استعملت لصيانته(١١٦) . وذكر "أبو داود الإيادي" قصور سماهيج، وهي مما يقع في جزيرة أوال فشبه الإبل بها في ضخامتها في قوله : (خفيف)

وإذا أعرضتْ تقولُ قُصُورٌ
من سَمَاهيجَ فوقها آطامُ(١١٧)

وينم تشبيهها بالقصور التي تعلوها الآطام وهي من المشاهد غير المألوفة عن

رغبة الشاعر في إبراز ضخامتها وشدة ارتفاعها .

يرد ذكر الأبنية بدلالات لغوية عديدة ودون تخصيص ومنها "الفدن" وهو القصر المشيد . واستعمله "المثقب" صفة شبه بها ناقته فقال : (سريع)

يُنبي تَجاليدي وأقتادَها

ناوٍ كرأس الفدَن المُؤيَدِ[١١٨]

وذكر "طرفة" قنطرة الرومي وهي بناء محكم، ونسبه للروم لمهارتهم في البناء وشدة إحكامهم فيه يقول في وصف ناقته : (طويل)

كقنطرةِ الرُّوميِّ أقسمَ ربُّها

لتكتنفنْ حتّى تُشَادَ بقِرمَدِ[١١٩]

كما استعار بابي القصر المصقول الجدران ليشبه به فخذيها[١٢٠] . وقد أشار "الأعشى" إلى الكثير من الأبنية والقصور، وذكر المواد المستخدمة في إنشائها[١٢١] .

هكذا تجاوبت أصداء الحضارة في الشعر ة تآلفت مع الواقع فأبرزته ورددت ما يعج به من مظاهر التحضر وأدواته . ولا غرو فالشعر هو المرآة التي تعكس الحياة بمختلف أبعادها وزواياها .

الرقي العقلي [الحضارة المعنوية]

أغنت الظروف التي عاشتها المنطقة تجارب الشعراء وصقلت عقولهم ووجدانهم . فالمعاناة التي تعرضوا لها بسبب استبداد المناذرة وسياسة القمع أكسبتهم عمقاً في النظر وبعداً في الرؤى كما أن احتكاكهم بثقافات مختلفة رفدت تجاربهم وأثرتها، وكان لعامل الاستقرار أثره في تأصيل دور الخطاب الشعري ووضع دعائم للتوجه العقلي الذي اتسم بنزعة إنسانية لامس فيه الشعراء العديد من قضايا الحياة ذات النزعة الفلسفية في صورتها الساذجة، ويمكن تلمس ذلك في العديد من الطروحات الفكرية نذكر منها :

الميل إلى تفصيل المعاني واستقصائها وهو يأتي على صورتين :

أ – تتبع جزئيات الموضوع بشكل متجاور وفي إطاره تتدافع المعاني نتيجة التداعي النفسي أو التأمل دون الاعتماد على التسلسل المنطقي المحكم، كما هو

الشأن في وصف الناقة في معلّقة "طرفة" . فالشاعر يوغل في وصف أعضاء جسم الناقة بشكل شمولي ولهذا لا تختل الأبيات لو قدمنا بعضها على بعض[١٢٢] . وقد أدى التفصيل دور التحليل، وشكّل مرحلة سابقة هيأت الطريق . كما أن موضوع الخمرة من الموضوعات التي تناولها شعراء المنطقة واستقصوا معانيها . ويعدُّ "الأعشى" من الشعراء المبرزين في هذا الميدان فقد أحاط بكل أبعاد هذا الغرض فتحدث عن رحلته في طلبها ووصف لونها ورائحتها وأثرها ومجلسها وأوقات شربها، كما تحدث عن الخمّار والساقي والآنية، ونقل ما دار بينه وبين تجارها من محاورات، ولم ينس ذكر النديم والبلد الذي تنتسب إليه وهو يقرن في هذا الصدد بأبي نواس شاعر الخمرة الشهير في العصر العباسي[١٢٣] .

ب - تفصيل المعاني بشكل متسلسل ونلحظ جذوره في الشعر التاريخي الذي تجاوز مجرد الإشارة العابرة إلى صياغة بعض أحداث التاريخ العربي التي صاغها صياغة فنية يظهر فيها عنصر السرد والحوار ولو بشكل محدود . وتشير الدراسات إلى شعراء المنطقة من أصحاب الحس التاريخي فيذكرون عدي بن زيد الذي تناول قصة الزباء واعتنى بالإخراج الفني و"المسيب بن علس" الذي عرض لقصة سامة واستغل روعة الحوار ودقة السرد الواقعي . كما أشاروا إلى النزعة التاريخية في شعر "الأعشى"[١٢٤] وهي تنتشر بشكل واضح . وبتتبعنا لها نجد عنده لونين من الشعر المتسلسل، لوناً يصطبغ بصبغة تاريخية خالصة صاغ فيها أحداثاً كقصة السموءل، وذكر فيها الحادث في ستة عشر بيتاً ضمن قصيدة مدح واعتمد فيه منحًى فنياً حيث أورده في سياق قصصي طريف، بناه على أساس تسلسل الحدث التاريخي وضمنه العديد من المقومات الفنية وإن كانت بصورة عفوية . وقد شكل عنصرا السرد والحوار فيه ركائز عرض من خلالها الأحداث . ومن المقاطع التي ائتلف فيها السرد والحوار وتعاضدا على تصوير دواخل النفس في الشخصيتين الرئيسيتين، شخصية السموءل وشخصية الحارث قوله : (بسيط)

إذ سَامَهُ خطتيْ خسفٍ فقال له :

مهما تقلْه فاني سامعٌ حارِ

فقال ثُكلٌ وغدرٌ أنت بينهما

فاختَرْ وما فيهما حظٌ لمختار

فشكَّ غيرَ قليلٍ ثم قال له

إذْبحْ هديَّكَ إني مانعٌ جاري

إن له خَلَفاً إن كنتَ قاتلهُ

وإن قتلت كريماً غير عُوَّار[١٢٥]

وقد اتسم العرض بالنبض والحيوية نتيجة التمازج بين الأسلوب الخبري والإنشائي . وبرصدنا لهذا اللون من شعر الأعشى نراه قد نما وتدرج وأفضى إلى لون فني يحمل الكثير من ملامح الشعر القصصي المبني على الواقع الممزوج بالخيال . وتطالعنا قصيدة طريفة قيلت في المديح وتضمنت مغامرة عاطفية جعل الشاعر نفسه وحصانه بطلين فيها وقص خلالها مغامرة عاطفية، هيألها بمقدمة، وحدد زمانها ومكانها، واختار لها وزناً شعرياً قصيراً مطرباً هو مجزوء الكامل يقول :

ولقد طرقتُ الحيَّ بعـ

ـد النوم تنْبَحُني كِلابُهْ

بمشذّبٍ كالجذع صا

لَ على ترائبهِ خِضابُهْ

واعتمد على الوصف الدقيق للمواقف وعلى عنصر المفاجأة في نمو الأحداث فقال :

ولقد أطفْتُ بحاضر

حتّى إذا عَسَلتْ ذئابُهْ

وصَغا قُميْرٌ كان يمـ

ـنعُ بعضَ بغْيَةِ ارْتقابُهْ

أقبلتُ أمشي مِشْيةَ الـ

ـحشْيانِ مُزْوَرّاً جِنابُهْ

وإذا غزالٌ أحْوَرُ الـ

ـعيْنينِ يُعجِبُني لِعابُهْ

حسنٌ مُقلَّدَ حَلْيِهِ

والنحرُ طيِّبَةٌ مَلابُهْ

غَرّاءَ تُبْهجُ زَوْلَهُ

والكفُّ زَيَّنَها خِضابُهْ[١٢٦]

وقد أضفى الوصف الدقيق حيوية وتدفقاً عوض عن غياب الحوار، وانتهى الموقف بإعلان الشاعر أن المغامرة التي ساقها هي ضرب من الخيال، ولو أن تلك المرأة حقيقة في حياته لخاض إليها الغمرات وتحمل الأهوال . ولهذه الأطروحة القصصية أشباه في ديوانه[١٢٧].

وعلى أية حال فقد شكل تفصيل المعاني بصورتيه التجاورية والتسلسلية رقياً عقلياً ومنطلقاً نما من خلاله الشعر وتطور، وآتى ثماره في تلك الوحدة الموضوعية التي تميزت بها بعض القصائد الجاهلية .

التأمل في الحياة :

في فضاء الشعر البحريني نما حس إنساني يهتدي بالعقل ويسترشد بالتفكير والتأمل، ويعتمد على الملاحظة الدقيقة والتجربة الصادقة لتقرير حقائق هذا الكون . كما زخر هذا الشعر بنبض إنساني يحتفي فيه الشاعر بالعواطف والقيم الخلقية . ولا يمكن أن تتبلور هذه المفاهيم السامية إلا في بيئة راقية بلغت قدراً غير قليل من الوعي الفكري والنضج العاطفي .

وقد كان لشعراء البحرين نظرات ثاقبة اخترقوا بها كثيراً من حجب الحياة، وسبقوا فيها غيرهم مكونين لأنفسهم رصيداً معرفياً لا يخلو من فلسفة رغم ما فيه من تلقائية . مهيئين تلك المعاني ليتوسع فيها من جاء بعدهم من الشعراء ويضيفوا إليها .

ومن المعاني التي تأملوها وسجلوا رؤاهم حولها، قصر الحياة وسرعة انطفاء بريقها، يقول عمرو بن قميئة : (وافر)

وما عيْشُ الفتى في الناس إلاَّ
كما أشعلْتَ في رِيْحٍ شِهابَا
فيسطعُ تارةً حَسَناً سَنَاهُ
ذكِيُّ اللون ثم يصيرُ هابَا[128]

فسرعة إيقاع الحياة وسرعة تقضّيها يضارع النار المشتعلة في وسط تكتنفه الرياح، لا يلبث أن يخبو أوارها، ونظراً لامتداد العمر بهذا الشاعر وإدراكه سن التسعين وتقلبه في أحوال شتّى صاغ انطباعاته عن الحياة متأسياً متحسراً على أيام الصحة والشباب ومن قضى من أهله، يقول : (متقارب)

كَبِرْتُ وفارقني الأقربونَ
وأيقنَتِ النفسُ أنْ لا خُلُودَا
وبَانَ الأحبةُ حتى فنوا
ولم يتركِ الدهرُ منهم عَمِيداَ
فيا دَهْرُ قدْكَ فأسْجِحْ بنا
فلسنا بصخْرٍ ولسْنا حديدَا[129]

فخطاب الشاعر للدهر يجسد الإحساس باللوعة والأسى بسبب محن الحياة ورزاياها، ونتيجة لما عاناه من عجز الكبر وضعفه بكى الشباب وتأسّف

على زواله وما كان ينعم بـه مـن صحـة وقوة : (منسرح)

يا لهفَ نفسي على الشبابِ ولمْ
أفْقِـد به إذ فقدتُـهُ أمَمَـا[١٣٠]

قد كنتُ في ميْعـةٍ أسَرُّ بها
أمنَـعُ ضيْمي وأهبـطُ العُصُـما

وبهذا القـول وضـع "ابـن قميئـة" ركائز موضوع كبير تناوله الشعراء فيما بعد متوسعين فـي معانيـه . والأسلوب الإنشائي يجسد التدفق الشعوري والألـم الذي زخرت به نفس الشاعر . ونتيجة لعمق إحساسه بالموقف عبر عما يحس بـه المسن (المعمر) من عدم جـدوى الحياة الطويلـة التـي ينشدها النـاس فخاطبهم في نفس الأبيات :

لا تغبطِ المرءَ أن يُقالَ لهُ
أمْسَى فلانٌ لِعُمرِهِ حَكَمَا

وقد برز الشيب موضوعاً أصيلاً في شعر البحرين تناوله الكثير من الشـعراء وقـد رد "المثقب" علـى امرأتـه حيـن سـخرت مـن شـيبه[١٣١] ، وعلـل أن الشباب إن هو إلا ثوب معار سرعان ما يخلـع . أمـا "المرقـش" فقـد هـزأ بالخضاب لعجزه عن رد الشـباب ولمـا يحمله من زيف[١٣٢] .

تأمل الشعراء الدهر وأدركوا ماله من سطوة وبطـش وقـدرة علـى قـهر الإنسـان والعبث به بالانتقال به من حال إلى حال فقال "ابن قميئة" : (خفيف)

فزعتْ "تُكْتُـمٌ" وقالت عجيبـاً
أن رأتني تَغيّـرَ اليـومَ حالـي

يا ابنةَ الخيْرِ ! إنما نحن رهْنٌ
لِصُـروفِ الأيـامِ بعد الليـالي

جلَّح الدهـرُ وانتحَى لي وقُدْمـاً
كان يُنحي القُوَى على أمثالي[١٣٣]

ويكشف البيت الثاني عـن أسـلوب الشـاعر فـي تعزيـة النفس وخلـق تـوازن يرفدها ويرفع من معنوياتها حتى لا تنهار أمام ضربات القدر الموجعة، أما المرقـش الأصغر فأبرز مظهراً آخر من مظاهر سطوة الدهر بحرمان المثري من أمواله، وإنـزال العزيز من عليائه، وإشقاء صاحب النعم، وبيّن عجز أولئك عن جبروت الدهر[١٣٤] .

كان طبيعياً أن تؤرقهم فكرة المـوت وتدفعـهم للتـأمل والنظـر . وشـكل هـذا الموضـوع قضيـة حيويـة وهاجسـاً بـالغ الحساسـية وقفـوا منـه موقـف المتسـائل الطـامح إلـى سـبر حقيقتـه رغـم التسـليم بعجز الإنسان والإيمان بأن الموت نهايـة الحيـاة . يقـول يزيد بن خذّاق : (بسيط)

هل للفتى من بناتِ الدهر من واق
أم هل له من حِمامِ الموتِ مِنْ راق

والاستفهام المكرر مرتين يؤكد إيمان الشاعر بحتمية الموت، وأن لا مفر للإنسان منه . وقد استغرق الشاعر في تصور نفسه ميتاً فوصف الطقوس الجنائزية في دفنه، وعمد إلى خطاب النفس في محاولة منه للتماسك والحد من انهيار الذات :

هوِّن عليك ولا تَوْلَعْ بإشفاق
فإنما مالُنا للواحدِ الباقي[١٣٥]

ويذكر الرواة أن هذه الأبيات هي أول ما قيل في ذم الدنيا . وإذا صح ذلك فإن الشاعر وضع دعائم موضوع شعري استثمره الشعراء بعده مفتقين جوانبه .

ويبدو "طرفة بن العبد" - رغم قصر حياته - شاعراً أصيلاً . وتدل تأملاته في الموت على بصيرة نافذة ورؤية دقيقة شفافة[١٣٦] .

عمد الشعراء إزاء حادث الموت والشعور بالعجز واليأس أمامه إلى إيجاد معادل موضعي يخففون من خلاله من الإحساس بالخيبة والإحباط ويلتمسون للنفس ما يسليها ويعزيها، فذكروا أن المنية قدر محتوم يشمل كلّ المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات، فليس الإنسان أو الشاعر هو المخصوص بالفجيعة، ويعبر عمرو بن قميئة عن شمولية الموت وإحاطته بكل الموجودات فيقول : (خفيف)

أقْصَدَتنِي سهامه إذ رأتني
وتولتْ عنه سُلَيْمَى نِبالي
لا عجيبٌ فيما رأيتِ ولكنْ
عجبٌ من تفرُّطِ الآجالِ
تُدركُ التمسَحَ المولَعَ في اللُجَّـ
ـةِ والعُصْمَ في رؤوس الجبالِ
والفريدَ المُسَفَّعَ الوجْهِ ذا الجُدُ
ةِ يختارُ آمناتِ الرمالِ
وتَصَدى لِتصْرَعَ البطلَ الأرْ
وَعَ بين العلْهاءِ والسِّربالِ[١٣٧]

ويعمد هذا الشاعر المبدع إلى إيجاد معادل آخر يستمد منه شحنات نفسية تعزيه وتمده بالقوة والتماسك، فيلتمس العبرة من الأمم السابقة واضعاً بذلك ركائز الشعر التاريخي : (كامل)

قد كان من غسانَ قبلك أمْـ
ـلاكٌ ومن نصْر ذوُو نِعَم
فتتوَّجوا مُلكاً لهم هِمَمٌ
ففنُوا فَناءَ أوائلِ الأمم

لا تحسبنَّ الدهــرَ مُخْـلِدَكُمْ
أو دائماً لكمُ ولـمْ يَــدُمِ[١٣٨]

وتعج الأبيات بالقضايا الإنسانية التي تؤرق البشر كقضية الموت الذي ينتهي بالإنسان إلى الفناء والعدم، وقضية الخلود التي تمثل مطمحاً إنسانياً يدفع البشر إلى التماسه والبحث عنه بشتى الوسائل .

نتج عن ميل الشعر إلى تأمل الحياة وسبر أغوارها أن انبعثت الحكمة على ألسنتهم أصيلة عميقة متدفقة . وتفطّن الدارسون المحدثون إلى دور البحرين في هذا المجال ، وهم يرون أن هذا الموضوع احتل حيزاً بارزاً من شعرهم ووجد على نطاق واسع ، فلم يبلغ من القوة في مناطق الجزيرة العربية ما بلغه في شرقها[١٣٩] .

وتمتد الحكمة في أشعار البحرين حتى تكوّن سلاسل متوالية كما هو الحال في بعض قصائد "طرفة" و"المتلمس" و"يزيد بن خذاق" و"الأعشى" ، كما تتعدد محاورها وتتنوع معانيها لتشمل الكثير من قضايا الإنسان . يقول المتلمس حاثاً على الاعتدال في الإنفاق : (وافر)

وأعلمُ علـمَ حـقٍ غيرَ ظـنٍّ
وتقـوى اللهِ من خيرِ العتـادِ
لحِـفْظُ المـالِ أيسـرُ مِنْ بُغاهُ
وسـيرٌ فـي البـلادِ بغيرِ زادِ
وإصـلاحُ القليـلِ يزيـدُ فيْـهِ
ولا يبقى الكثيرُ مع الفسـادِ[١٤٠]

واستطاع الشاعر استخلاص مبدأ عام من خلال موقف خاص ، منتقلاً بالقضية من مجالها الضيق إلى آفاق إنسانية أرحب وفي ذلك ما فيه من رقي فكري .

ويجنح المرقش الأصغر إلى بسط مجموعة من الحكم في إطار قصيدة غزلية كيّفها لتتناسب مع الموضوع فقال : (طويل)

فمن يلقَ خيراً يحمدُ الناسُ أمـرَهُ
ومن يغْوِ لا يعـدَمْ على الغيِّ لائمـا
ألـم تـرَ أن المرءَ يجْـذِمُ كفَّـهُ
ويجشَمُ من لومِ الصديق المَجاشِما[١٤١]
أمِن حلـمٍ أصبحْتَ تنْكُتُ واجمـاً
وقد تعْتَري الأحـلامُ من كان نائمـا

ويمثل قول الشاعر "ألم تر" المصدر الذي يعتمد عليه في استقاء حكمته وهي وقائع الحياة عامة ، وتجاربه الخاصة مع

بصر نافذ يخترق الحجب . والحكمة كثيرة عند شعراء البحرين وليس من شأننا تتبعها ولكننا أردنا الإشارة فقط إلى بعض مواضعها[142] .

لقد تحولت الحكمة إلى خطاب وعظي وتوجهات خلقية كمقطوعة "طرفة" التي استغرقت عشرة أبيات ساق خلالها العديد من المواعظ كقوله : (متقارب)

وإنْ بابُ أمرٍ عليكَ الْتَوى
فشاوِرْ لبيباً ولا تَعصِهِ
وذو الحقِّ لا تنتقصْ حقَّهُ
فإنَّ القطيعةَ في نقْصِهِ[143]

المنهج الأخلاقي:

أدت تجارب الشعراء وتأملاتهم في الحياة إلى محاولة بناء علاقات إنسانية متينة تمكن الفرد من الانتصار على إحباطاته، وما يتعرض له من سلبيات . فيخاطب "المثقب" صاحبه أو ملك الحيرة حاثاً إياه على جعل الصدق والصراحة ونبذ الزيف أساساً في بناء العلاقة القائمة بينهما : (وافر)

فإما أن تكون أخي بحقٍّ
فأعرف منك غثّي من سميني[144]
وإلا فاطَّرِحْني واتخِذْني
عدواً أتقيك وتتقيني

والقصيدة تفيض بالقيم والسجايا الحميدة التي تمثل دستوراً أخلاقياً مقتبساً من منظومة الأخلاق العربية . ومما أوضح رؤية الشاعر وفلسفته العفوية لمفهومي الخير والشر قوله :

وما أدري إذا يمَّمتُ وجهاً
أريدُ الخيرَ أيُّهُما يليني
أَالخَيْرُ الذي أنا أبتغيهِ
أم الشرُّ الذي هوَ يبتغيني

وتسيطر على الشاعر نزعة إنسانية تتمثل في شغف البشر بكشف الغيب واختراق المجهول بدافع درء الشرور والأخطار وبناء حياة أكثر استقراراً :

دَعي ماذا علمتُ سأتقيهِ
ولكنْ بالمُغَيَّبِ نبِّئيني

وشعر البحرين، كما هو شأن الشعر العربي يعبق بتمجيد الخير والتغني بالفضائل كالكرم والشجاعة والعفة في

نظرة ترى أن ممارسة الفضيلة انتصار على شرور الحياة وتخليص لها مما يفسدها ويعكر صفوها، ولعمرى فهذا أعلى درجات الرقي .

هكذا شكل المضمون العقلي رافداً أخصب الشعر، وأثرى رؤية الشعراء، وواكب التحضر المادي بحيث ائتلف اللونان على تجسيد ما بلغته منطقة البحرين من تحضر .

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
أستاذ الأدب القديم والوسيط المساعد
كلية الآداب - جامعة البحرين

الهوامش

١ – مجلة الوثيقة ١٠٦/٦ ويراجع أيضاً العدد ١٧/٩ .

٢ – الوثيقة ٢٨/٧ .

٣ – جواد علي – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥٦٩/١ والوثيقة ١١٢/١٠ و١١٣ .

٤ – الوثيقة ١٤٤/٢ .

٥ – جواد علي – السابق ١٦/٢ و٢٧٥/١٧ .

٦ – ياقوت الحموي – معجم البلدان ٤٣٢/٢ . وحمد الجاسر، المعجم الجغرافي ج٢ "دارين" .

٧ – جواد علي – السابق ٦٥٠/٨ .

٨ – جواد علي – السابق ٢٥١/٧ .

٩ – الوثيقة ١٣١/٧ وبعدها .

١٠ – السابق .

١١ – تراجع مادة "عدل" ١٧٢/٣ .

١٢ – المسالك والممالك ٣٧٠/١ و٣٧١ .

١٣ – ياقوت الحموي – معجم البلدان ٣٤٧/١ .

١٤ – يراجع في ذلك محمد بن حبيب – المحبّر ص ٢٦٥ وبعدها . والمرزوقي، الأزمنة والأمكنة ١٦١/٢ وما بعدها . ومحمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود ص ٧١ .

١٥ – يراجع مقالة د. إحسان عباس "دور شرق الجزيرة العربية في الشعر الجاهلي" ص ١ و٢ . ومجلة الوثيقة ٥٧/٧ وبعدها .

١٦ – المسالك والممالك ٣٧١/١ .

١٧ – تراجع مادة "هجر" في لسان العرب .

١٨ – إحسان عباس – السابق ص ٩ وجواد على المفصل ١٩٨/٣ .

١٩ – المفضل الضبي – المفضليات – المفضلية ٧٨ .

٢٠ – يراجع ديوان طرفة ص ٣٨ . وديوان المتلمس ص ٤٣ القصيدة (٢) وص ١٣١ القصيدة (٦) وص ٢٣٦ القصيدة (١٥) . وتراجع معلقة عمرو بن كلثوم عند الزوزني في شرح المعلقات السبع ص ١١٨ وبعدها وهي إفراز للصراع الدائر بين المناذرة وعرب الجزيرة . وقالها الشاعر في هجاء عمرو بن هند بعد أن قتله كما يذكر المؤرخون . تراجع القصة عند جواد علي – المفصل ٢٥٥/٣ .

٢١ – يراجع عما حظي به أشراف العرب من وظائف ومنح في المفصل ٢٦٤/٥ وبعدها وص ٢٨٣ وبعدها . وفي مقالة إحسان عباس ص ٩ .

٢٢ – المفصل ٤٢٨/٩ .

٢٣ – السابق ٢٥٢/٩ .

٢٤ – السابق ٢٤٢/٣ .

٢٥ – طبقات فحول الشعراء ٨٦/١ .

٢٦ – يراجع ابن رشيق – العمدة ٥٤/١ . والسيوطي – المزهر في علوم اللغة ٤٧٦/٢ دار الفكر – القاهرة .

٢٧ – إحسان عباس – السابق ص ٨ .

٢٨ – الأصفهاني – الأغاني ٧٦/١٨ . والمرزباني معجم الشعراء ص ٢٠٠ . وديوانه ص ١٧ .

٢٩ – معجم الشعراء ٢٠١ . وديوانه ص ٤٠ و٤٨ القصيدة (٤) .

٣٠ – تراجع مقدمة الديوان ص ٤٠ .

٣١ – ديوانه ص ٤١ وص ٣٩ . والحقاق من الإبل = ما كان ابن ثلاث سنين ومن معانيها غلبة الشاعر غيره من الشعراء . تراجع مادة "فحل" في لسان العرب .

٣٢ – ديوانه ص ٢٤ وتراجع النونية في ص ٢٥ .

٣٣ – تراجع المفضلية رقم ٨٠ . وهي تنسب أحياناً للممزق العبدي وهو من شعراء البحرين أيضاً .

٣٤ – ديوانه ص ٢٠ .

٣٥ – ديوانه ص ١٥٤ .

٣٦ – المفضلية رقم ٥٤ . ويراجع أيضاً البيت ٢٩ .

٣٧ – المفضلية رقم ٤٩ .

٣٨ – الديوان الصفحات ٢٠ و٤٠ و٤٧ و٦٠ و٦٧ .

٣٩ – السابق ص ٢٦ . والبرين = حلقة لتزيين الأنف، والدملج = السوار العريض .

٤٠ – الديوان ص ٢٠٩ . والمسمعات = المغنيات، والقاصب = الزامر في عود القصب .

٤١ – السابق ص ٣٢٩ الأبيات ٨ – ١٠ .

٤٢ – السابق ص ٢١٣ والخط هي القطيف .

٤٣ – يراجع الديوان ص ٥٤ . ومعجم البلدان ٣٧٨/٢ .

٤٤ – الديوان ص ٢ . راجع أيضاً ديوان عمرو بن قميئة ص ١٦٣ .

٤٥ – الديوان ص ١٣٠ .

٤٦ – ديوانه ص ١٥٢ . ويراجع أيضاً ديوان عمرو بن قميئة ص ١٦٤ .

٤٧ – يراجع ديوان طرفة ص ٧٠ . ومفضلية المرقش الأكبر رقم ٥٤ البيت الخامس .

٤٨ – ديوانه ص ٥٧ الأبيات من ٤ – ١٠ .

٤٩ – الديوان ص ٢٥٠ تنظر الإحالات .

٥٠ – الديوان ص ١٦١ .

٥١ – الديوان ص ٧٥ . والمجترم = جامع الثمار، الكميت = الفرَس الذي يخالط سواده حمرة، ويردي = يعدو .

٥٢ – المفضلية ٥٥ . والشرب = الضامر، والملوح = الشديد الضمر .

٥٣ – الديوان ص ١٥٥ . النساء = عِرْق يجري في الفخذين، الخصبة = النخلة أو الطلع، ومكمم = مستور.

٥٤ – الديوان ص ٤٥ . وأنافت = اعتلت، والهوادي = الأعناق، والتلع = العنق الطويل .

٥٥ – يراجع على سبيل المثال المفضلية ٤٨ .

٥٦ – ديوان المثقب العبدي ص ١٥٣ .

٥٧ – الديوان ص ٦٠ .

٥٨ – الديوان ص ١٤٨ . بخت = جمال طوال الأعناق، والعراض = المفرط في العرض، وأراد بالأباهر الظهور، والشئون = جمع شأن وهي شعب قبائل الرأس التي تجري منها الدموع إلى العينين .

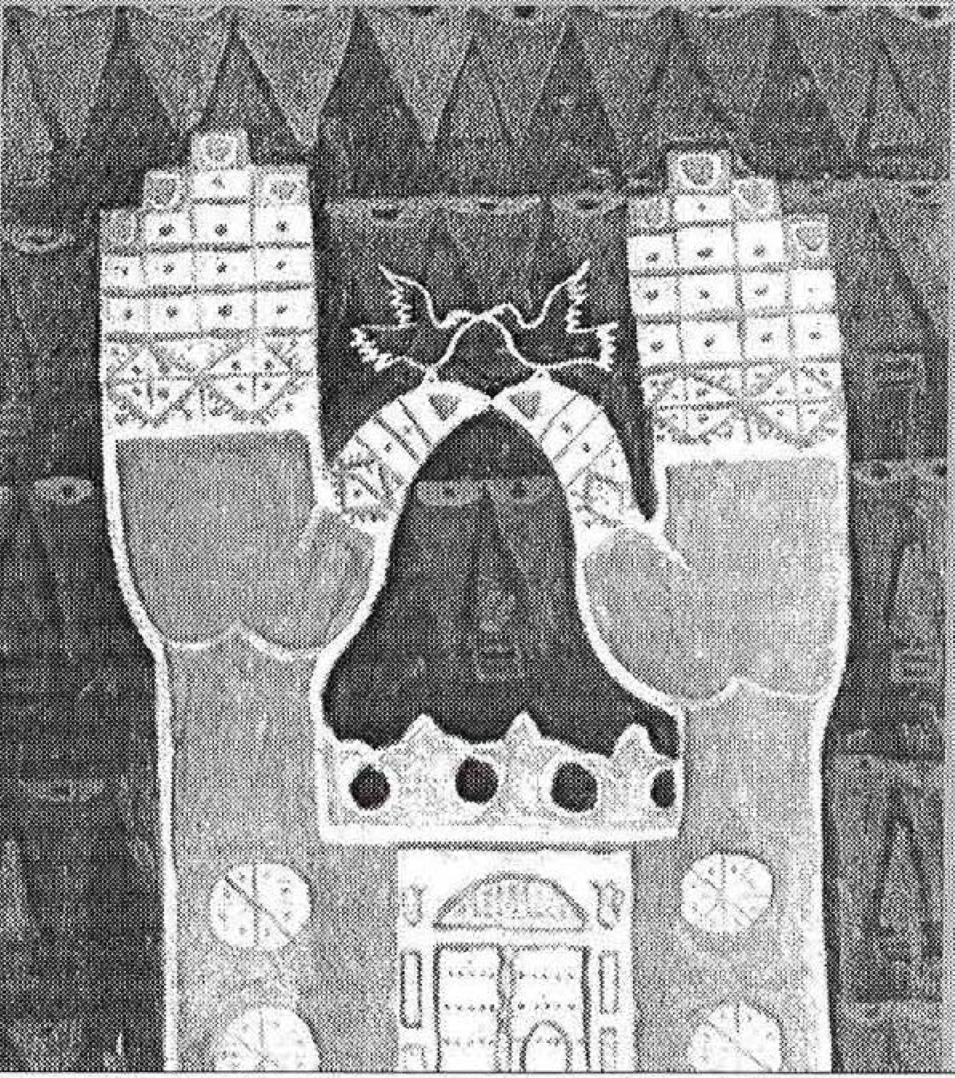
٥٩ – الديوان ص ١٩ . والنواصف مفردها ناصفة وهي الباحة الواسعة، ودد = موضع .

٦٠ – شرح القصائد التسع المشهورات ٢١١/١ .

٦١ – الديوان ص ١٨٨ . والكور = الرحْل، والنسع = السير الذي تشد به الرحال .

٦٢ – لسان العرب مادة "مهر" .

البحرين



١٠٠ . الوثيقة

البحرين في مؤلفات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجريين

التاسع والعاشر الميلاديين [٣]

بقلم : الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري

قدمنا في العدد السابق الجزء الثاني من هذه الدراسة القيمة التي أعدها الأستاذ الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمري عن "البحرين في مؤلفات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجريين" وقد عرض المؤلف في الجزء الثاني للمحاور السكانية والاجتماعية والاقتصادية .. ونقدم فيما يلي الجزء الثالث والأخير من هذه الدراسة عن المحور السياسي والعسكري ثم ملخصا للبحث كله .

[الوثيقة]

المحور السياسي والعسكري

لم يحظ الجانب السياسي والعسكري إلا بنذر يسير جداً من المعلومات والنصوص التي اقتصرت على بعض الجغرافيين اهتمت بحركات القرامطة فقط في البحرين دون غيرهم. ولعل سبب ذلك يعود إلى الفظائع التي ارتكبها هؤلاء ضد المسلمين وما رافق غزوهم وسيطرتهم على البحرين والبصرة ومكة المكرمة من أعمال عنيفة وقطعهم طريق الحج وتعرضهم لحجاج بيت الله الحرام بالسلب والنهب والقتل. فضلاً عما قاموا به في مكة المكرمة من نقل الحجر الأسود إلى مدينة هجر في البحرين وانقطاع الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة .

زودنا الاصطخري[1] بمعلومات قيمة عن أبي سعيد الحسن الجنابي، نسبة إلى مدينة جنابة على الساحل الشرقي للخليج العربي - كما ذكرنا، وبدأ حديثه عن أقوام من بلاد فارس انتحلوا ديانات خرجوا بها عن المذاهب، ودعوا إليها وانتسبوا لها، وأوضح أن إهمال أمرهم يعد ضرباً من العصبية وباباً من التحامل، وكان الواجب عدم إهمال ذكرهم، لشناعة أمرهم وفظاعة أخبارهم، كما أن الوقوف على ما أمكن من أخبار الناس وسِيَرهم من محمود ومذموم غير مكروه، وضرب مثلاً على ذلك ذكر الحسين بن منصور المعروف بـ : الحلاج، الذي اشتهر أمره .

ومن الذين عرفوا في بلاد فارس، الحسن الجنابي . ولكن أبا سعيد وهو من أهل جنابة، كان دقاقاً أظهر مذهب القرامطة فنفي عن جنابة، ولما خرج منها توجه إلى البحرين، فأقام بها تاجراً يستميل العرب بها ويدعوهم إلى ديانته فاستمال كثيراً من أهلها واستجابوا له، ثم ملك البحرين وما يتبعها، فكان من كسَر جيش الخلافة العباسية وعدوانه على أهل عمان وسائر بلدان العرب الأخرى، حتى انتهى أمره بالقتل وتخلص الناس منه.

تولى حكم البحرين بعد الحسن الجنابي ابنه سليمان المكني أبو طاهر، وقد اشتهر بأفعاله الشنيعة، والتي أبرزها قتل الحاج وانقطاع طريق مكة المكرمة في أيامه والتعدي في الحرم، وانتهاب كنوز الكعبة وقتل المعتكفين المجاورين في مكة . وبسبب اعتراض الحاج وتذمرهم من أعماله الشنيعة هذه اعتقل عمه (لم يذكر اسمه) وقراباته في شيراز مدة، وكان هؤلاء مخالفين لأبي طاهر سليمان القرمطي في طريقته وسلوكه، اتُصفوا بصلاح وسداد وتمت الشهادة لهم بالنزاهة عن القرامطة، فخلي سبيلهم وأطلقوا بلا قيد، لابتعادهم عن مذهب القرامطة .

إن ما ذكره الاصطخري يوضح لنا بداية الحركة القرمطية التي انتشرت في البحرين واتخذتها ساحة لها، وكيف قام هؤلاء القرامطة بأعمال سيئة ومرفوضة من قِبَل المسلمين، الذين عانوا الأمرين منهم، كما أن بعض أقارب هؤلاء، كانوا مخالفين لهم غير راضين عن

أفعالهم الدموية التي أثارت استياء واستنكار المسلمين في عموم أرجاء الدولة العربية الإسلامية، واختتم الاصطخري حديثه عن القرامطة بقوله : "والله الحافظ للإسلام وأهله، والشر لمن حاد الله في أمره".

يعد المسعودي الجغرافي الوحيد بين جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجريين/ ٩ - ١٠ م، الذي انفرد بايراد تفصيلات عن نشاط القرامطة السياسي والعسكري وعلاقتهم مع القوى السياسية السائدة عند ظهورهم، ولهذه المعلومات أهمية خاصة، بسبب اهتمامها بالنشاط السياسي والعسكري للقرامطة - كما ذكرنا - كما أنها تشير إلى تأثر البحرين والبصرة والكوفة ومكة المكرمة بهذه الحركات واتخاذها ساحات لذلك النشاط، الذي انعكست آثاره السلبية على تلك المناطق. ويلاحظ أن المسعودي كان يقدم ويؤخر في ذكر السنوات التي وقعت فيها بعض الحوادث التاريخية، كما أشار إلى أن كثيراً منها دونها عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م في خلافة المطيع العباسي، ويكرر ذكر ذلك العام مراراً في كتابه، أي قبل وفاته بعام واحد. من ذلك قوله في ذكر حوادث خلافة المقتدر بالله[٢] : "قال المسعودي ولم يتقلد الخلافة من بني أمية وبني العباس إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ في خلافة المطيع من اسمه جعفر إلا جعفر المتوكل وجعفر المقتدر وكان مقتلهما جميعا في شوال . . .".

وذكر المسعودي[٣] في حديثه عن عصر المقتدر ٢٩٥(-٣٢٠هـ/ ٩٠٧-٩٣٢م)وقوع أمور لم يكن مثلها في الإسلام، منها أن الحج بطل (توقف) فلم يحج عام ٣١٧هـ/٩٢٩م أحد، بسبب دخول أبي طاهر سليمان بن حسن بن بهرام الجنابي القرمطي صاحب البحرين إلى مكة، وحدد دخوله إياها يوم الاثنين ٧ ذي الحجة، ولم يتوقف الحج منذ ظهور الإسلام إلا في تلك السنة.

استمر المسعودي[٤] في ذكر حوادث عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله، ومنها غزو القرامطة البصرة، إذ يقول : "ومن الكوائن العظيمة والأنباء الجليلة التي كانت في أيامه ما لم يتقدم مثلها في الإسلام مسير أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي صاحب البحرين من الاحساء من بلاد

البحرين إلى البصرة . . ."، وعد ذلك الغزو من الكوائن العظيمة والأنباء الجليلة، ويمضي في سرد حوادث ذلك الغزو والاستعدادات المهيئة له، إذ كانت القوة القرمطية القادمة من الاحساء في البحرين لغزو البصرة مكونة من أربعمائة فارس وخمسمائة راجل، وكان دخولهم البصرة في ليلة الخميس لثلاث وقيل لخمس بقين من شهر ربيع الآخر عام ٣١١هـ/٩٢٣م، وفي رواية ثالثة قيل أن دخولهم البصرة كان ليلة الاثنين لست بقين من شهر ربيع الآخر، واستغرق مسيرهم في الاحساء إلى البصرة ست لياله، وكان دخولهم البصرة ليلاً مما أدى إلى نشر حالة الذعر والهلع في صفوف السكان فسارعوا للهرب منهم باتجاه الأبلة والمفتح والشطوط والأنهار والجزائر، وقتل سبك المفلحي ومن قبضوا عليه من أصحابه كما قتلوا كل من وقف في طريقهم وقاومهم من الرعية، وأقاموا في البصرة سبعة عشر يوماً ثم غادروها عائدين إلى بلادهم .

ومن الأعمال الشنيعة والتصرفات الحاقدة على المسلمين، قيام سليمان القرمطي باعتراض الحاج وهم في طريقهم للعودة، بعد انقضاء موسم الحج وانصرافهم من مكة وذلك بنواحي الهبير[٥] مما يلي الثعلبية، وكان في قوة بلغت خمسمائة فارس وستمائة راجل، فقتل من قتل من القادة وسائر الأولياء وأسر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون أميرهم وأحمد بن بدر العم وأحمد بن محمد بن كشمر وغيرهم من الوجوه وسائر طبقات الناس من النساء والرجال، فضلاً عن مصادرة صنوف من الأموال التي لا يمكن تحديدها ومعرفة مبلغها، وكان ذلك ليوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر محرم عام ٣١٢هـ/٩٢٤م[٦] . وهكذا نجد مسلسل الحقد والكراهية للعرب والمسلمين مستمراً في التنفيذ من قِبَل أبي طاهر سليمان بن الحسن القرمطي في إشاعة الخراب والدمار والقتل في المدن وطريق الحج معاً .

يشير المسعودي[٧] أيضاً إلى قيام سليمان بن الحسن الجنابي صاحب البحرين باعتراض الحاج في بدء توجههم إلى مكة عام ٣١٣هـ/٩٢٥م وكانت قوته مكونة من خمسمائة فارس

وستمائة راجل، وهو نفس عدد قوته السابقة، فظفر ببعضهم ورجع الباقون إلى الكوفة ومدينة السلام (بغداد)، وتوجه القرمطي إلى الكوفة ومواجهته القادة الذين أرسلتهم الخلافة العباسية لقتاله، وهم جعفر بن ورقاء الشيباني وجني الصفواني الخادم مولى ابن صفوان العقيلي وثمل الخادم الدلفي صاحب أنطاكية والثغور الشامية وطريف السبكري الخادم وإسحاق بن شروين السبكري وغيرهم من رؤساء الأجناد، وانتهى اللقاء بهزيمة هؤلاء وقتل منهم من قتل، وتم أسر جني الصفواني وغيره، وذلك يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ذي القعدة عام ٣١٣هـ .

بعد انتهاء المعركة توجه سليمان بن الحسن القرمطي الجنابي من الكوفة إلى الاحساء بمن معه من الجيش والمعدات، وتولى الكوفة من قبله إسماعيل بن يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بـ : الأخيضر صاحب اليمامة ابن إبراهيم بن موسى(٨) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ .

وفي الوقت الذي توجه فيه أبو طاهر الحسن القرمطي إلى الكوفة، وجهت الخلافة العباسية حملة عسكرية لمواجهته بقيادة أبي القاسم يوسف بن أبي الساج وكان الخليفة قد أمره بالتفرغ لهذه الحملة وترك ما كان يتولاه من الأعمال في بلاد أذربيجان وأرمينية وأران والبيلقان وغيرها، ليستعد في واسط ويتوجه إلى بلاد البحرين لمحاربة القرمطي . وفي ذلك الوقت وصل الخبر بمسير صاحب البحرين إلى الكوفة، فخرج ابن أبي الساج مبادراً له. لكن أبو طاهر القرمطي سبقه إليها ونزل الموضع المعروف بـ : الخورنق - قرب الكوفة - وتمكن من السيطرة عليه، ونزل ابن أبي الساج في اليوم الثاني بالقرب منه في الموضع المعروف : بين النهرين، مما يلي القرية المعروفة حروراء التي تنسب إليها الخوارج الحرورية، ووقعت المعركة بينهما يوم السبت لتسع خلون من شهر شوال عام ٣١٥هـ/٩٢٧م، انتهت بانكسار جيش يوسف بن أبي الساج ووقوعه في الأسر. وقتل عدد كبير من أفراد جيشه يقدر بأكثر من ثلاثين ألف فارس وراجل، مع

تفرق كثير من أصحابه عنه في الطريق وتأخرهم عنه، وكان جيش صاحب البحرين نحو ألفين من المقاتلة أكثرهم رجالة (مشاة)[9] .

ولا تخلو هذه الرواية من مبالغة واضحة، إذ لا يمكن أن نتصور جيشاً قوامه ألفا مقاتل أكثرهم من المشاة، يهزم جيشاً من الفرسان والمشاة ويلحق به الهزيمة والخسائر التي قدرت بأكثر من ثلاثين ألفاً بين فارس وراجل .

استمر المسعودي في سرد أخبار أبي طاهر القرمطي ومعاركه العسكرية ضد الجيش العباسي، فبعد انتصاره في الكوفة على جيش يوسف بن أبي الساج توجه إلى الأنبار وتمكن من السيطرة عليها، وقطع عدة من أصحابه نهر الفرات إلى الجانب الشرقي فقتلوا من كان بالأنبار من القادة، منهم المعروف بـ : الحارثي وبرغوث وابن بلال ومحمد بن يوسف الخزري وغيرهم. وذلك يوم الثلاثاء ٣ ذي القعدة عام ٣١٥هـ/٩٢٧م، وعقد على الفرات جسراً وترك معظم جيشه وعبر مع الخيالة من أصحابه إلى الأنبار، وغادرها يريد الوصول إلى بغداد والمواجهة مع الخليفة العباسي المقتدر بالله حتى انتهى إلى النهير المعروف بـ : زبارا فوق التل المسمى : عقرقوف بفرسخ (٦كيلومترات)، وذلك على بعض يوم من مدينة السلام، وكان مؤنس الخادم ونصر الحاجب المعروف بـ : القشوري وأبو الهيجاء عبد الله بن حمدان . وقد كان أطلقه وغيره ممن ذكرناهم سابقاً (حين وقعوا في الأسر في حملته ضد حجاج بيت الله الحرام وذلك يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم عام ٣١٢هـ/٩٢٤م)، أطلقهم قبل رحيله لمواجهة ابن أبي الساج عام ٣١٥هـ/٩٢٧م .

بعد وصول أخبار وسيطرة سليمان القرمطي على الأنبار وتوجهه نحو بغداد، اتخذت الخلافة العباسية جملة إجراءات لمواجهته، والتصدي لمحاولته دخول عاصمة الخلافة وتحدي مشاعر العرب والمسلمين، فعسكرت قوات الخلافة على نهر زبارا، ولما شعروا بدنو وصول القرمطي قطعوا القنطرة التي عليه وصار النهر حاجزاً بين الفريقين، فقامت جماعة من عسكر سليمان برمي النشاب على جيش الخلافة، وذلك في يومي

الثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي القعدة عام ٤١٥هـ/٩٢٧م .

واصل المسعودي سرد أخبار أبي طاهر القرمطي الجنابي . فبعد عودته من بغداد رجع إلى الأنبار وتبعه جيش الخلافة العباسية بقيادة يلبق غلام مؤنس الخادم بحدود سبعة آلاف مقاتل، وانتهت المعركة بينهما بانتصار جيش القرمطي وتدمير معظم جيش يلبق الذي نجا منكسراً وذلك يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهرذي القعدة عام ٣١٥هـ، وسار القرمطي إلى مدينة هيت بجيشه فنزل عليها وحاصرها، (وذكر المسعودي أنه كان في ذلك الوقت في مدينة هيت قادماً من الشام في طريقه إلى بغداد) وعبر أصحاب القرمطي الذين كانوا في جانب الأنبار على أطواف (وسائل لعبور النهر) اتخذوها في الموضع المسمى : فم بقة أسفل هيت واجتمعوا معه، ووقعت المواجهة معه، ووقعت المواجهة مع أهل هيت يوم الأحد لثمان خلون من شهر ذي الحجة عام ٣١٥هـ/٩٢٧م، كما عبر إلى هيت من المساء هارون بن غريب الخل وأبو العلاء سعيد بن حمدان ويونس غلام الأصمعي وغيرهم من القادة، ووقع القتال بين الطرفين من فوق السور، واحترقت عدة دبابات للقرمطي فعاد إلى عسكره وغادر هيت يوم الاثنين صبيحة المواجهة إلى ناحية رحبة مالك بن طوق، وارتفعت من معسكره نار عظيمة عند السحر قبل رحيله، وكان الظن أنه يريد معاودة الحرب، لكنه أحرق كثيراً من أثقاله ليخفف منها، بسبب كثرة عدد جيشه وسرعة انسحابه[١٠] .

يتضح لنا من هذه الحوادث استخدام القرامطة أسلوب القوة والعنف والبطش ضد سكان المدن التي يحتلونها بالقوة، كما أنهم أصيبوا بالغرور فقرروا توجيه جيشهم لغزو بغداد عاصمة الخلافة العباسية والمنازلة مع الخليفة العباسي المقتدر بالله، الذي وقعت كل مآسي هؤلاء القرامطة الكبرى في عهده، واستمر بعضها من بعده، ففشل القرامطة في احتلال بغداد وانسحبوا خاسرين خائبين، وكان المسعودي شاهد عيان معاصر عندما قام القرامطة بحصار مدينة هيت، إذ كان قادماً من بلاد الشام في طريقه إلى مدينة السلام (بغداد)، كما روى بعد ذلك أخباراً تدل على معاصرته

لحوادث أخرى والتقى ببعض رجال القرامطة ووصفهم وتحدث معهم .

سيطر سليمان بن الحسن القرمطي الجنابي على ناحية الرحبة، وهي رحبة مالك بن طوق، وكان واليها وقتئذ أبو جعفر محمد بن عمرون التغلبي وكان فتحها عنوة أي بالقوة ونزلها، وهي من الجانب الشامي، كما فتح قرقيسيا وهي من الجانب الجزري، وبعث منها السرايا إلى النواحي، منها سرية إلى كفرتوثا ورأس العين ونصيبين كانت بقيادة الحسين بن علي بن سنبر الثقفي ومعاذ الأعرابي الكلابي فأوقعوا الهزيمة بالعرب في تغلب والنمر وغيرهما .

بعث سليمان القرمطي قبل إرسال هذه السرية سليمان الجلي إلى كفر توثا - وهي مع المدن السابقة من مدن الجزيرة الفراتية بين العراق وبلاد الشام -، ومهمة سليمان الجلي إيصال الزاد والميرة إلى معسكر القرمطي، وكان الجلي شخصية متميزة وصفها المسعودي بقوله : **"وكان من ذوي النسك منهم والدراية بمذهبهم، وقد كلمتُ غير واحد من دعاتهم وذوي المعرفة منهم فلم أر مثله دراية وتحصيلاً وتديناً مما هو عليه وحسن إتقان للسياسة التي تكون مع الدعاة، وكان أولاً مع أبي زكريا والبحراني ثم صار مع أبي سعيد الجنابي وولده"**(١١) .

واصل القرمطي حملاته ضد مدن بلاد الشام، فبعث سرية إلى الرقة كان على قيادتها الحسين بن علي بن سنبر ومعاذ الكلابي أيضاً، فنزلا عليها يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الأولى عام ٣١٦هـ/٩٢٨م، وأميرها نجم غلام جني الصفواني . وبدأ القتال بينهما يومي الثلاثاء والأربعاء لخمس بقين من هذا الشهر وانصرفوا في آخر يوم الأربعاء، وأصيب عدة من الفريقين أكثرهم أصحاب القرمطي فعادوا إلى الرحبة، وأقام صاحب البحرين (سليمان القرمطي) فيها كان يفكر بدخول الرملة من بلاد فلسطين أو مدينة دمشق، لكنه قرر العودة إلى البحرين لأمور معينة، فسار عن الرحبة في أول شهر شعبان عام ٣١٦هـ في البر والماء منحدراً في الفرات، واستغرق مقامه في الرحبة إلى أن خرج منها نحو سبعة أشهر . وفي طريق عودته نزل على هيت ثانية ودار بينهما قتال شديد في الماء والبر، ولم

يكن معه في حملته الأولى سفن، ثم تركها وسار إلى ناحية الكوفة والقادسية، وحمل معه الميرة واجتاز بظاهر (خارج) البصرة، وعاد إلى البحرين في آخر المحرم وأول صفر عام ٣١٧هـ/٩٢٩م[١٢] .

بعد عودة سليمان بن الحسن القرمطي الجنابي من بلاد الشام والعراق، إثر سلسلة متواصلة من المعارك والوقائع العسكرية، إلى بلاد البحرين، وجه حملة نحو مكة المكرمة فدخلها يوم الاثنين ٧ ذي الحجة عام ٣١٧هـ/٩٢٩م،في ستمائة فارس وتسعمائة راجل (مشاة)، وأمير مكة وقتئذ محمد بن إسماعيل المعروف بـ : ابن مخلب، واشتبك مع من كان بها من الأولياء وعامة الناس من الحاج وغيرهم، لكنهم فشلوا في المواجهة، خصوصاً بعد قتل نظيف غلام ابن حاج وكان من سكنة مكة، وممن يعتمد عليه، وأخذ القرمطي الناس بالسيف ولجأوا إلى المسجد والبيت الحرام/ فأوقع القتل فيهم، واختلف في عدة من قتل من الناس من أهل مكة وغيرهم من الأمصار الأخرى، فقيل بلغ عددهم ثلاثون ألفاً وقيل أقل من ذلك، وهذا العدد هو مجرد ظن وتقدير، لأن هنالك من مات في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضراً .

لقد كان هذا الحدث جللاً ومأساة وجريمة نكراء اقترفها أبو طاهر سليمان القرمطي ضد حجاج بيت الله الحرام، دون أية خشية أو رهبة من هذا المكان المقدس الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لاجتماع المسلمين ووقوفهم خاشعين للواحد الأحد، فاقتلع باب البيت الحرام وكان مصفحاً بالذهب، وأخذ جميع ما كان في البيت من محاريب الفضة والجزع، وقلع الحجر الأسود وجرد البيت من الكسوة، وحملت الأسلاب على خمسين جملاً، وذلك يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة عام ٣١٧هـ/٩٢٩م/ وكان مقامهم بمكة ثمانية أيام، وعند رحيلهم عنها اعترضتهم قبيلة هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر، وهم رجالة (مشاة) في المضايق والشعاب والجبال وحاربوا القرامطة حرباً شديدة بالنبل والخناجر، وعرقلوا مسيرهم في طريق عودتهم، فاشتبهت

عليهم الطرق وظلوا ثلاثة أيام حائرين بين الجبال والأودية، تخلص خلالها كثير من النساء والرجال الذين وقعوا في الأسر، كما أخذت هذيل كثيراً من الإبل والأثقال التي كانت تحملها، وأخيراً أرشدهم عبد أسود من عبيد هذيل يقال له : زياد، استأمن إليهم، على طريق سلكوه فخرجوا من المضايق، وعادوا راجعين إلى بلادهم البحرين(١٣) . وهكذا انقطع الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة عام ٣١٧هـ، وحرم الناس من الفرح بعيد الأضحى المبارك، بسبب سيطرة القرامطة على مكة .

واصل القرامطة أعمالهم الشنيعة ضد حجاج بيت الله الحرام . في خلافة الراضي(٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م) محمد بن جعفر المقتدر، ويكنى أبو العباس، بويع يوم الخميس لست ليال خلون من شهر جمادى الأولى عام ٣٢٢هـ، بعد خلافة القاهر بالله العباسي التي دامت سنة وستة أشهر وستة أيام(١٤) .

ومن الحوادث العظيمة التي وقعت في خلافة الراضي، مسير القرمطي سليمان بن الحسن صاحب البحرين عن الاحساء، وتعرضه لحجاج بيت الله الحرام في بداية موسم عام ٣٢٣هـ/٩٣٥م، وكان خروجه لست بقين من شهر شوال في ٩٠٠ فارس و٦٠٠ راجل (مشاة)، وقسم العسكر نصفين من الجابرية (وهي من الاحساء على ثلاثة أيام)، فجعل على أحد النصفين أبا عبد الله الحسين بن علي بن سنبر ومعاذ الكلابي فساروا قاصدين طريق مكة لطلب الحاج، وتوجه أبو طاهر الحسن القرمطي إلى القادسية، لاستقبال قافلة الشمسية القادمة من بغداد مع لؤلؤ غلام المتهشم. فأوقع بن سنبر بالخوارزمية وغيرهم، وكان رؤساءهم شاذان وابن حاتم وغيرهما بناحية زبالة والعقبة فأسرهما، كما أسر آخرون من أهل القوافل وقتل آخرون، وذلك لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ذي القعدة عام ٣٢٣هـ .

نستدل من هذه الرواية أن الحجاج تعرضوا لهجوم الحسين بن سنبر ومعاذ الكلابي، وهم على مقربة من الديار المقدسة في طريقهم إليها، مما اضطر كثيراً منهم للعودة إلى العراق عن طريق العذيب، وليس لديهم علم أن الحسن القرمطي الذي ذكرنا توجهه إلى

القادسية أمامهم في طريق عودتهم، فسار لؤلؤ غلام المتهشم بالناس ولقيه القرمطي في القادسية، يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ذي القعدة من عام ٣٢٣هـ، أي بعد ليلتين فقط من تعرضهم لهجوم بن سنبر والكلابي الذي ذكرناه آنفاً. فقاتل لؤلؤ إلى أن أصيب بعدة جروح وتركه أصحابه، فطرح نفسه بين القتلى، ثم سار متخفياً فدخل الكوفة ليلاً، واستولى أبو طاهر القرمطي على القافلة بأسرها، ثم سار من خفان يريد القادسية وبينهما ستة أميال[١٥]، أي بحدود عشرة كيلومترات، فرجع القرمطي مستقبلاً المنهزمين من ابن سنبر، الراجعين يريدون الكوفة فلقيهم بالعذيب فاستأمنه قرة لقافلته وبذل عنها مالاً، فأطلقه ولم يعرض له وأوقع بالباقين فقتل وسبى وحصل على أموال طائلة، وكانت له سريتان إلى الكوفة وناحية واسط في أيام الراضي أيضاً، لم يلق فيهما حرباً أثر تأثيراً يذكر.

لم يزل سليمان القرمطي مقيماً في الاحساء من بلاد البحرين، إلى أن توفى يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م، وله من العمر ٣٨ سنة، لأن مولده في شهر رمضان عام ٢٩٤هـ/٩٠٦م، وقتل أبوه أبو سعيد الجنابي عام ٣٠٠هـ/٩١٢م، وعمره وقتئذ ست سنين، وبقي العسكر تسع سنين إلى أن تسلمه أبو طاهر في شهر رمضان عام ٣١٠هـ/٩٢٢م[١٦].

واصل المسعودي معلوماته عن القرامطة بعد نهاية أبي طاهر سليمان وذكر أن حروب ووقائع القرمطي مفصلة في كتبه الأخرى - لكننا لم نطلع عليها - ومنها أخبار القرامطة البقلية بسواد الكوفة وسيطرتهم عليها عام ٣١٩هـ/٩٣١م، والعلة في تسميتهم البقلية، وهو اسم دياني عندهم. وكان رؤساءهم مسعود بن حريث وعيسى بن موسى ابن أخت عبدان بن الربيط الملقب : قرميط والمعروف بـ ابن أبي السيد وابن الأعمى وأبو الذرو الجوهري وغيرهم، وكان جمهورهم بنو ذهل وبنو رفاعة وإيقاعهم ببني بن نفيس، بناحية الطفوف (من أعمال الكوفة) وجنبلاء وتل فخار، وهزيمتهم إياه واحتواء عسكره. وحرب هارون بن غريب الخال وصافي غلام نصر القشوري إياهم ومن قتل منهم

وأسر ومن انضاف منهم إلى سليمان بن الحسن القرمطي الجنابي (أبو طاهر) عند رجوعه من هيت إلى بلد البحرين، وكانوا يعرفون في جيشه بـ : الأجميين، بسبب سكنى أكثرهم الآجام والطفوف وهي من أعمال الكوفة[١٧] .

أشار المسعودي أيضاً إلى أخبار الغلام المعروف بـ : الزكري من أبناء ملوك الأعاجم من بلد أصبهان ووروده إليهم عام ٣١٦هـ/٩٢٨م وتسليم أبي طاهر القرمطي الأمر إليه عام ٣١٩هـ/٩٣١م وإجماعهم عليه، وما وضع من النظم والمذاهب التي ألزمهم بها، وقتله أبي حفص ابن زرقان زوج أخت أبي طاهر، وكان يدعى : الشريك، وكان أكملهم عقلاً وأوسعهم علماً وأحسنهم أدباً . كل ذلك ذكره المسعودي في كتبه الأخرى، لكننا لم نجدها، ربما لضياعها أو بسبب إهمال النساخ لها وضياع تلك المؤلفات أصلاً[١٨] .

وأخيراً ذكر المسعودي من معلوماته التي فصلها في كتبه الأخرى، ما يتعلق بأخبار أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، ونسبته واتصاله بملوك فارس ومكانه من هذه الدعوة وكيفية دخوله البحرين . وهذه الأخبار غير واضحة هنا، بل وردت في كتبه الأخرى لكننا لم نطلع عليها . ثم ذكر باختصار أجزاء البحرين التي سيطر عليها وأهم القبائل التي كانت مستقرة فيها ومقاومتها له .

أشار المسعودي[١٩] إلى اتصال أبي سعيد الحسن القرمطي ببادية بني كلاب وكان أبو زكريا البحراني قد دعاهم إليه، وما كان بين أبي سعيد وبين أبي زكريا، وقبض أبي سعيد عليه وهلاكه في يده وفتحه سائر مدن البحرين، وكان أهل البحرين في نهاية العدة والقوة .

يتضح لنا باختصار أن أبا سعيد الجنابي سيطر على البحرين بقوة السيف بعد القضاء على منافسه أبي زكريا البحراني: فدخل مدن البحرين بالقوة، وكان أهل البحرين على غاية الاستعداد والقوة من خلال توزيع القبائل العربية التي قاومت هؤلاء الفرس الغزاة مقاومة شديدة ولكن دون طائل وذلك بسبب قوة الهجمة القرمطية الكاسحة التي استخدمت القتل والإرهاب في تحقيق أهدافها التوسعية .

لقد درسنا توزيع القبائل العربية في مدن البحرين ونواحيها وقراها، لكن يهمنا هنا الإشارة إليها خلال دخول أبي سعيد القرمطي الجنابي إليها، ففي القطيف كان بنو مسمار، علي بن مسمار وأخوته، وهم من عبد القيس، وقتل علي أثناء مقاومته للقرامطة، وبين القطيف والبحر مسافة ميل، أي أكثر من كيلومتر ونصف بقليل، وللقطيف مدينة على الساحل يقال لها : عُنُك وفيها يقول الراجز :

طعن غلام لم يجئك بالسمك
ولم يعلل بخياشيم عُنَّك

وفي الزارة - وهي ميناء على ساحل الخليج العربي - الحسن بن العوام من الأزد، وصفوان وكان بها بنو حفص وهم من عبد القيس، والظهران والاحساء وكان بها بنو سعد من تميم، وجواثا وبها العريان بن الهيثم الربعي وتصدى لصاحب الزنج علي بن محمد وأنصاره من تميم وكلاب ونمير، وذلك عند ظهوره في البحرين وقبل مسيره إلى البصرة، وكان العريان قد انتصر عليهم في عبد القيس وبني عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة بن قيس بن عيلان وغيرهم في وقعات متتابعات، فأخرجه من البحرين ونواحيها وقتل من أصحابه أعداداً كبيرة، فلما وقع طرفه بالصمان على الطائر المعروف بـ : المكاء قال كلمته التي أولها :

أيا طائر الصمان مالك مغرداً
تأسيت بي أم عاق الفك عائق

وفي هجر، وكانت أعظم مدن البحرين، عياش بن سعيد المحاربي وكان أعظمهم عدة وأشدهم شوكة[٢٠] .

ومن الوقائع العسكرية ما جرى بين أبي سعيد الجنابي القرمطي والعباس بن عمرو الغنوي الذي جرده الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ:٨٩٢-٩٠١م) بجيش من البصرة لمواجهته في السبخة المعروفة بـ : آفان، وهي أرض ماء ونخل، أراد العباس نزولها وذلك عند مغادرته الماء المعروف بـ : الأعياء فسبقه أبو سعيد إلى الماء، وطول سبخة آفان سبعة أميال (أي بحدود عشرة كيلومترات)، وبينها وبين البصرة سبعة أيام. وهي على يومين من ساحل القطيف على الخليج العربي، فلما توسط العباس السبخة،

بعث أبو سعيد فعمر ما وراءه من المياه، وكانت في أعلى السبخة وهو طريق ضيق، وكان أبا سعيد القرمطي في سبعمائة فارس وراجل من كلاب وعقيل وبحرانيين. والعباس في سبعة آلاف من الجند ومطوعة البصرة وضبة والبحرانيين الذين غادروا البحرين وغيرهم، فوقع العباس في الأسر وتم القضاء على معظم جيشه، ولم ينجُ إلا من هرب، وكان ذلك في شهر رجب عام ٢٨٧هـ/٩٠٠م[٢١] .

ومن الحملات العسكرية التي بعثها أبو سعيد الجنابي القرمطي، حملاته إلى صحار، وهي قصبة (عاصمة) عمان عدة مرات، انتهت بدخوله إياها باستخدام القوة، على الرغم من أن المسافة بين عمان والبحرين تستغرق عشرة أيام في رمال ودهاس. وفي بعض مواضع الطريق ماء مالح. ومن حملات أبي سعيد حملته إلى بلاد الفلج - وهي الحفر المعروف بـ : حفر أبي موسى الأشعري المسمى اليوم : حفر الباطن، إذ أن من يتجاوزه يدخل بلاد نجد - وهي على ثلاثة أيام من اليمامة، وحملته إلى يبرين، وهي من اليمامة، فأباد أهلها، وكانت من أطيب بلاد الله وأكثرها أهلاً وعمائر ونخلاً وشجراً، وفيها يقول جرير :

فقلت للركب إذ جد المسير بنا

يا بعد يبرين من باب الفراديس

وكان يضرب بها المثل في البعد، إذ وصفها جرير ببعدها عن باب الفراديس احد أبواب مدينة دمشق، ووصفها المسعودي في عصره، بأنها كانت خالية من السكان، فيقول : "فلا أنيس بها إلى هذا الوقت" [٢٢] .

اختتم المسعودي حديثه عن أبي سعيد الجنابي وحدد مدة حكمه منذ ظهور دعوته في القطيف وسيطرته على معظم مدن البحرين وآخرها هجر إلى أن قتل، بسبعة وعشرين عاماً، وكان مقتله - كما ذكرنا عام ٣٠٠هـ/٩١٢م[٢٣]، وبذلك كانت بداية دعوته بحدود عام ٢٧٣هـ/٨٨٦م في الأعم الأرجح .

وتحدث ابن حوقل[٢٤] عن القرامطة في نسل أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي وولده سليمان، وسيطرتهما على البحرين ومدنها، وهي : هجر والاحساء والقطيف والعقير وبيشة والخرج وأوال، وهي جزيرة

البحرين الكبرى وبها سميت البحرين قديماً، وأوضحنا مقدار الأموال التي كانت تتجمع لديهم والتي تصلهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة المكرمة، فضلاً عن إقطاع ما بالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل لأتباعهم المعروفين بالمؤمنين، ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار، ماعدا المال الذي كان يصلهم من طريق مكة ومال عمان وما يصل إليهم من الرملة والشام، وقد أوضحنا سيطرتهم على كل هذه المناطق آنفاً .

أشار ابن حوقل إلى قيام القرامطة بإرسال حملات عسكرية إلى عمان بقيادة أبي علي بن أبي المنصور . ولما لم يستطع فتحها، ساروا إليها بأجمعهم فافتتحوها، كما أرسلوا حملة إلى بلاد الشام بقيادة أبي علي بن أبي المنصور نفسه، فلما عاد منها نسبت إليه خيانة، بسبب ما جلب معه من الغنائم، فأرسلوا حملة ثانية بقيادة كل من : كسرى بن أبي القاسم وصخر بن أبي إسحاق، واشتبكوا في عدة معارك مع أبي محمد بن الحسن بن عبيد الله بن طغج(٢٥) .

وأوضح ابن حوقل طائفة من القرامطة يسمون : العقدانية في الاحساء وغيرها، وأنهم هلكوا جميعاً، وكان منهم رجال جلة ذوو حلوم وعقول دون من صحبهم من الجفاة الأغتام الأغفال الطغام مثل بني الغُمر، وأجلهم كان المقيم في الجعفرية من خارج البصرة، وهو أبو الحسين علي بن محمد بن الغمر، ويتلوه أخوه المقيم في الكوفة أبو طريف عدي بن محمد بن الغمر، وأبو الحسن علي بن أحمد بن بشر الحارثي المتولي رجالهم وأعمالهم من سائمهم وكراعهم وكان المقيم فيهم الحدود على من وجبت منهم وقد ناهز المائة سنة، وثور بن ثور الكلابي صاحب جيشهم وكان مسناً أيضاً كافٍ مع كبر سنّه، وهو صاحب سراياهم إلى كل مكان، وكان أكبر منه حالة وأتم دراية أبو الحسن علي بن عثمان الكلابي وكان يزعم أن عمره مائة وعشرون سنة . وكان ممن لقي أبا زكريا الطمامي وشاهد دعوتهم الأولى وناموسهم القديم فصيح اللسان، حسن البيان، جريء الجنان، وترسّل لهم إلى غير مكان، وناب منابة قاضيهم ابن عرفة في أسباب المراسلة إلى بني حمدان وغيرهم، فعقد عليه بيعتهم وأخذ عليهم العهود بموالاتهم ، وقد انتشر

حبلهم وقلّ حولهم وفُلّ حدهم بما جروا إليه من قتل سابور بن سليمان وأمورهم كالواقفة بينهم .

وقد ذكر ابن حوقل(٢٦) أن المطيع سل سخائمهم وسعى في تالف قلوبهم وجمع كلمتهم في عام ستين (٣٦٠هـ/٩٧١م) على ما بلغه عام ٣٦١هـ/٩٧٢م، من مشافهة أبي الحسين علي بن أحمد الجزري صاحب أبي الحسين علي بن محمد بن الغمر، وقد رآه في صقلية وكأنه ورد المغرب ليقرأ الأخبار بها، وأخبره بأشياء كالسر عنده، ثم خمش وجه الحديث، وقال عمن بقي من العِقدانية في الاحساء وغيرها .

واختتم ابن حوقل(٢٧) حديثه عن هؤلاء العِقدانية بما نصه : "وسمعت غير حاكٍ في سني نيف وخمسين [بعد عام ٣٥٠هـ/٩٦١م في الأعم الأرجح] يحكي عن أبي طريف عدي بن محمد بن الغمر والقاضي ابن عرفة عن تقارب ألفاظهم في القول . أن سادتهم يتوزعون في مال البصرة والكوفة وما يقبضونه من الحجاج، ويرد عليهم من مال عمان والغنائم دون الخمس الخارج عنهم لصاحب الزمان ألف ألف دينار" .

إن هذه المعلومات المركزة عن هذه الطائفة من القرامطة وأبرز رجالها، لا نجد ما يدعمها من مصادرنا الجغرافية الأخرى، بل انفرد بذكرها ابن حوقل، فأهميتها في هذا الانفراد، على الرغم من سمة الغموض الواضحة في نصوصه بشأنهم .

أما المقدسي(٢٨) فقد أشار باختصار إلى مراكز سيطرة القرامطة في بلاد البحرين، منها الاحساء قصبة هجر، وتسمى البحرين - مما يدلل على غلبة وشهرة اسم هجر الذي طغى على اسم البحرين - ثُمّ جزائر وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد، ويضيف قائلاً : "ثمْ نظر وعدل غير أن الجامع معطل وبالقرب خزانة المهدي وخزائن أُخَر لهم أيضاً فبعض الأموال بتلك وبقيتهم في خزائنهم، والزرقاء وسابون في خزائنهم وكذلك أوال وسائر المدن في البحر أو قريبات من البحر" .

ويوضح لنا المقدسي المراكز الإدارية الرئيسية التي اتخذوها في البحرين خزائن لأموالهم، وهي الاحساء عاصمة هجر، أي عاصمة البحرين، ثم جزائر كانت مستقر القرامطة من آل أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي

صاحب دعوتهم وإمامهم، وكانت الزرقاء وسابور من مراكز إدارتهم، بدليل اتخاذها أماكن لخزائنهم وحفظ أموالهم وكذلك جزيرة أوال وهي الجزيرة الرئيسية الكبرى في أرخبيل البحرين، وبها سميت البحرين قديماً : جزيرة أوال، فضلاً عن مدن أخرى واقعة على ساحل البحر، أي الخليج العربي أو قريبة منه لكنه لم يذكر لنا أسماءها .

وأوضح المقدسي(٢٩) إدارة عمان من قِبَل الديلم، في حين كانت إدارة هجر للقرامطة الذين امتدت سيطرتهم إلى اليمن فكان على الأحقاف أمير منهم . وهذا يوضح لنا سيطرة القرامطة على هجر وامتدادها إلى الأحقاف في عصر المقدسي أي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .

يتضح لنا من دراستنا للمحور السياسي والعسكري، أن القرامطة كانوا من أخطر الحركات السياسية التي ظهرت على ساحة البحرين وامتدادها الواسع، وزودنا بأخبارهم أربعة من الجغرافيين هم : الاصطخري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي، وتميز المسعودي بأنه من أكثرهم إلماماً وتفصيلاً بذكر أخبارهم ووقائعهم . ويلاحظ عليه عدم التسلسل والتقديم والتأخير كما في ذكره لهجوم القرامطة على حجاج بيت الله الحرام عام ٣١٧هـ/٩٢٩م، ثم أعاد ذكره ثانية(٣٠)، كما أسهب في ذكر أخبار أبي طاهر سليمان بن الحسن القرمطي(٣١)، ثم ذكر أخبار أبيه أبي سعيد الحسن ابن بهرام الجنابي(٣٢) .

الخلاصة

أوضح البحث أن البحرين كانت دولة عظمى ذات رقعة جغرافية واسعة تمتد من كاظمة شمالاً إلى عمان الشمالي جنوباً، ومن الخليج العربي شرقاً إلى اليمامة غرباً، فهي بذلك موزعة بين أرض الماء وأرض الصحراء .

تشمل دولة البحرين قديماً بهذا الاتساع والامتداد دول شرق الجزيرة العربية كافة، ابتداءً بالكويت وانتهاءً بعمان الشمالي، أي أنها تشمل في الوقت الحاضر : الكويت والاحساء وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة قديماً باسم : أوال .

وعلى هذه الرقعة الجغرافية المترامية الأطراف نشأت حضارة عربية عريقة أصيلة قبل ظهور الإسلام بقرون طويلة، قوامها الوجود العربي على هذه الأرض الطيبة الذي تزامن مع بدء قيام تلك الحضارة، وازداد ذلك الوجود بعد ظهور الإسلام، عندما أصبحت البحرين جزءاً مهماً وحيوياً من أجزاء الدولة العربية الإسلامية بدخول أهلها الإسلام والدفاع عنه، واتخاذها مركزاً من مراكز القيادة العربية للتحرير والفتوح باتجاه العراق وبلاد فارس .

لقد اعتمدنا في بحثنا هذا على خيرة الجغرافيين العرب والمسلمين خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، زودتنا بمعلومات غاية في الأهمية فهي ذات أصالة وقيمة كبيرة جداً، وعلى الرغم من قلتها واقتضابها، لكن كثيراً منها كانت فريدة ونادرة في مجالات ومحاور توزعت البحث : الجغرافية، السكانية البشرية، الاقتصادية، السياسية والعسكرية .

وعلى الرغم من قلة المعلومات واقتضابها، فهنالك بعض الملاحظات التي توصلنا إليها تجاهها، أبرزها أن مادتها اتسمت بالاختلاف والتضارب وعدم الدقة والمبالغات أحياناً، كما أن رواتها عاشوا في أوقات مختلفة وكان المفروض أن ينقل كل منهم صورة

واضحة عن أسماء المدن والقرى والمواقع الأخرى، لكن أكثر الرواة لم يشاهدوا كل الأماكن التي تحدثوا عنها بل نقلوا عن آخرين ربما عاصروهم وربما كانوا قبلهم وذلك هو الأغلب، والملاحظ أن أسماء بعض المواضع المتداولة خلال مرحلة دراستنا للبحرين قد اندثرت وترك استعمالها في الأجيال اللاحقة، فكانت تعرف بأماكن أخرى مجاورة لها، وبسبب ضياع كثير من المعالم والأسماء القديمة، إلى جانب تشابه الأسماء وتكرارها أحياناً، يصبح أمر معرفة مواطن القبائل على وجه الدقة والشمول أمراً صعباً بل أحياناً مستحيلاً.

أ.د. محمد كريم إبراهيم الشمري

الجامعة المستنصرية / كلية التربية

قسم التاريخ – بغداد

الهوامش

١ – المسالك والممالك ص ٩٠ .

٢ – المسعودي . التنبيه والأشراف ص ٣٧٧ – ٣٧٨، والمقتدر هو جعفر بن أحمد المعتضد ويكنى أبا الفضل. وقيل اسمه إسحاق، واشتهر باسم جعفر لشبهه بالمتوكل، وأمه أم ولد رومية اسمها شغب. تولى الخلافة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ذي القعدة عام ٢٩٥هـ . المصدر نفسه ص ٣٧٦، أنظر عن مقتله : المصدر نفسه ص ٣٧٨ .

٣ – التنبيه والأشراف ص ٣٧٨ .

٤ – المصدر نفسه ص ٣٨٠ .

٥ – وهي منطقة رملية منقطعة، ذكر ابن حوقل أن الرمل المعروف بالهبير هو الرمل الذي أصله بالشقوق إلى الأجفر عرضاً، وطوله من وراء جبلي طيىء إلى أن يتصل مشرقاً بالبحر، ويمضي من وراء جبلي طيىء إلى أن يرد الجفار من أرض مصر . صورة الأرض ص ٤٢ .

٦ – المسعودي . التنبيه والأشراف ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

٧ – المصدر نفسه ص ٣٨١ .

٨ – ذكر لغدة الأصفهاني عن الاحساء أنها تبعد عن هجر ميلين، وينزلها أخلاط بني سعد بن زيد مناة، وبها سيدهم وعاملهم إبراهيم بن موسى . بلاد العرب ص ٣٤٤ . ولا نعتقد بوجود علاقة بين هذا العامل وعامل القرامطة من بني الأخيضر صاحب اليمامة، ولعل هنالك تشابهاً في الأسماء بإرجاع نسبه إلى إبراهيم بن موسى .

٩ – المسعودي . التنبيه والأشراف ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

١٠ – المصدر نفسه ص ٣٨٢ – ٣٨٤ .

١١ – المصدر نفسه ص ٣٨٤ .

١٢ – المصدر نفسه ص ٣٨٤ – ٣٨٥ .

١٣ – المصدر نفسه ص ٣٨٥ – ٣٨٧، وسبق أن ذكر المسعودي هذه الجريمة وانقطاع الحج إلى بيت الله الحرام، المصدر نفسه ص ٣٧٨، راجع هامش (٣) .

١٤ – المسعودي . التنبيه والأشراف ص ٣٨٨ .

١٥ – الميل مقياس من مقاييس الطول للمسافات، والفرسخ يتألف من (٣) أميال، والميـل = أربعـة آلاف ذراع، ويساوي : ١٥٨٤ متراً، فـالميل هـو ثلث فرسخ، ويسـاوي أقل مـن كيلومترين . هنتس . المكاييل والأوزان الإسلامية ص ٩٤، إبراهيم . عدن ص ٨٣ .

١٦ – راجع للتفصيل : المسعودي . التنبيه والأشراف ص ٣٨٩ – ٣٩١ .

١٧ – المصدر نفسه ص ٣٩١ .

١٨ – المصدر نفسه ص ٣٩١ – ٣٩٢ .

١٩ – المصدر نفسه ص ٣٩٢ .

٢٠ – المصدر نفسه ص ٣٩٢ – ٣٩٣، ٣٩٤ .

٢١ – المصدر نفسه ص ٣٩٣ – ٣٩٤ .

٢٢ – المصدر نفسه ص ٣٩٤ . عن بُعْد يبرين، راجع : الهمداني . صفة جزيرة العرب ص ٣٦٥ .

٢٣ – المصدر نفسه ص ٣٩٥، عن مقتله عام ٣٠٠هـ . راجع : المصدر نفسه ص ٣٩١ .

٢٤ – صورة الأرض ص ٣٣ .

٢٥ – المصدر نفسه ص ٣٤ – ٣٥ .

٢٦ – المصدر نفسه ص ٣٤ .

٢٧ – المصدر نفسه ص ٣٥ .

٢٨ –أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٩٣ .

٢٩ – المصدر نفسه ص ١٠٤ .

٣٠ – التنبيه والأشراف ص ٣٧٨، وأعاد ذكرها تفصيلاً . المصدر نفسه ص ٣٨٥ – ٣٨٧ . وامتاز المسعودي بالدقة في تحديد الوقائع باليوم والشهر والسنة بشكل واضح جداً .

٣١ – التنبيه والأشراف ص ٣٧٨ – ٣٩٢ حول أخبار ووقائع أبي طاهر سليمان بن حسن بن بهرام الجنابي .

٣٢ – المصدر نفسه ص ٣٩٢ – ٣٩٥ . وكان المفروض أن تقدم أخبار الحسن بن بهرام الجنابي على أخبار ابنه سليمان، وليس العكس كما ذكر المسعودي، لذا التزمنا بذكر أخبار القرامطة كما وردت عنده، لأن التفصيل شمل أخبار سليمان أكثر من أبيه، والهدف هو إبراز أعمال القرامطة وسوء أفعالهم سياسياً وعسكرياً .

المصادر والمراجع

[أ] المصادر الجغرافية الأساسية

(القرنان الثالث والرابع الهجريان)

* الاصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد، (ت : ٣٤١هـ/٩٥٢م) .

١ - المسالك والممالك، تحقيق : الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة، ١٣٨١(هـ/١٩٦١م) .

* البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل، (ت : ٣٢٢هـ/٩٣٤م) .

٢ - صور الأقاليم، مخطوطة مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب / جامعة بغداد رقم ١٤٠٨ - ٣٢٩ .

* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت : ٢٥٥هـ/٨٦٩م) .

٣ - كتاب البلدان، نشره مع مقدمة وتعليقات الدكتور صالح أحمد العلي، مطبعة الحكومة، (بغداد، ١٩٧٠م) .

* ابن جعفر، أبو الفرج قدامة الكاتب البغدادي، (ت : ٣٢٠هـ/٩٣٣م) .

٤ - نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة (مطبوع بعد كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة)، باعتناء : دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٨٩م) .

* الحربي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق، (ت : ٢٨٥هـ/٨٩٨م) .

٥ - كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق : حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (الرياض، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م) .

* ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، (ت : ٣٦٧هـ/٩٧٧م) .

٦ - صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٧٩م) .

• ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، (ت : ٣٠٠هـ/٩١٢م) .

٧ - المسالك والممالك، باعتناء : دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٨٩م) .

• الخوارزمي، أبو جعفر محمد بن موسى، (عاش في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) .

٨ - كتاب صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار، استخرجه من كتاب جغرافيا الذي ألفه بطلميوس القلوذي، باعتناء هانس فون مزيك، مطبعة أدولف هولز هوزن، (فيينا، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) .

• ابن رستة، أبوعلي أحمد بن عمر، (كان حياً عام ٢٩٠هـ/٩٠٣م) .

٩ - الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، باعتناء : دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٩١م) .

• سهراب (عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) .

١٠ - كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة، باعتناء : هانس فون مزيك، مطبعة أدولف هولزهوزن، (فيينا، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م) .

• ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد، (ت: ٣٦٥هـ/٩٧٥م) .

١١ - بغداد مدينة السلام، تحقيق الدكتور صالح أحمد العلي، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الإعلام، (بغداد، ١٩٧٧م) .

١٢ - مختصر كتاب البلدان، الطبعة الأولى، مطبعة بريل، (ليدن، ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م) .

• لغدة الأصفهاني، أبو علي الحسن بن عبد الله، (توفى نحو عام ٣١٠هـ/٩٢٢م) .

١٣ - بلاد العرب، تحقيق : حمد الجاسر والدكتور صالح أحمد العلي، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، (الرياض، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م) .

• المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، (ت : ٣٤٦هـ/٩٥٧م) .

١٤ - التنبيه والأشراف، منشورات مكتبة خياط، (بيروت، ١٩٦٥م) .

١٥ – مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ١، باعتناء : يوسف أسعد داغر، الطبعة السادسة، منشورات دار الأندلس للطباعة والنشر، (بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) .

* **المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري، (ت : ٣٨١هـ/٩٩١م) .**

١٦ – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء : دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٠٦م) .

* **الهمداني، لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، (توفي بعد عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م) .**

١٧ – صفة جزيرة العرب، تحقيق : محمد بن علي الأكوع الحوالي، أشرف على طبعه : حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (الرياض، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) .

ب ـ المصادر القديمة المساعدة

* **الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .**

١٨ – معجم البلدان، مجلد ١ – ٢، منشورات دار الفكر، (بيروت، د.ت) .

* **الرازي، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد، (توفي بعد عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م) .**

١٩ – تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق : الدكتور حسين عبد الله العمري، الطبعة الثالثة، منشورات دار الفكر المعاصر/ بيروت ودار الفكر/ دمشق، (دمشق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) .

* **الشريف الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، (ت : ٥٦٠هـ/١١٦٤م) .**

٢٠ – تحقيق الجزيرة والعراق من روض الفرج وأنس المهج، تحقيق الدكتور إبراهيم شوكت، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد (٢٣)، (بغداد، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

٢١ – تحقيق الجزيرة والعراق من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق الدكتور إبراهيم شوكت، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد (٢٣)، (بغداد، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .

٢٢ - جزيرة العرب من نزهة المشتاق، تحقيق : الدكتور إبراهيم شوكت، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد (٢١)، (بغداد، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

ج - المراجع الحديثة المساعدة

* إبراهيم، د. محمد كريم .

٢٣ - البصرة في نصوص تاريخ مدينة صنعاء للرازي، سلسلة تراث البصرة (١٣)، منشورات المركز الثقافي/ جامعة البصرة، مطبعة دار الحكمة، (البصرة، ١٩٩١م) .

٢٤ - عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٦هـ/١٠٨٣-١٢٢٨م، منشورات مركز دراسات الخليج العربي/ جامعة البصرة، الطبعة الأولى، (البصرة، ١٩٨٥م) .

* الغنيم، د. عبد الله يوسف .

٢٥ - أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة، (الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م) .

* المسري، د. حسين علي .

٢٦ - تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربي ٧٤٩ - ١٢٥٨م، منشورات دار الحداثة، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٩٨٢م) .

* ناجي، د. عبد الجبار .

٢٧ - دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، مطبعة جامعة البصرة، (البصرة، ١٩٨٦م) .

* النجم، عبد الرحمن عبد الكريم .

٢٨ - البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، منشورات دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، (بغداد، ١٩٧٣م) .

* هنتس، فالتر .

٢٩ – المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة الدكتور كامل العسلي، مطبعة القوات المسلحة الأردنية، (عمّان، ١٩٧٠م) .

د ـ الدوريات العربية

* إبراهيم، د. محمد كريم .

٣٠ – الاستقرار العربي في الجانب الشرقي للخليج العربي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة، مجلة الوثيقة، العدد (٣٣)، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، ١٩٩٨م .

* آل ثاني، د. روضة سحيم حمد .

٣١ – دراسة في جوانب من ديانات العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام، مجلة كلية التربية / الجامعة المستنصرية، العدد (٤)، (بغداد، ١٩٩٨م) .

* حبيب علي .

٣٢ – ابن القرية، مجلة المورد، المجلد الخامس، العدد الثالث، (بغداد، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) .

* الحديثي، د. قحطان عبد الستار .

٣٣ – البحرين في المصادر الجغرافية – دراسة في أحوالها الإدارية والاقتصادية، مجلة الخليج العربي / مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، المجلد (١٦)، العدد (٢)، (البصرة، ١٩٨٤م) .

* الحميدان، د. عبد اللطيف ناصر .

٣٤ – العصفوريون وقصة ١٥٠ عاماً غامضة في تاريخ البحرين، مجلة الوثيقة / مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، العدد (٣)، السنة الثانية، (رمضان ١٤٠٣هـ/يوليو ١٩٨٣م) .

* دكسن، د. عبد الأمير عبد .

٣٥ - عمان في كتابات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الـهجري، لجنـة تدويـن تـاريخ قطـر، الجزء الأول، (الدوحة، ١٩٧٦م) .

* زيادة، د. نقولا .

٣٦ - الساحل الشرقي للجزيرة العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميـلادي) ملاحظـات جغرافية واقتصادية، لجنة تدوين تاريخ قطر، الجزء الأول، (الدوحة، ١٩٧٦م) .

* السعدي، د. عباس فاضل .

٣٧ - العرب والنشاط التجاري في المحيط الهندي منذ العصور القديمة إلـى العصـور الحديثـة، مجلة الخليج العربي / مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، المجلد (٢٤)، العدد (١)، (البصرة، ١٩٩٢) .

* اليوزبكي، د. توفيق سلطان .

٣٨ - البحرين علاقاتها الإدارية والسياسية بالخلافة العباسية ١٣٢-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٥م، مجلة الوثيقة / مركز الوثائق التاريخية بدولة البحريـن، العـدد (٣٣)، السنة السـابعة عشـرة، رمضان ١٤١٨هـ/يناير ١٩٩٨م

المناقشة والإقناع[6]، وقد ركز أبو سعيد على كسب تأييد القبائل من الأعراب وذلك لقلة معرفتهم العميقة في أمور الدين إضافة إلى عدم رغبتهم في الخضوع إلى السلطة المركزية فمال إليه عدد من قبائل كلاب وعقيل والخريس[7]، الذين أصبحوا فيما بعد يشكلون القوة الرئيسية في الجيش القرمطي طيلة قرن ونصف مدفوعين بدوافع اقتصادية وهي المكسب المادي من وراء مهاجمة المدن وقوافل الحاج ثم بدوافع الحرية وعدم الخضوع للسلطة . لذا نرى أن هذه القبائل التي أعطت تأييدها للقرامطة وحاربت معهم كثيراً ما تخرج عليهم وتقاتلهم[8]، إذا رأت أن مصلحتها تقتضي ذلك وهذا ما يدفعنا إلى القول أن القبائل التي ساعدت القرامطة لم تكن بالضرورة على عقيدتهم في أغلب الأحيان[9] .

عمل القرامطة بعد إخضاع البحرين لنفوذهم على توسيعه إلى المناطق المجاورة فهاجموا البصرة وجنوب العراق، كما هاجموا عمان وسيطروا على القسم الأكبر منها[10] ثم عملوا في توسيع نفوذهم لضم بلاد الشام وذلك في منتصف القرن الرابع الهجري حيث استطاعوا اكتساحها ومهاجمة مصر إلا أنهم أخفقوا في ذلك[11]، وكانت سنوات العقد السادس من القرن الرابع الهجري تمثل قمة نشاطهم العسكري، ثم أخذ نجمهم في الأفول بعد هذا التاريخ، أما عن كيفية حدوث ذلك فقد اختلفت الآراء حوله بشكل كبير جداً، لذا فإننا سنعمل في الصفحات القادمة على تسليط الأضواء على هذه القضية محاولين التركيز على نقطتين : الأولى هي حل ما أشكل حول اختلاف الآراء عن نهاية القرامطة، والثانية توضيح الصراع السياسي الدولي / المحلي الذي دار للاستحواذ على منطقة البحرين واقتسام أملاك الرجل المريض (القرامطة) وهو يحتضر .

شهد الربع الأخير من القرن الرابع الهجري ضعف دولة القرامطة وانحلالها[12]، فبعد الهزيمة الكبيرة التي حلت بهم في عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م) على أيدي جيش الخلافة في الكوفة وانسحابهم إلى معاقلهم في البحرين[13]، تجرأت عليهم المناطق التي كانت خاضعة لهم، وكانت القبائل العمانية هي السباقة

في هذا المجال، فما إن وصلت أخبار هزيمة القرامطة على أيدي جيش الخلافة عام (٣٧٥هـ/٩٨٥م) حتى باشرت القبائل العمانية وبقيادة الحركة الإباضية بالانقضاض على معاقل القرامطة في شمال عمان وطردهم منها[١٤]، ثم تبعهم في ذلك القبائل العربية القاطنة بين البحرين والبصرة خصوصاً قبائل المنتفق، إذ يشير ابن الأثير إلى أن الأصفر[١٥] زعيم بني المنتفق قام بمهاجمة البحرين عام (٣٧٨هـ/٩٨٨م) وأوقع هزيمة كبيرة بالقرامطة سار على أثرها إلى الاحساء وحاصرهم ثم عدل إلى القطيف واستولى على ممتلكات القرامطة فيها ثم انسحب إلى البصرة[١٦]، وأشارت المصادر أيضاً أن الأصيفر الأعرابي اتفق مع الخلافة على حماية الحاج وخفارتهم من حد الكوفة إلى عمان وإقامة الخطبة العباسية هناك مقابل مبالغ معينة تدفع إليه سنوياً[١٧]، ويبدو أن الأصيفر الأعرابي هو نفسه الأصيفر (أو الأصفر) المنتفقي إذ تأرجحت المصادر في الإشارة إلى هذا اللقب أو ذاك خلال حوادث تعرضه للحاج[١٨].

إن المصادر الآنفة الذكر لم تشر إلى أي نشاط للقرامطة منذ نهاية القرن الرابع الهجري، كما أنها لم تشر إلى نهايتهم، إلا أن ابن خلدون ينفرد بالقول أن حكم القرامطة في البحرين انتهى باستيلاء الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي عليها في عام (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) وأقام الخطبة العباسية فيها، ويضيف قائلاً أن الأصفر هذا اختلف مع بني عقيل في البحرين فأجلاهم عنها إلى العراق ثم طمع في ملكهم فسار إليهم وحاربهم برأس عين التمر واستولى على مناطق نفوذهم وأخضع الجزيرة والموصل ولكنه اصطدم بنصير الدولة إبن مروان[١٩] صاحب ميافارين وديار بكر فهزمه الأخير واعتقله وإن ملكه بقي متوارثا في بنيه بالبحرين[٢٠].

ويبدو أن ما ذهب إليه ابن خلدون من أن الأصفر التغلبي[٢١] قضى على القرامطة في البحرين عام (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) وأقام له دولة هناك، أمر فيه نظر، إذ لم يعرف عن ظهور أسرة في البحرين بهذا الاسم[٢٢]، كما أن القرامطة استمر نفوذهم في البحرين حتى منتصف القرن الخامس الهجري، فعندما زارهم الرحالة ناصر خسرو ذكر أن ملكهم مازال في الاحساء وأنهم في قوة ومنعة[٢٣].

ويعتقد البعض أن نهاية قرامطة البحرين كانت في نهاية القرن الرابع الهجري عندما سيطر الأصفر التغلبي على

الاحساء في عام (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) وأن الأصفر أسس دولة له هناك استمرت حتى قيام الإمارة العيونية[24]، وقد عمل العيونيون على إثارة السلاجقة من أجل الحصول على مساعدتهم للوصول إلى الحكم عن طريق وصف الزعماء المحليين من بني الأصفر بالقرامطة[25]، وقد بنى هؤلاء آراءهم على ما سبقت الإشارة إليه في تاريخ ابن خلدون وهو أن القرامطة تم القضاء عليهم من قبل الأصفر الثعلبي عام (٣٩٨هـ/١٠٠٧م)[26].

ويبدو أن العامل الأول في اختلاف الآراء حول نهاية القرامطة هو أن ابن خلدون لا يعرف شيئاً عن العيونيين، وهذا ما أشكل على ابن لعبون والدكتور الحميدان[27]، فابن خلدون ظن أن هناك إمارة أنشأها الأصفر بن أبي الحسن التغلبي[28] استمرت في البحرين من نهاية القرن الرابع الهجري حتى القرن السابع الهجري حيث تغلب عليها بنو عقيل وهو يشير إلى هذا في أكثر من موضع فيصف إمارة الأصفر تارة ببني أبي الحسن[29]، وتارة أبي الحسين الأصفر بن تغلب[30] ومرة ثالثة بنو الأصفر[31] ثم يتبع ذلك قول ابن سعيد (*سألت أهل البحرين في سنة إحدى وخمسين وستمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية فقالوا الملك فيها لبني عامر بن عقيل*)[32]، إن المشكل الرئيسي هنا هو أن ابن خلدون يشير إلى أن بني عقيل أخذوا البحرين من بني أبي الحسن (وترد أحياناً الحسين) في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وهذا ما دفع البعض إلى الاعتقاد أن بني أبي الحسن أو الحسين إنما هم أبناء محمد بن أبي الحسين العيوني[33] الذي تولى حكم الإمارة العيونية في نهاية القرن السادس الهجري[34].

ويبدو أن إشارات ابن خلدون هذه لا توحي بأن المقصود هو الإمارة العيونية فهو يشير صراحة إلى أن بني عامر أخو المنتفق غلبوا على البحرين (*وملكوها من يدي أبي الحسين الأصفر بن تغلب وكانت هذه المواطن للأزد وبني تميم وعبد القيس فورث هؤلاء فيها أرضهم وديارهم، قال ابن سعيد وملكوا أيضاً أرض اليمامة من بني كلاب وكان ملكهم فيها لعهد الخمسين والستمائة عصفور وبنوه*)[35]، كما يشير ابن خلدون في مكان آخر إلى أن الأصفر التغلبي قضى على قرامطة البحرين وأسس له دولة أورثها بنيه، كما

حارب بني عقيل في الموصل سنة (٤٣٨هـ/١٠٤٦م)، واستمر ملكهم في البحرين إلى أن غلب السلاجقة على بني عقيل في الموصل والجزيرة فتحولوا عنها إلى البحرين وغلبوا على بني ثعلب جماعة الأصفر، ثم تبع ذلك ما رواه عن ابن سعيد بأن بني عامر بن عوف بن عقيل هم أصحاب الاحساء في منتصف القرن السابع الهجري وأن بني ثعلبة هم من جملة رعاياهم[٣٦] .

يمكن أن نستنتج من روايات ابن خلدون هذه عدة أمور منها :

١ - أن الأصفر الثعلبي قضى على سلطة القرامطة في البحرين في نهاية القرن الرابع الهجري .

٢ - أن إمارة بني الأصفر استمرت من نهاية القرن الرابع الهجري حتى سقوطها على أيدي بني عقيل في القرن السابع الهجري .

٣ - أن بني عامر بن عوف بن عقيل تولوا الحكم في البحرين في النصف الأول من القرن السابع الهجري .

٤ - أن الأصفر الثعلبي هذا حارب بني عقيل في الموصل في عام ٤٨٣هـ/١٠٤٦م .

٥ - أن الأصيفر الثعلبي كان يعترض طريق الحاج ويثير لهم المتاعب وكان منها ما قام به سنة (٣٩٤هـ/١٠٠٣م) عندما اعترض طريق حجاج العراق وخراسان فوعظه قارئان كانا في صحبة الحاج فخلى سبيلهم ولم يعترض طريقهم[٣٧] .

٦ - أنه كان يقيم الخطبة العباسية.

٧ - ربما يظن أن ابن خلدون قصد ببني ثعلبة هم العيونيين أنفسهم .

* * *

ويبدو أن معلومات ابن خلدون هذه يسودها الغموض والاضطراب في كثير من جوانبها وذلك :

١) أنه يشير إلى أن سلطة القرامطة في البحرين انتهت في عام (٣٩٨هـ/١٠٠٧م) على يد الأصفر أو الأصفر التغلبي في حين أننا نجد أن ناصر خسرو الذي زار الاحساء في عام (٤٤٢هـ/١٠٥٠م) ومكث فيها شهوراً عديدة ذكر لنا بأن حكام الاحساء بوسعيديون يحكمون على شكل هيئة جماعية تتكون من ستة ملوك وستة وزراء[٣٨]، وهذا النظام كان سائداً عند

القرامطة منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وذكر ناصر خسرو أيضاً أن سلطة حكومة الاحساء تمتد إلى جزيرة أوال[٣٩]، كما أن صاحب المخطوطة التيمورية الذي كتب عن أمراء العيونيين والذي يعتقد أنه كان حياً في عام (٦٣٦هـ/١٢٣٨م)، أي أنه شاهد عيان لنهاية الإمارة العيونية[٤٠]، ذكر أن نهاية القرامطة في الاحساء كانت على يد عبد الله بن علي العيوني في العقد السادس من القرن الخامس الهجري[٤١]، أما ما ذهب إليه البعض من أن الحكومة التي أطاح بها عبد الله بن علي هم من الزعماء المحليين وأن ادعاء عبد الله بن علي أن هؤلاء كانوا قرامطة هو ادعاء باطل الغرض منه الحصول على مساعدة السلاجقة[٤٢]، فقد فاتهم أن ناصر خسرو نفسه كان داعيا اسماعيلياً[٤٣] اعترف بوجود حكومة القرامطة عند زيارته الاحساء كما أشار إلى ثورة القبائل العربية عليهم في عام (٤٤٢هـ/١٠٥٠م)[٤٤] وهذا الوقت كما هو معروف قبل مجيء السلاجقة إلى السلطة في العراق، كما أن صاحب المخطوطة التيمورية كان موظفاً لدى الأتابك أبو بكر السلغري الذي شن الغارات مراراً على الإمارة العيونية حتى تمكن من الإطاحة بها[٤٥]، فهو أيضاً يمثل الجانب المعادي للعيونيين .

٢) أن ما ذهب إليه ابن خلدون من أن إمارة بني الأصفر في البحرين استمرت حتى سقوط دولة بني عقيل في الموصل والجزيرة أمر لا تؤيده المصادر الأخرى، فالأصفر الثعلبي الذي ذكره ابن خلدون ذكرته المصادر الأخرى الأصيفر الأعرابي أو المنتفقي وأبعد ما وصلت إليه حركة الأصيفر هذا هو محاصرته القرامطة في الاحساء وعندما فشل في احتلالها انتهب أموال القرامطة في القطيف ثم انسحب إلى البصرة وذلك في عام (٣٧٨هـ/٩٨٨م)[٤٦]، ولكن النجاح الذي حققه الأصيفر في تحجيم قوة القرامطة وحصرها في الاحساء صاحبه على ما يبدو تكوين إمارة له في مناطق البادية بين نجد والكوفة والبصرة حيث أخضع كافة القبائل العربية لسلطانه، وهذا ما دفعه إلى إرسال وفد إلى الخلافة وتعهده بحماية طريق الحاج والقوافل وإقامة الخطبة العباسية مقابل مبالغ سنوية تدفع إليه[٤٧]، والواقع أن الأصيفر لم يلتزم بتعهده هذا للخلافة بل استمر في نشاطه في منطقة البادية وتعرضه للحاج حتى وفاته عام (٤١٠هـ/١٠١٩م)[٤٨]، ولا يمنع من أن إمارة للأصفر ربما قامت في منطقة البادية

واستمرت حتى سقوط دولة بني عقيل في الموصل والجزيرة في عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥ - ١٠٩٦م)[٣٩] إذ رجع عدد منهم إلى منطقة البادية حيث يوجد بنو عمهم المنتفق بين البصرة والكوفة والبحرين مما عزز موقفهم وزاد من نشاطهم بعد هذا التاريخ .

٣) أما بخصوص بني الأصفر بن تغلب ودولتهم في البحرين فهو أمر لا تؤيده المصادر، إذ لا نعرف ظهور أسرة في البحرين بهذا الاسم، أما الأصفر التغلبي الذي ظهر برأس العين عام(٤٣٩هـ/١٠٤٧م) وادعى أنه مرسل، فقد تم إنهاء حركته هناك وليس له أي صلة بالبحرين[٤٠] .

٤) يبدو لنا أن الأصيفر الأعرابي أو المنتفقي الذي ورد في المصادر هو نفسه الأصفر التغلبي الذي ورد عند ابن خلدون، ولكن ابن خلدون خلط بينه وبين الأصفر التغلبي الذي ظهر برأس العين، وذلك بدليل حادثة تعرضه للحاج (أي الأصيفر الأعرابي أو المنتفقي) عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م) التي وردت متشابهة عند كل من ابن خلدون والمصادر الأخرى[٤١] .

٥) أما ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من قول ابن خلدون أن نهاية بني الأصفر كانت ببني عقيل وأن الأصفر من بني ثعلبة (كما يدعي ابن خلدون) فهو إذن من بني ثعلبة بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس، وعلى هذا فهو جد العيونيين الذين ينتسبون أيضاً إلى الحارث بن أنمار من عبد القيس[٤٢]، إن هذا الاحتمال مردود من عدة وجوه منها أن العيونيين مرّيون لا ثعلبيون ولا تغلبيون وذلك بشهادة الحسين بن ثابت[٤٣] وابن المقرب العيوني وشارح الديوان[٤٤] والأصبهاني، فيذكر الأخير أنه كان في البصرة سنة (٥٥٧هـ/١١٦١م) والتقى بأحد شعراء عبد القيس المدعو الحسين بن ثابت بعد أن نقم عليه أمير الاحساء والقطيف أبو سنان محمد بن الفضل (المرّي)[٤٥]، كما أن مؤرخي الإمارة العيونية ذكروا أنها بدأت بإمارة عبد الله بن علي ولم تكن استمراراً لإمارة الأصفر أو غيره، إضافة إلى أن الأصغر (أو الأصفر باختلاف النسخ) كان أعرابياً من أهل البادية بإجماع المؤرخين[٤٦]، والعيونيون من عبد القيس أهل حواضر ولم يرد عنهم أنهم سكنة البوادي وذلك بشهادة شاعرهم ابن المقرب وشارح الديوان[٤٧]، ثم أغلب المؤرخين عدا

ابن خلدون ذكروا أن الأصغر (أو الأصيغر أو الأصفر) منتفقي أي أنه من المنتفق بن عقيل بن عامر بن صعصعه[٥٨]، وقد تقدم ما يوضح التباس الأمر على ابن خلدون .

٦) وأخيراً فإن ما يعزز ما ذهبنا إليه من أن إمارة للأصيغر المنتفقي (من بني عقيل) ربما قامت في منطقة البادية بين البحرين والكوفة والبصرة هو أن القرامطة في الاحساء كانوا يدفعون لهؤلاء الإتاوة حتى منتصف القرن الخامس الهجري، بدليل أن عبد الله بن علي عندما قضى على القرامطة قطع تلك الإتاوة التي كان يدفعها القرامطة لبني عقيل مما أدى إلى ثورتهم الكبيرة ضده[٥٩] .

عندما جاء منتصف القرن الخامس الهجري كان الجو السياسي العام في منطقة البحرين يتمثل بظهور قوتين كبيرتين حاولت كل منهما استخدام نفوذها للسيطرة على المنطقة، وهما الخلافة العباسية والفاطميون، فيما تراجعت القوة الثالثة محاولة الاحتفاظ بأقل ما يمكن من النفوذ في سبيل البقاء، وتتمثل القوة الثالثة بالقرامطة الذين حاولوا التقرب إلى الأهالي عن طريق تقديم الخدمات العامة وبذل الأموال[٦٠] من أجل كسب التأييد، ولكنها بالرغم من هذه الجهود فشلت في مواجهة المد الكبير الذي تمثل في ثورة القبائل العربية المدعوم من قبل الخلافة العباسية .

تتمثل الجهة الثانية التي حاولت السيطرة على المنطقة في هذا الوقت بالفاطميين، فقد أدرك الفاطميون مدى الخطر الذي يواجه مصالحهم في الخليج والجزيرة العربية بسبب انحسار قوة القرامطة، فأرسلوا دعاتهم إلى المنطقة منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري[٦١]، وقد أوكلوا مهمة الإشراف على الدعوة هناك إلى علي بن محمد الصليحي[٦٢] حاكم اليمن، ويستفاد من خطاب أرسله علي الصليحي إلى المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/١٠٣٥ - ١٠٩٤م) بأنه حارب رجلاً من هجر اسمه ابن عراف وهزمه وقد شكر المستنصر الفاطمي علي الصليحي على هذا العمل وعين داعية في البحرين اسمه عبد الله بن إبراهيم بدل الذي توفى وهو أسعد بن عبد الله[٦٣]، كما تشير السجلات المستنصرية إلى داع آخر في الاحساء وهو عبد الله بن علي العلوي وتشيد بجهوده التي بذلها

من أجل الدعوة هناك[12]، ويبدو أن رد الفعل الفاطمي تجاه أحداث البحرين لم يكن بالمستوى الموازي لرد فعل الخلافة العباسية فيها، وهذا ما أدى بالتالي إلى انحسار النفوذ الفاطمي من المنطقة إذ لم نعد نسمع له ذكراً في السجلات المستنصرية بعد منتصف القرن الخامس الهجري على عكس عمان التي استمر نشاط الدعاة فيها إلى ما بعد هذا التاريخ على الرغم من أنهم لم يحققوا فيها أيضا أي مكاسب سياسية[13] .

أما الخلافة العباسية فقد عملت على كسب ود القبائل العربية وساعدتها من أجل مد نفوذها على المنطقة وذلك لما لها من أهمية كبيرة لوقوعها على طريق حاج العراق من جهة وخطوط التجارة البحرية ومصائد اللؤلؤ الذي يعد ثروة يحسب حسابها آنذاك من جهة أخرى، وكانت الصفقة الأولى التي عقدتها الخلافة مع الأصيفر المنتفقي لضمان سلامة قوافل الحاج والمدن المتاخمة للبادية من هجمات الأعراب[14]، إلا أن الأصفر لم يف بالتزاماته تجاه الخلافة فاستمر بالتعرض للحاج حتى وفاته عام (٤١٠هـ/١٠١٩م)[15]، مما حدا بالخلافة إلى التفتيش عن حليف جديد في المنطقة، ويبدو أن قبائل عبد القيس كانت الحليف المناسب الذي يمكن الاعتماد عليه إذ كانوا على مذهب الخلافة ويشكلون نسبة مهمة من سكان المراكز الحضرية في البحرين[16] .

وفي عام (٤٤٣هـ/١٠٥١م) عندما زار ناصر خسرو الاحساء وجدها محاصرة من قبل أمير عربي منذ سنة، ويستفاد من إشاراته أن هذا الأمير الذي كان يحاصر القرامطة لم يكن من أهل البادية[17]، مما يدفع إلى القول أن هذا الأمير ربما كان أحد زعماء عبد القيس، إذ نرى أن رجالات عبد القيس تزعمت الحركات ضد القرامطة في ثلاثة مراكز مهمة من إقليم البحرين وهي جزيرة أوال والقطيف والاحساء، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أن جميع عبد القيس توحدوا ضد القرامطة، فقد وقف قسم منهم إلى جانب القرامطة ضد حركة أبي البهلول في جزيرة أوال - كما سنرى - كما أن جميع من ناهضوا القرامطة من عبد القيس لم يكونوا متحدي الكلمة إذ جمعهم اسم عبد القيس وفرقتهم المصالح .

إن أول حركة اتخذت طابعاً دينياً وسياسياً ضد القرامطة هي حركة أبي

البهلول محمد بن يوسف الزجاج وهو أحد زعماء عبد القيس في جزيرة أوال[٧٠] وقد كان ضامناً لمكوسها فطمع بالاستيلاء على الجزيرة لما رأى من ضعف القرامطة وانحلال أمرهم[٧١]، وكان له أخ خطيب مشهور بالتدين فاتفق مع أخيه أن يبدل القرامطة في الجزيرة وينضم إلى الخلافة في بغداد، فعملوا الحيلة للوصول إلى غايتهم، فأرسلوا إلى ناظر القرامطة وممثلهم في جزيرة أوال مبلغ ثلاثة آلاف دينار على أن يمكنهم من بناء جامع يجتمع إليه من أحب من أهل البلد والمسافرين لأن البلد خال من جامع تصلي فيه الجمعة، كما أن قيامها يعني مجيء المزيد من التجار والمسافرين إلى الجزيرة مما يضاعف لهم الربح، عند ذلك رفع والي القرامطة وممثلهم المدعو جعفر بن أبي محمد بن عرهم هذا الطلب إلى القرامطة في الاحساء فجاء الرد بالموافقة[٧٢]، فلما تم بناء الجامع صعد أبو الوليد الزجاج المنبر وخطب للخليفة القائم بأمر الله[٧٣]، وقد استنكر أنصار القرامطة هذا الأمر على ابن الزجاج وطالبوا أن تمنع الخطبة والصلاة في الجامع وأرسل إلى القرامطة للمشاورة واتخاذ ما يلزم فأجابوا (*ألا يعترضوا في مذهبهم ولا يمنعوا من خطبهم*)[٧٤]، إن موافقة القرامطة على أعمال ابن الزجاج دليل أكيد على مدى الضعف الذي وصلوا إليه ومحاولتهم عدم إثارة الأهالي ضدهم، وقد أدرك ابن الزجاج ذلك، لذا لم يبال بكل الأصوات التي حاولت الوقوف ضده، فعندما قامت حركة البساسيري في بغداد في ذي القعدة عام (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) وخطب للمستنصر الفاطمي على منابر بغداد اعترض أنصار القرامطة في الجزيرة على أبي الوليد الزجاج ومنعوه من الخطبة وقالوا له (*أن الذي كنت تخطب له قد بطل وصارت الخطبة بالعراق للمستنصر بالله صاحب مصر ويجب أن تكون الخطبة له دون من بطل حكمه*)[٧٥]، إلا أن أبا البهلول رفض طلبهم وأرسل إلى القرامطة مجموعة من الأموال مقابل عدم التعرض له فأجابوه بالرضى، وبذلك ارتفع شأن أبي البهلول في الجزيرة وذاع صيته وقوي أمره، ثم حاول إظهار تقربه إلى أهل البلد فاتفق معهم بتقسيط الأموال التي تدفع إلى القرامطة فإذا رفض طلبهم امتنعوا عن دفع الأموال، فذهب إلى ناظر القرامطة ابن عرهم وسأله التخفيف عن أهل البلد بتقسيط الأموال عليهم، ولما رفض طلبهم اضطربوا عليه وامتنعوا عن دفع الأموال،

وعند ذلك أرسل ابن عرهم إلى القرامطة يستشيرهم بالأمر حيث لم تكن له طاقة بأبي البهلول، عندئذ نفد صبر القرامطة فقرروا عزل ابن عرهم عن الجزيرة وتولية شخص آخر وأمروه بالقبض على أبي البهلول ومصادرة أمواله[٧٦]، إلا أن أبا البهلول جمع أهله وأقاربه واستمال شخصاً آخر يدعى ابن أبي العريان وهو أيضاً أحد رجالات عبد القيس في جزيرة أوال[٧٧] وطلبا من أصحاب البساتين والضياع عدم تسليم الأموال إلا بإجابة مطالبهم. فاجتمع معهم نحو ثلاثين ألف رجل، وعندما عرف والي القرامطة الجديد ذلك قرر القبض على أبي البهلول وابن أبي العريان إلا أنهما عاجلاه بالرجال والقتال فهرب إلى السفن في البحر بعد أن قتل عدد من أصحابه[٧٨]، وبذلك تمكن أبو البهلول من الاستيلاء على الجزيرة، ولما لم يكن القرامطة في وضع يمكنهم من القضاء عليه لذلك قرروا طلب المساعدة من عمان. فأرسل وزير القرامطة أبو عبد الله بن سنبر بعض أولاده إلى عمان لطلب المساعدة من المال والسلاح[٧٩]، ولا نعرف بالضبط الجهة التي ساعدت القرامطة من عمان، إذ أن عمان في هذا الوقت كانت تعيش حالة من الانقسام

أيام إمامها حفص بن راشد (٤٤٥ - ٤٥٣هـ/١٠٥٣ - ١٠٦١م) كما أن الغزو السلجوقي لها لم يقع بعد[٨٠]، لذا نرجح أن المساعدة ربما جاءت من بعض القبائل الساكنة في شمال عمان التي كانت تحت النفوذ القرمطي سابقاً وخصوصاً بني الحدان من الأزد الذين وصفهم ابن المقرب بأنهم قد طمعوا في الملك مع القرامطة[٨١]، كما كانت صلتهم بالقرامطة قديمة ترجع إلى نهاية القرن الثالث الهجري[٨٢]، والمساعدة تتكون من خمسة آلاف دينار وثلاثة آلاف رمح ولكن أبا البهلول وابن أبي العريان كمنوا لهم في طريق العودة فاستولوا على المال والسلاح وقتلوا الرجال[٨٣]، وقد عز على الوزير القرمطي ابن سنبر وقوع هذا الحادث فعمل الحيلة للتفريق بين ابن أبي العريان وأبي البهلول، فكاتب الأول سراً ووعده بأن يوليه الجزيرة إن ساعده على أبي البهلول، فوافق ابن أبي العريان على هذا العرض على أن تأتي العساكر القرمطية إلى جزيرة أوال ويقوم هو بقتل أبي البهلول ثم ينحاز إلى القرامطة بعد إقناع أصحابه أن لا سبيل إلى مقاومة القرامطة[٨٤]، ومن جانب آخر عمل القرامطة على استمالة عدد كبير من قبائل بني عامر وذلك عن طريق بذل المال

لهم، ولا ننسى أن بني عامر كانوا الحلفاء المخلصين للقرامطة منذ قيام دولتهم في البحرين حتى نهايتها(٨٥)، كما تمكن القرامطة من استمالة شخص آخر من عبد القيس هو بشر بن مفلح الذي وصفته المصادر بأنه أحد العيونيين(٨٦)، حيث وعدوه هو الآخر بولاية جزيرة أوال إذا تم استرجاعها من أبي البهلول(٨٧)، وهكذا فإن القرامطة قاموا باستنفار قواتهم كافة وجمعوا أنصارهم من أجل استرجاع الجزيرة لأنهم أدركوا أن خروجها من أيديهم يعني حرمانهم من مورد اقتصادي مهم كان يأتيهم من الضرائب المفروضة على التجارة والغوص على اللؤلؤ، ولهذا نراهم يبذلون كل ما في وسعهم لاسترجاع جزيرة أوال .

وعندما عرف أبو البهلول بالمؤامرة التي حيكت ضده، قرر الابتداء بابن أبي العريان فأرسل من قتله سراً وعندما اتهموه بقتله سارع إلى إنكار ذلك وأرضى أقاربه بالمال فسكتوا عنه، ثم أخذ يعمل على تنظيم جيشه في كل من البر والبحر، أما القرامطة فقد اتجهوا إلى الجزيرة بقيادة الوزير القرمطي أبو عبد الله بن سنبر ولديهم مائة وثمانون قطعة حربية مشحونة بالرجال من بني عامر وخمسمائة من الخيل محملة في السفن، فلما نزلوا إلى الجزيرة لم يتوقعوا حرباً إذ لم يعلموا باغتيال ابن أبي العريان، وهكذا فوجئوا بهجوم صاعق قام به أبو البهلول على جيش القرامطة وحلفائهم في موضع يدعى كسكوس(٨٨) وتمكن من إيقاع الهزيمة بالجيش القرمطي وحلفائه وقتل وأسر عدداً كبيراً منهم وبذلك تم لأبي البهلول الاستقلال بالجزيرة إذ لم يتمكن القرامطة بعدها من المعاودة إليها وانسحبوا إلى الاحساء فيما عمل أبو البهلول في المسارعة بمكاتبة الخلافة لتساعد على تقويض ما تبقى من حكم القرامطة في البحرين وإقامة الخطبة للخلافة فيها(٨٩) .

إن النجاح الذي حققه أبو البهلول في جزيرة أوال دفع زعامات طامعة أخرى من عبد القيس إلى التحرك في بقية مناطق البحرين لتقويض وإنهاء نفوذ القرامطة بصورة كاملة، فكانت القطيف المحطة الثانية التي شهدت ثورة على الحكم القرمطي فيها، لقد ثار يحيى بن عياش الجذمي(٩٠) وتمكن من إخراج القرامطة من القطيف والاستيلاء عليها ولم يتمكن القرامطة من التصدي له فاضطروا إلى

التقهقر إلى الاحساء والاحتماء داخل أسوارها فتحرك إليها زعيم ثالث من عبد القيس وهو عبد الله بن علي العيوني، نسبة إلى العيون وهي محلة تقع شمال الاحساء[٩١]، حيث طمع هو الآخر في أخذ حصته من القرامطة والاستيلاء على البلاد، ولا يعرف تاريخ خروج كل من ابن عياش وعبد الله بن علي على القرامطة إلا أننا نرجح أن ذلك كان في ستينات القرن الخامس الهجري، إذ أجمعت المصادر أن استيلاء عبد الله بن علي على الاحساء كان في عام (٤٦٦هـ/١٠٧٦م) وأن حربه مع القرامطة دامت سبع سنوات[٩٢].

مما مر يتبين أن البحرين في بداية عقد الستينات من القرن الخامس الهجري كانت موزعة إلى ثلاثة مراكز هي جزيرة أوال تحت زعامة أبي البهلول، والقطيف بزعامة يحيى بن العياش، والاحساء بيد القرامطة ومحاصرة من قبل عبد الله بن علي، أن هذه الزعامات الثلاث كلها ترجع في أصولها إلى عبد القيس ولكنها لم تتفق فيما بينها منذ البداية فكل منهم شق طريقه بمفرده وحاول الاستيلاء على بلاد البحرين كافة، وهكذا دخل الثلاثة في حلبة الصراع والعدو الأكبر (القرامطة) ما يزال متقوقعاً داخل حصون مدينة الاحساء، وقد وجه الثلاثة أنظارهم إلى بغداد التي أخذت تراقب الموقف باهتمام كبير لترى من سيفوز كي تقدم له المساعدة الضرورية التي تعيد سيادتها على المنطقة، وحتى لا نستبق الأحداث لنتابع خطواتها .

عندما استولى يحيى بن العياش على القطيف طمع في السيطرة على بلاد البحرين كافة، وحاول الابتداء بجزيرة أوال ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه زكريا حكم البلاد مكانه وقد حقق خطة أبيه إذ جهز جيشاً عبر به إلى جزيرة أوال وتمكن من إلحاق الهزيمة بأبي البهلول وقتله وضم الجزيرة إلى حكمه[٩٣]، وبذلك علا نجم زكريا بن يحيى بن العياش وزاد صيته فرغبت الخلافة في مراسلته، ويبدو أن أول اتصال حدث بين الطرفين كان في البصرة بين وفد ابن عياش ووفد يمثل الخلافة، إذ عرض أصحاب ابن عياش على وفد الخلافة تقديم مساعدة تقدر بمائتي فارس إلى زكريا صاحب القطيف كي يتمكن بواسطتها من القضاء على القرامطة في الاحساء وتقام الخطبة

العباسية هناك، وتعهد الوفد بدفع مبالغ سنوية إلى الخلافة والسلطنة في بغداد، إلا أن وفد بغداد برئاسة ابن الزراد وهو أحد خدمة حجاب السلطان ملكشاه السلجوقي الذي تردد بين القطيف وبغداد أطمع السلطان ووزيره نظام الملك بضرورة السيطرة على تلك النواحي، واتفق مع أمراء البدو القاطنين على الطريق بين العراق والبحرين بإعطائهم حصة من الغنائم متجاهلاً زكريا بن يحيى بن العياش حاكم القطيف[٨٩]، وهكذا تجمع الجيش في البصرة للخروج باتجاه البحرين بقيادة أحد حجاب السلطان المدعو كجلينا فلما وصلوا إلى موضع جبل سنام[٩٠] كانوا يتوقعون انحياز العرب في البادية إليهم، إلا أن أحد بطون العرب من قيس وقبات[٩١] نزلوا على طريقهم طمعاً فيهم وجرت مناوشات تغلب فيها كجلينا ولكنه لم يستطع ملاحقتهم فبدأ يلاطفهم وهم يسايرونه ويبتاعون التمر والذرة بالثمن الذي يريدونه فلما صار على مقربة من القطيف وراسلوا ابن عياش وجدوا الأمر بخلاف ما جاءوا عليه فعلموا أن ابن الزراد قد كذبهم،

وكان جواب ابن عياش إليهم أن الذي استقر بينه وبين وفدهم هو أن ينفذ السلطان مائتي فارس يكونون تحت زعامة ابن عياش وبرأيه، أما طبل وأعلام وقيادة وسلطان فهذا ما لا يمكن الموافقة عليه، وقد أبدى ابن عياش تحفظه من الاجتماع مع قائد الجيش كجلينا إذ ذكره بغدره بقبائل العرب من قيس وقبات ثم عرض عليه أن يرجع إلى البصرة ويسلم القوات التي معه إليه يسير بها إلى الاحساء ليستولي عليها ويقيم الخطبة العباسية ويرسل الأموال السنوية إلى بغداد فأنت (كالسبع في الأجمة وحولها الأعداء لا يمكنك المقام ولا العود)[٩٢]، ثم جرت بينهم مراسلات لم تؤد إلى نتيجة فوقعت الحرب بينهما، وفي اليوم الثالث منها عمل ابن عياش على استمالة قبائل قيس وقبات حيث أخذوا جمالهم وأحمالهم وما عليها من متاع وساروا فيها في البرية، فلما علم كجلينا بذلك انسحب من المعركة وسار وراء قبائل قيس وقبات فنُهب معسكره ولم يظفر بالعرب، وقد أوشك هو وجنده على الهلاك لولا مجيء شبانة أو الشبانات[٩٣] مع عربه وقدموا لهم الغذاء والجمال بالثمن الذي يريدونه

حتى أوصلوهم إلى البصرة فخلع كجلينا على شبانة وأصحابه الذي كان من المكن أن يهلكوا في البرية لولاه[٩٩].

إن الهزيمة التي حلت بجيش الخلافة في القطيف جعلت أنظارها تتجه إلى الشخص الآخر من عبد القيس وهو عبد الله بن علي العيوني الذي كان ما يزال يحاصر القرامطة في الأحساء ويضيق عليهم الخناق، وكان عبد الله بن علي قد كتب في عام (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) إلى كل من الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ملكشاه السلجوقي ووزيره نظام الملك يدعوهم فيها إلى مساعدته للقضاء على القرامطة وإقامة الخطبة العباسية في البحرين، وعند ذاك قررت الخلافة إرسال جيش إلى هناك للانتقام أولاً من ابن عياش الذي حارب الجيش العباسي ثم لمساعدة عبد الله بن علي في القضاء على القرامطة، وقد أسندت قيادة الجيش إلى أكسك سلار[١٠٠] وكان عدده سبعة آلاف فارس توجه به نحو القطيف أولاً حيث تمكن من احتلالها وهرب ابن عياش إلى جزيرة أوال، ثم توجه نحو الاحساء حيث كان عبد الله بن علي يحاصرها واشترك معه في عمليات مطاردة الأعراب من بني عامر الذين كانوا يساندون القرامطة وأحكم الحصار عليهم فأرسلوا إليه يطلبون الصلح على مال يدفعونه إليه شرط أن يمهلهم شهراً يتمكنون خلاله من جمع المال مقابل أخذ ثلاثة عشر رجلاً منهم رهينة، فتم الصلح وأخذ الرهائن، ولكن القرامطة عملوا على جمع الأطعمة والأسلحة وإدخالها إلى أسوارهم ليتقووا بها ثم نقضوا الصلح فقتل الرهائن وشدد الحصار عليهم ولكن إطالة أمد الحصار جعل الجند يتضجرون من ذلك، فشاور قائد الجيش العباسي عبد الله بن علي بالأمر وعرض عليه أن يجعل معه من الجند مائتي فارس مع أخيه البقوش وأن يرجع هو إلى بغداد، ويبدو أن رجوعه كان عبارة عن عملية استبدال الجند، إذ أكد للخلافة في بغداد ضرورة الرجوع لاستخلاص البلاد من القرامطة[١٠١]، وكان الخليفة آنذاك المقتدي بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧هـ/١٠٧٤ - ١٠٩٤م) فأخذ التوقيع منه وقد جاء فيه: (*الحمد لله الموحد بالجمال والبهاء المتفرد بالقدرة والكبرياء المنجي من غياهب الشرك برسالة محمد صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق محتداً*

وأصلاً، وأشرفهم درجة ومحلاً، النبي العربي سيد الأنبياء وخاتم الأصفياء أرسله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، الحمد لله الذي عضد الإسلام بالخلفاء الراشدين المهديين الذين أزال الله بهم البدع والمنكر، وجعل الاقتداء بهم سبيل النجاة، يوم الفزع الأكبر وقرن طاعتهم بطاعته وطاعة رسوله فقال عز من قائل: **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**، فصارت طاعة أمير المؤمنين لازمة الوجوب، وأضحت قلوب أهل الزيغ منه دائمة الوجوب، وغدت راياته حيث يممت منصورة ظاهرة، وفتوحه متتابعة متقاطرة، فالله يمتع أمير المؤمنين بالنعمة فيه ولا يخلي دولته من حميد مساعيه، وليعلم بك سلار أن الخليفة وقف على ما كان له من جميل الخدمة، وامتثال الأمر في جهاد المبطلين القرامطة الملحدين، فليستمر في استئصال ذكرهم، وتطهير تلك البقعة من دنس كفرهم، قال تعالى: **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبكم**(١٠٢)، وليعتمد احماد السيرة فيما فتحه الله عليه من تلك الأعمال وليقدم صالحاً ليوم تجد فيه **كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد**)(١٠٣). ثم انحدر أكسك سلار إلى واسط وهناك وافاه رسول أخيه البقوش فذكر أن أعداداً كبيرة من بني عامر جاءت مدداً إلى القرامطة فكانت معركة حامية في موقع يسمى الرحلين(١٠٤) حيث كانت الهزيمة على القرامطة وأتباعهم من بني عامر وقد ملك عبد الله بن علي البلد وأعطاهم الأمان وذلك في سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)(١٠٥)، وبذلك أسدل الستار نهائياً على دولة قرامطة البحرين بعد حكم دام أكثر من قرن ونصف القرن .

إن نهاية قرامطة البحرين لا تعني نهاية الصراع فيها، إذ تحول الصراع بين زعماء عبد القيس أنفسهم، فقد ظل زكريا بن يحيى بن العياش في جزيرة أوال يتحين الفرص للقضاء على عبد الله بن علي، وما إن انسحب الجيش العباسي إلى البصرة حتى أرسل إبن عياش سرية

للإغارة على الاحساء فاصطدمت مع جيش عبد الله بن علي في قرية تسمى ناظرة(١٠٦) فوقعت الهزيمة على جيش ابن عياش واضطر إلى الانسحاب إلى القطيف ولكنه لم يتمكن من الصمود فيها فعبر إلى جزيرة أوال وتبعه الفضل بن عبد الله بن علي واشتبك مع جيش ابن عياش في معركة قتل فيها وزيره المعروف بالعكروت وكان يوصف بالشجاعة والدهاء، فلما رأى ابن عياش مقتل وزيره هرب إلى العقير(١٠٧) وقام بجمع الأعراب حوله وزحف بهم نحو القطيف فالتقى بعبد الله بن علي الذي أوقع به وقتله وبذلك انتهت حركة ابن عياش وخضعت كل من جزيرة أوال والقطيف والاحساء لحكم عبد الله بن علي العيوني(١٠٨).

الدكتور جاسم ياسين الدرويش
كلية التربية - جامعة البصرة - العراق

الهوامش

١ – البكري، جزيرة العرب، كتاب المسالك والممالك . (تحقيق عبد الله يوسف الغنيم . الكويت ١٩٧٣) ط ٣ . ياقوت الحموي، معجم البلدان (طهران ١٩٦٥) ٥٠٦/١ .

٢ – عبد الرحمن العاني، البحرين في صدر الإسلام (بغداد ١٩٧٣م) ص ١٢٧ – ١٣٧ .

٣ – ابن النديم، الفهرست (بيروت ١٩٧٨م) ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

٤ – ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة (تحقيق سهيل زكار) ص ١٤ .

٥ – ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٦٦) ٤٩٤/٧ .

٦ – أبو الفضائل اليماني، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (تحقيق محمد زاهر الكوثري – القاهرة ١٣٥٧هـ) ص ٢ .

٧ – المسعودي . التنبيه والإشراف (القاهرة ١٣٥٧هـ) ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

٨ – ابن خلدون، تاريخ (بيروت ١٩٦٧م) ٤/٥ ١٩ .

٩ – ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة، ص ١٥ وما بعدها .

١٠ – بندلي جوزي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (بيروت بدون تاريخ) ص ١٨٨ .

١١ – أنظر عن حروب القرامطة في بلاد الشام ومصر ثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة ص ١٠٢ – ١٠٣ . ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٦١٤/٨ – ٦١٦، ٦٣٨ – ٦٤١ .

١٢ – يشير ابن النديم إلى أن القرامطة أخذ نجمهم يأفل وحالتهم تضعف منذ ستينات القرن الرابع الهجري – الفهرست، ص ٨ – ٢٦ .

١٣ – الروذراوري، ذيل تجارب الأمم (مصر ١٩١٦) ص ١٠٩ – ١١٠ . ابن الجوزي، المنتظم (حيدراباد ١٣٥٨هـ) ١٢٦/٧ . سبط ابن الجوزي . مرآة الزمان (تحقيق جنان محمد، بغداد ١٩٩٠م) ص ٢٢٨ .

١٤ – ابن خلدون، تاريخ، ١٩٨/٤ – ١٩٩ .

Miles, The Countries and Tribes of the (Arabian) Gulf, London, 1966, p. 121.

١٥ – يرد أيضاً الأصيغر .

١٦ – ابن الأثير الكامل في التاريخ ٥٨/٩ .

١٧ – ابن الجوزي المنتظم ١٧٠/٧ . ابن الأثير، الكامل، ١٠٥/٩ . سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٢٤٨ .

١٨ – أنظر على سبيل المقارنة : ابن الجوزي، المنتظم، ١٧٠/٧، ١٧٤، ٢٢٧، ٢٢٩ . ابن الأثير، الكامل، ٥٨/٩، ١٠٥، ٢٢٤، ٣١٣ . ابن تغري، بردى النجوم الزاهرة (ط ١ مصر ١٩٣٢م) ٢١٠/٤، ٢٢٠ .

١٩ – نصير الدولة بن مروان هو أحد ولاة الخلافة – على ميافارين وديار بكر من سنة ٤٠١ إلى سنة ٤٥٣هـ . أنظر عنه ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢٢/٧ – ٢٢٣ . ابن خلكان، وفيات الأعيان (تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣) ١٧٧/١ – ١٧٨ .

٢٠ – ابن خلدون، تاريخ، ١٩٤/٤ – ١٩٥ .

٢١ – يرد أيضاً الثعلبي .

٢٢ – الحميدان، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية (مجلة كلية الآداب – جامعة البصرة – العدد١٥) سنة ١٩٧٩، ص ١٢٨ .

٢٣ – ناصر خسرو، سفر نامة (ترجمة يحيي الخشاب القاهرة ١٩٤٥) ص ١٤٣ .

٢٤ – المسلم، ساحل الذهب الأسود (بيروت ١٩٦٢ ص ١٥٦ . الظاهري، أنساب الأسر الحاكمة في الاحساء (الرياض ١٩٨٤) ص ١٤٠ .

٢٥ – المسلم، ساحل الذهب الأسود ص ١٥٦ .

٢٦ – ابن خلدون، تاريخ ١٩٤/٤ .

٢٧ – ابن لعبون، تاريخ ابن لعبون (أم القرى ١٣٥٧هـ) ص ٢٧ . الحميدان، إمارة العصفوريين ص ١٢٨ ، أنظر أيضاً شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (القاهرة ١٩٨٠) ٣٣/٥ .

٢٨ – وهو هنا يخلط بين الأصفر المنتفقي الأعرابي الذي حارب القرامطة وبين الأصفر الثعلبي الذي ظهر بمنطقة الجزيرة وحارب الروم عام ٤٣٩هـ وظنهما واحداً .

٢٩ – ابن خلدون، تاريخ، ٦٤٨/٢ .

٣٠ – نفس المصدر، ٢٥/٦ .

٣١ – نفس المصدر، ١٤٢/٦ .

٣٢ – نفس المصدر، ١٩٦/٤ .

٣٣ – أنظر عن محمد بن أبي الحسين العيوني الاحسائي، تحفة المستفيد (أشرف على طبعه حمد الجاسر ط ٩ ١٣٧٩هـ) ص ١٠٤ – ١٠٨ .

٣٤ – ابن لعبون، تاريخ، ص ٢٧ . الحميدان، إمارة العصفوريين، ص ١٢٨ . ويذهب الدكتور الحميدان إلى أبعد من ذلك فيشير إلى أنه من المحتمل (أن بني الحسن ربما قصد بهم أولاد أبي الحسن بن مسمار زعيم عبد القيس الذي انتزع منه القرامطة القطيف في نهاية القرن الثالث الهجري .

٣٥ – ابن خلدون، تاريخ ٢٤/٦ – ٢٥ .

٣٦ – نفس المصدر، ١٩٥/٤ – ١٩٦ .

٣٧ – نفس المصدر، ٢١٦/٤ .

٣٨ – ناصر خسرو، سفرنامه ٢ ص ١٤٣ . أنظر أيضاً: Rentz, Al – Bahrain E.I.Z., p. 942 .

٣٩ – ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٤ .

٤٠ – الحميدان، إمارة العصفوريين، ص ٨٦ .

٤١ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

٤٢ – المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص ١٥٧ .

٤٣ – نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب (بيروت ١٩٦٢) ص ١٥٥ .

٤٤ – ناصر خسرو، سفرنامه ص ١٤٤ .

٤٥ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٠ .

٤٦ – ابن الأثير، الكامل، ٥٨/٩ .

٤٧ – ابن الجوزي، المنتظم، ١٧٠/٧ . ابن الأثير، الكامل، ١٠٥/٩ . ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت ١٩٦٦) ٣١١/١١ .

٤٨ – أنظر عن نشاط الأصيغر : ابن الجوزي، المنتظم، ١٧٤/٧، ١٧٨، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٩٣، ابن الأثير، الكامل ١٠٥/٩٢ – ٣١٣ . سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ص ٢٦٧، ٢٦٨، ٣٠٠، يجعل سبط ابن الجوزي وفاة الأصيغر عام ٤٠٧هـ .

٤٩ – أسس بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعه – إخوة بني المنتفق – إمارة لهم في الموصل والجزيرة امتدت من سنة ٣٨٠هـ إلى سنة ٤٨٩هـ .

أنظر العاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل (بغداد ١٩٦٨) .

٥٠ – الحميدان، إمارة العصفوريين، ص ١٢٨، ١٢٩ .

٥١ – أنظر هذه الحادثة في ابن خلدون تاريخ ٢١٦/٤ . قارن ذلك مع كل من ابن الجوزي، المنتظم، ٢٢٧/٧ . ابن الأثير، الكامل، ١٨٢/٩ . سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٢٦٨ . ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٣٣/١١ . ابن تغري، بردى النجوم الزاهرة، ٢١٠/٤ .

٥٢ – الظاهري، أنساب الأسر الحاكمة في الاحساء، ص ١٣٦ .

٥٣ – هو أحد شعراء عبد القيس في البحرين في القرن السادس الهجري . أنظر ترجمته في الأصبهاني، تكملة خريدة القصر (تحقيق محمد بهجت الأثري – بغداد ١٩٩١) ص ٨٦ وما بعدها .

٥٤ – ديوان ابن المقرب (تحقيق عبد الفتاح الحلو، الاحساء، ١٩٦٣) ص ٤٦٢ . تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٧٠ . الظاهري، أنساب الأسر الحاكمة في الاحساء، ص ١٣٧ .

٥٥ – الأصبهاني ٢، تكملة خريدة القصر، ص ٨٦١ .

٥٦ – ابن الجوزي، المنتظم، ١٧٤/٧ . ابن الأثير، الكامل، ١٠٥/٩، ١١٣ . سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٢، ص ٢٦٧ . ابن تغري، بردى النجوم الزاهرة، ٢١٠/٤ .

٥٧ – أنظر ديوان ابن المغري، ص ٢٥٢ – ٢٥٨، ٦٣١ – ٦٤٢ . تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٦٨، ٢٧٠ . أنظر أيضاً : البكري، معجم ما استعجم (تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥) ٣٣٧/١ . Kaskel, Abd-Al-Kays, in E.I. p. 73

٥٨ – القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (تحقيق علي الخاقاني، بغداد ١٩٥٨) ص ٣٠٥ .

٥٩ – تحفة المستفيد ملحق رقم (٣) ص ٢٥٧ . الاحسائي، تحفة المستفيد ص ١٠١ .

٦٠ – ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٣ وما بعدها .

٦١ – ماجد، سياسة الفاطميين في الخليج العربي، المؤرخ العربي، العدد (٢)، ١٩٨٠، ص ٤٠٧ .

٦٢ – علي بن محمد الصليحي يمني اسماعيلي المذهب قاد عام ٤٣٩هـ حركة استولى فيها على معظم بلاد اليمن واستطاع تكوين دولة بالتعاون مع الفاطميين في مصر شملت أيضاً حضرموت والحجاز

اغتيل وهو في طريقه إلى مكة عام ٤٥٩هـ أنظر عنه : عمارة اليمني، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد الأعوج ط ١٩٧٦ .

٦٣ – حسين الحمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٢١ .

٦٤ – السجلات المستنصرية (تحقيق بسام ماجد مصر ١٩٥٤) ص ١٧٦ – ١٧٩ .

٦٥ – ماجد، سياسة الفاطميين في الخليج العربي ص ٤٠٩ – ٤١٠ .

٦٦ – ابن الجوزي المنتظم، ١٧٠/٧ . ابن الأثير، الكامل، ١٠٥/٩ . سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ص ٢٤٨ .

٦٧ – أنظر نفس المصادر في هامش (٤٨) .

٦٨ – البكري، معجم ما استعجم، ٨٠/١ .

٦٩ – ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٥ .

٧٠ – ابن لعبون، تاريخ، ص ٥٣ . حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي (مصر ١٩٦٧) ٢٥٨/٤ .

٧١ – ديوان ابن المقرب، ص ٥٣٩، هامش ٩٠ – ٩٦ . النبهاني – التحفة النبهانية (ط٢ مصر ١٣٤٢هـ) ١٣/٨ .

٧٢ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٧ .

٧٣ – تولى الخلافة عام ٤٢٢ وتوفى عام ٤٦٧هـ . أنظر : السيوطي، تاريخ الخلفاء (تحقيق محي الدين عبد الحميد (مصر ١٩٥٢) ص ٤١٧ – ٤٢٣ .

٧٤ – تحفة المستفيد ملحق رقم (٣) ص ٢٥٧ .

٧٥ – نفس المصدر والصفحة .

٧٦ – نفس المصدر والصفحة .

٧٧ – ديوان ابن المقرب، ص ٦٣٩ . هامش (٧٥، ٧٦) . تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٦ .

٧٨ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٨ .

٧٩ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٦ . المسلم، ساحل الذهب الأسود ص ١٥٧ .

٨٠ – أنظر عن حال عمان في هذه الحقبة : جاسم ياسين محمد، عمان، دراسة في أحوالها السياسية والإدارية ٢٨٠ – ٤٤٧ (جامعة البصرة ١٩٨٦) ص ١٠٨ – ١١٠ .

٨١ – ديوان ابن المقرب ص ٦٠٩ (هامش ٧٧/٧٨) .

٨٢ – ترجع صلة القرامطة بالحدان من الأزد اليمانية إلى نهاية القرن الثالث الهجري عندما اعتنق أحد أئمة الأباضية المذهب القرمطي وتعاون معهم مما حدا بالأباضية في عمان إلى البراءة منه . أنظر التفصيلات : جاسم ياسين محمد، عمان ص ٦٠ – ٦٤ .

٨٣ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٨ .

٨٤ – نفس المصدر والصفحة .

٨٥ – الحميدان، إمارة العصفوريين، ص ٨٠ .

٨٦ – ديوان ابن المقرب ص ٥٣٣ هامش ٥٥ . الاحسائي، تحفة المستفيد ص ٩٨ .

٨٧ – الاحسائي، تحفة المستفيد، ص ٩٨ .

٨٨ – كسكوس : هي جزيرة صغيرة تقع قرب الدمام . الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية والمنطقة الشرقية (الرياض ١٩٧٩) ٤٠٢/١ .

٨٩ – الاحسائي، تحفة المستفيد ص ٩٨ . النبهاني، التحفة النبهانية ٩٨/٨٠ . أمين الريحاني، ملوك العرب (بيروت ١٩٦٠) ٢٥٠/٢ .

٩٠ – نسبة إلى بني جذيمة زعماء عبد القيس في القطيف في نهاية القرن الثالث الهجري الذين قتلهم أبو سعيد الجنابي، تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٦ . انظر أيضاً المسعودي التنبيه والإشراف ص ٣٤٠ .

٩١ – ياقوت الحموي، معجم البلدان ٧٦٦/٣ .

٩٢ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٦٠ . الاحسائي، تحفة المستفيد، ص ٩٨ .

٩٣ – ابن لعبون، تاريخ، ص ٥٣ . الاحسائي، تحفة المستفيد، ص٩٨ .

٩٤ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٦٢ .

٩٥ – جبل سنام وهو تل منعزل يبعد خمسة أميال عن مدينة سفوان . لوريمر، دليل الخليج العربي – القسم الجغرافي (ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر – بيروت ١٩٦٩) ٢١٤٨/٦ .

٩٦ – يذكر شارح ديوان ابن المقرب أن قيس وقبات من بطون عرب المنتفق . تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٦٢ .

٩٧ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٦٣ .

٩٨ – الشبانات هم أحد بطون بني عامر بن صعصعه في الاحساء . القلقشندي، نهاية الأرب ص ١٠١. جدير بالذكر هنا أن الدكتور الحميدان يشير إلى أن بني عامر (كانوا القوة الرئيسية إن لم تكن القوة الوحيدة من بين حلفاء القرامطة التي بقيت إلى جانبهم حتى النهاية . . . فقد وقفوا إلى جانب القرامطة في محنتهم هذه فقاتلوا جنود العباسيين كما قاتلوا جنود عبد الله بن علي . إمارة العصفوريين، ص ٨٠ – ٨١ ولكننا نرى في هذه الحادثة أن بني عامر يقدمون المساعدة السخية إلى الجيش العباسي الذي جاء للقضاء على القرامطة والذين لولاهم هلكوا جميعاً .

٩٩ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٦٣ .

١٠٠ – أكسك سلار . قيل اسمه أرتق بيك غلام تركي تولى حلوان والجبل ثم القدس للسلاجقة ثم أصبح من قادتهم المشهورين . توفى عام ٤٨٤هـ أنظر ابن خلكان وفيات الأعيان، ١٩١/١ .

١٠١ – تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣) ص ٢٥٩ – ٢٦٠ .

١٠٢ – الآية (١٤) من سورة التوبة .

١٠٣ – الاحسائي، تحفة المستفيد، ص ٩٩ .

١٠٤ – الرحلين موضع بالاحساء بين بلد العمران وبحيرة الأصفر، الاحسائي، تحفة المستفيد ص ١٠٠ . وفي ديوان ابن المقرب أن الوقعة كانت بين باب الشمال وباب الأصفر وقتلى القرامطة امتد من نهر الخندق إلى الباب، ص ٥٣٦ .

١٠٥ – الاحسائي، تحفة المستفيد، ص ١٩٩ – ١٠٠ .

١٠٦ – ناظرة : هي كثبان من الرمل تقع شرق منطقة الهفوف . ديوان ابن المقرب ص ٥٣٨ هامش ٩١ .

١٠٧ – العقير : ذكرها ياقوت أنها (قرية على ساحل البحر بحذاء هجر)، معجم البلدان، ٦٩٩/٣ .

١٠٨ – ديوان ابن المقرب، ص ٥٣٩ هامش ٩٠ – ٩٦، النبهاني، التحفة النبهانية، ٩٦/٨ .

مصادر البحث

١ – ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦٦ .

٢ – الاحسائي، محمد عبد الله، تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد مع ملحقاته، أشرف على طبعه وعلق عليه حمد الجاسر، ط ١٣٧٩هـ .

٣ – الأصبهاني، عماد الدين الكاتب (ت ٥٩٧هـ/١١٢٠م) تكملة خريدة القصر وجريدة العصر

تحقيق محمد بهجت الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٩١ .

٤ – البكري، عبد الله عبد العزيز (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٤م) جزيرة العرب من المسالك والممالك تحقيق عبد الله يوسف الغنيم الكويت ١٩٧٧، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، ط ١ القاهرة ١٩٤٥ .

٥ – ابن تغري، بردى جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ط ١ مصر ١٩٣٢ .

٦ – ثابت بن سنان (ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م) تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار بيروت ١٩٧١م .

٧ – الجاسر، حمد، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية المنطقة الشرقية، البحرين قديماً القسم الأول، الرياض ١٩٧٩ .

٨ – جوزي بندلي، من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام . بيروت بدون تاريخ .

٩ – ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . حيدراباد ١٣٥٨هـ .

١٠ – حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . القاهرة ١٩٦٥ .

١١ – الحميدان، الدكتور عبد اللطيف، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب جامعة – البصرة – العدد (١٥) ١٩٧٩ .

١٢ – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) التاريخ – بيروت ١٩٦٧ .

١٣ – ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣ .

١٤ – الرونراوري، أبوشجاع محمد بن حسين (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ذيل تجارب الأمم . اعتنى بتصحيحه – ف – أمد روز، مصر ١٩١٩.

١٥ – الريحاني، أمين، ملوك العرب، ط ٤ بيروت ١٩٦٠ .

١٦ – سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن علي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان _ الحقبة من (٣٤٥ – ٤٤٧هـ) تحقيق جنان جليل بغداد ١٩٩٠ .

١٧ – السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط ١ مصر ١٩٥٢ .

١٨ – شوقي ضيف، الدكتور، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات – القاهرة ١٩٨٠ .

١٩ – الظاهري، أبو عبد الرحمن بن عقيل ، أنساب الأسر الحاكمة في الاحساء، ط ١ الرياض ١٩٨٣ .

٢٠ – العاني، الدكتور عبد الرحمن، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج بغداد ١٩٧٣ .

٢١ – عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن علي (ت ٥٩٦هـ/١١٧٣م) المفيد في أخبار صنعاء وزبير. تحقيق محمد علي الألوع، ط ٣ ١٩٥٦ .

٢٢ – أبو الفضائل الحمادي اليماني، محمد بن مالك (ت منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة – تحقيق محمد زاهر الكوثري ط ٢ ١٩٥٥ .

٢٣ – القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٢١٨م) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب – تحقيق علي الخاقاني، بغداد ١٩٥٨ .

٢٤ – ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية بيروت ١٩٦٦ .

٢٥ – لوريمر، ج، دليل الخليج العربي القسم الجغرافي، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر بيروت ١٩٦٦ .

٢٦ – ابن لعبون، حمد بن محمد الوائلي الحنبلي، تاريخ أم القرى ١٣٥٧هـ .

٢٧ – ماجد، الدكتور عبد المنعم، سياسة الفاطميين في الخليج العربي مستمدة من السجلات المستنصرية، مجلة المؤرخ العربي العدد (٢) ١٩٨٠ .

٢٨ – محمد، جاسم ياسين، عمان . . دراسة في أحوالها السياسية والإدارية (٢٨٠ – ٤٤٧) جامعة البصرة ١٩٨٦ .

٢٩ – المستنصر بالله أبو تميم معد (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤) السجلات المستنصرية، تحقيق عبد المنعم ماجد، مصر ١٩٥٤ .

٣٠ – المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) التنبيه والإشراف اعتنى بتصحيحه عبد الله اسماعيل الصاوي . بغداد ١٩٣٨ .

٣١ – المسلم، محمد سعيد، ساحل الذهب الأسود، ط ٣ بيروت ١٩٦٢ .

٣٢ – المعاضيدي، الدكتورخاشع دولة بني عقيل في الموصل بغداد ١٩٦٨ .

٣٣ – ابن المقرب، أبو الحسن علي بن المقرب العيوني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ديوان ابن المقرب، تحقيق عبد الفتاح الحلو، الاحساء، ١٩٦٣ .

٣٤ – ناصر خسرو علوي (ت ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) سفرنامه، نقله إلى العربية يحيى الخشاب، ط ١ القاهرة ١٩٤٥ .

٣٥ – النبهاني، الشيخ محمد بن خليفة، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط ٢ – مصر ١٣٤٢هـ .

٣٦ – ابن النديم، محمد بن إسحق (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) الفهرست، بيروت ١٩٧٨ .

٣٧ – نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت ١٩٦٢ .

٣٨ – الهمداني، حسين بن فيض الله، الصليحيون والحركة الفاطمية، مصر ١٩٥٥ .

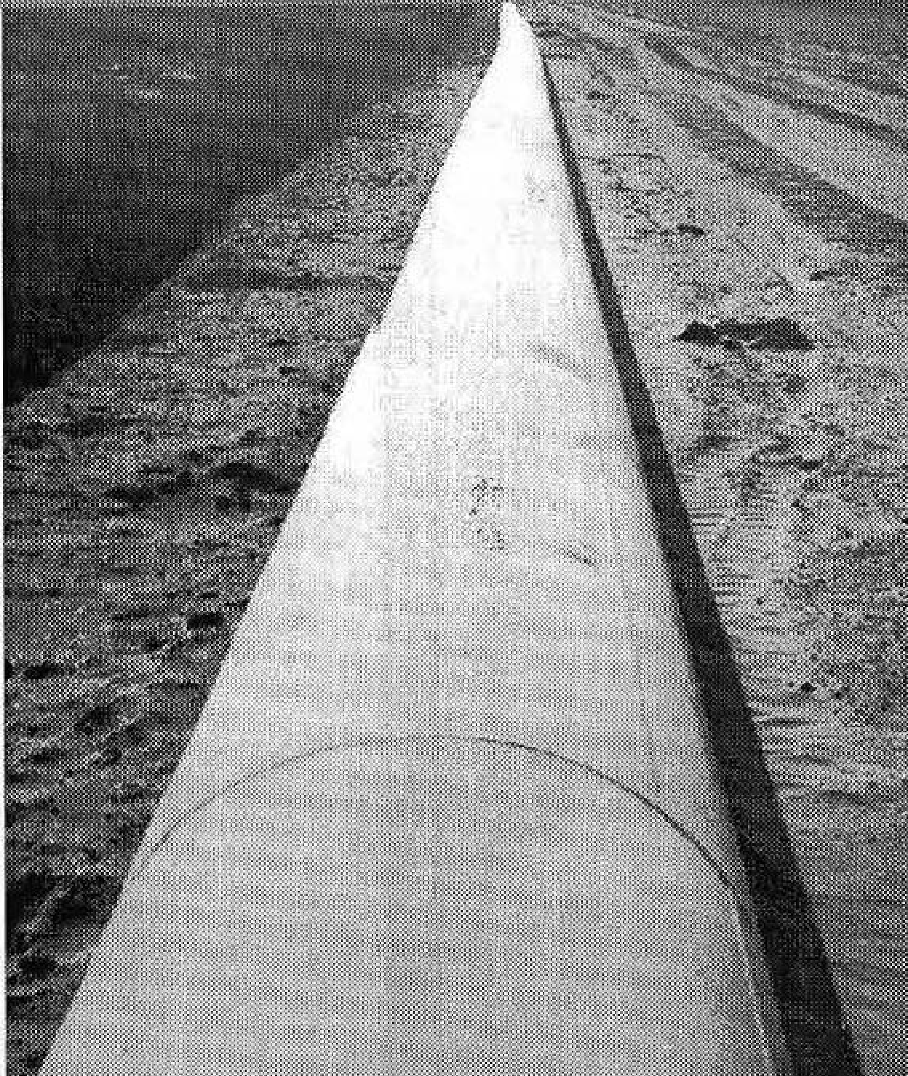
٣٩ – ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، طهران ١٩٦٥ .

٤٠ – Kaskel, I, Abd-Al-Kays in E.I. 2.

٤١ – Miles, S. B. The Countries and tribes of the (Arabian) Gulf, London, 1966.

٤٢ – Rentz, G., and Mulligan - Al-Bahrain, in E. I. 2 - Al-Katif, in E. I. 2 .

التنافس الب



حول امتياز النفط في عمان

١٩٢٢ ـ ١٩٣٧م

بقلم : الدكتور فاضل محمد الحسيني

وهب الله منطقة الخليج العربي خيرات وفيرة، ففضلاً عن موقعها الاستراتيجي المهم الذي يربط الشرق بالغرب تدفق في عروقها النفط مطلع هذا القرن الأمر الذي دفع الدول الكبرى للتسابق من أجل الظفر بامتيازات البحث والتنقيب بغية استخراجه وإنتاجه . وعمان من بين مناطق الخليج التي شهدت فصولاً من التنافس الحاد بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية من أجل الحصول على امتياز التنقيب عن النفط فيها .

سنحاول في هذا البحث إلقاء الضوء على هذا التنافس من خلال الوثائق الإنجليزية المنشورة وغير المنشورة فضلاً عن بقية المصادر الأجنبية والعربية .

عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حاولت الحكومة البريطانية الحصول على تعهد من السلطان العماني يمنحها بموجبه امتيازاً للتنقيب عن النفط في عمان حيث سبق لها أن حصلت على تعهدات من شيوخ إمارات الخليج العربي تضمنت عدم منح امتيازات التنقيب في أراضيهم إلى أية جهة أو شخص دون موافقتها[١] .

وفي الواقع ، فإن أول امتياز للتنقيب عن النفط في منطقة الخليج العربي قد نجح في الحصول عليه أحد رجال الأعمال الأستراليين يدعى دارسي[٢] في عام ١٩٠١م وذلك في منطقة الساحل الشرقي للخليج وتحديداً في منطقة مسجد سليمان جنوب فارس، ولدى اكتشاف النفط في هذه المنطقة بالذات عام ١٩٠٨م . أصبح من المتوقع اكتشافه في الساحل الغربي للخليج أي في منطقة الإمارات العربية وعلى ضوء ذلك، سعت بريطانيا لاحتكار امتيازات التنقيب عن النفط في هذه الإمارات لصالح شركاتها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن حماس بريطانيا للحصول على امتيازات النفط تصاعد بعد التحول الذي طرأ على استخدام أسطولها للنفط كوقود بدلاً من الفحم فقد كانت بريطانيا أول دولة أدركت أهمية النفط في تسيير الأسطول البحري حيث أصدر رئيس بحريتها عام ١٩١٣م قراراً يقضي بالتحول النهائي إلى استخدام النفط في تسيير الأساطيل البحرية . ولذلك حرصت الحكومة البريطانية على الحصول على امتيازات النفط من شيوخ إمارات الخليج فضلاً عن خشيتها من وقوع حكام الخليج في النشاط المريب لبعض صائدي الامتيازات ممن كانوا يمثلون جهات أخرى غير إنجليزية الأمر الذي من شأنه أن يعرض مصالحها في منطقة الخليج إلى الخطر[٣] .

وقد صح الخوف البريطاني في هذا الأمر عندما جاء الماجور (فرانك هولمز - Holmes) ونجح في الحصول على عدة امتيازات من البحرين والكويت والسعودية لصالح الشركة الشرقية والعامة وهي ليست معتمدة من قبل الحكومة البريطانية ، وبما أن بريطانيا كانت تساند شركة النفط الإنجليزية

الفارسية بحكم مساهمتها الكبيرة فيها فقد ساءها دخول شركة منافسة للمنطقة، الأمر الذي دفع بالمقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى تنبيه أمراء الخليج العربي إلى عدم توقيع امتيازات لا توافق عليها بريطانيا بحكم تعارضها والتعهدات السابقة للحكومة البريطانية . وبالرغم من ذلك، فقد استمر هولمز في الحصول على الامتيازات للتنقيب عن النفط، ولعل أول امتياز له كان في عام ١٩٢٢م في الساحل الغربي للخليج، بعدها ارتبط اسمه بأكبر مستودعات النفط في العالم[٤]، فقد حصل هولمز على الامتياز الأول لشركته من ابن سعود وهو امتياز الاحساء[٥] الذي يعد أول امتياز للتنقيب عن النفط في المنطقة، كما حصل على امتياز آخر في المنطقة المحايدة بين السعودية والكويت .

دخول الشركات الأمريكية منطقة الخليج

والحقيقة أن شركة هولمز لم تكن متخصصة في استغلال النفط وإنما في الحصول على أكثر ما يمكن من الامتيازات وبيعها لشركات متخصصة في الاستغلال وهذا ما فعله هولمز عندما باع امتياز البحرين إلى الشركات الأمريكية مما شكل أول تدخل للشركات الأمريكية في منطقة الخليج بعد أن كانت هذه المنطقة مغلقة على النفوذ الإنجليزي وحده[٦] .

ومن هنا بدأ التنافس البريطاني الأمريكي حول النفط في الخليج العربي ، فقد تبع ذلك شراء آبار الكويت النفطية من قبل شركة أمريكية عرفت فيما بعد باسم (شركة بترول الخليج) والتي أخذت على عاتقها التنقيب عن نفط البحرين واستغلاله[٧] .

ومما لا ريب فيه، إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تهدف إلى توسيع مصالحها التجارية الخارجية عقب الحرب العالمية الأولى مدفوعة إلى ذلك بعاملين :

الأول . . . . وجود فائض كبير لديها من رأس المال .

الثاني . . . . المحافظة على احتياطيها من المخزون النفطي[٨] .

وقد ارتبط النشاط الأمريكي في منطقة الخليج العربي ارتباطاً كبيراً بسياسة الباب المفتوح (Open Door Policy) وهو المبدأ الذي دعت إليه السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى واعتبرته من المبادئ الأساسية المقررة في السياسة الأمريكية طوال فترة ما بين الحربين العالميتين(٩)، والذي يتلخص في عدم احتكار أية دولة لامتياز من شأنه الأضرار بمصالح دول أخرى وأن تقف جميع الدول على قدم المساواة، وقد تمسكت الولايات المتحدة الأمريكية بتطبيق هذه السياسة في الخليج العربي فنجحت بواسطتها في الحصول على امتيازات خاصة باستغلال النفط. وقد استشاطت الحكومة البريطانية غيظاً من نشاط الشركات البترولية الأمريكية بالمنطقة فطلبت من الماجور راي (Rae) قنصلها في مسقط أن يبعث برسالة إلى السلطان العماني تيمور بن فيصل يستفسر منه فيها عن موقفه من استثمار النفط في بلاده، وبالفعل، كتب راي رسالة إلى السلطان العماني في السادس عشر من ديسمبر عام ١٩٢٢م بهذا الخصوص(١٠)، وقد أجابه السلطان تيمور في العاشر من شهر يناير من عام ١٩٢٣ برسالة جاء فيها "أننا نوافق على ألا نستغل البترول الذي قد يعثر عليه في أية بقعة تدخل في نطاق أراضينا وإننا لن نمنح أحداً إذناً باستغلاله دون استشارة القنصل والوكيل البريطاني في مسقط وبدون موافقة حكومة الهند البريطانية"(١١) وقد اعتبرت رسالة السلطان تيمور السابقة بمثابة التعهد العماني تجاه الحكومة البريطانية بمنحها حق التنقيب والاستثمار دون سواها وهو لا يختلف عن التعهدات الأخرى التي صدرت من قبل بقية أمراء الخليج العربي الذين سبق ذكرهم(١٢) وبالفعل، قامت شركة النفط الإنجليزية الفارسية بالتنقيب عن النفط في مسقط عام ١٩٢٥م(١٣).

ولم تواجه الشركة بادئ الأمر أية منافسة من قبل الشركات الأمريكية في المنطقة، وقد أوعزت الشركة الإنجليزية إلى إحدى فرقها الجيوليجية بإجراء المسح بحثاً عن النفط، حيث تركزت معظم تنقيباتها الأولى في المناطق الساحلية.

التنافس البريطاني الأمريكي حول النفط العماني

بلغ التنافس الأمريكي البريطاني حدته عندما تقدمت الفرقة الجيولوجية الإنجليزية بأعمالها التنقيبية في عمان فبدت المنافسة قوية من قبل الشركات الأمريكية العاملة في دولة الإمارات العربية أو التي تحاذي عمان .

وفي الواقع، لم يكن الأمريكيون بعيدين عن عمان على الرغم من إدراكهم لعلاقاتها المتينة مع بريطانيا، فقد كان القنصل الأمريكي ببغداد يراقب عن كثب النشاطات البترولية الإنجليزية في عمان وبصفة خاصة الرحلات الاستكشافية التي يقوم بها "برترام توماس" في عمان وقد ورد ذلك في تقاريره إلى حكومته حيث أخبرها بأن الإنجليز لم يبعثوا "توماس Thomas" كمستشار مالي للسلطان العماني وحسب وإنما لاستكشاف المناطق الداخلية في عمان وتحديداً أماكن وجود البترول ولذلك فإن رحلته الداخلية في عمان وإن بدت وكأنها رحلة استكشافية لجزء غير معروف من شبه الجزيرة العربية، إلا أنها استخدمت للحصول على المعلومات المختلفة لشركة البترول الإنجليزية الفارسية، الأمر الذي يفسر سبب قيام إحدى ناقلاتها البترولية بحمل اسم "توماس"(١٤) . كما أدرك البريطانيون بأن هناك اتصالاً بين شركة نفط كاليفورنيا الأمريكية والسلطان العماني بصدد امتياز النفط وما أكد ذلك هو ما بعثه السلطان تيمور إلى الشركة الأمريكية من نماذج لنضوح نفطي بغية دراسته مستفسراً عما تثيره هذه النماذج من دلائل نفطية، وقد فسرت بريطانيا تصرف السلطان بأنه دعوة لشركة نفط كاليفورنيا الأمريكية للعمل في عمان(١٥) .

بيد أن الشركة الأمريكية استغلت ذلك لصالحها في محاولة للنفاذ إلى الأراضي العمانية بهدف استغلال ثرواتها، إذ اتصل (بلانتين) ممثل الشركة الأمريكية في لندن بوزارة الهند مستأذناً منها في الاتصال بالسلطان العماني بناءً على طلبه إلا أن وزارة الهند البريطانية رفضت ذلك بشدة موضحة في ردها بأن السلطان العماني مرتبط بتعهد مع بريطانيا الأمر الذي لا يسمح له بمنح أي امتياز نفطي دون

استشارة المقيم البريطاني أو موافقة الحكومة البريطانية[١٦] وأن هذا الاتصال الذي جرى بينه وبين الشركة الأمريكية كان بدون علم بريطانيا وسينبه عليه السلطان[١٧] ومن الواضح أن الحكومة البريطانية ما كانت إلا لترفض أية خطوة من شأنها التمهيد لتغلغل النفوذ الأمريكي وإضعاف وجودها في عمان .

غير أن الشركات الأمريكية لم تترك الأمر عند رفض وزارة الهند البريطانية بل سعت إلى إعادة الاتصال مرة أخرى بالسلطان العماني ولكن بطريقة سرية هذه المرة ومن خلال التعاون مع المصالح النفطية الإيطالية، فقد بعثت أحد الرعايا الإيطاليين ويدعى باستوري "Pastori" لزيارة عمان في مايو من عام ١٩٣٧م تحت ذريعة التعاقد على عمال لبناء الطرق في مستعمرة أريتريا الإيطالية في شرق أفريقيا، وكان باستوري يصطحب معه في هذه الزيارة الكونت برورك "Prork" وهو من رجال الأعمال البولونيين بحجة قيامه بأبحاث أثرية في مسقط، ويذكر أن برورك عرض أموالاً طائلة على سلطان عمان لتسهيل مهمته إلا أن الوكيل البريطاني في عمان الكولونيل واط "Watt" ارتاب في أمره فرفض إقامته في عمان بالرغم من ادعائه بأن لقاءه مع باستوري الإيطالي قد تم مصادفة . لقد كان ارتياب الوكيل البريطاني "واط" في محله، حيث ظهر أن برورك ليس إلا عميلاً لشركة الزيت العربية الأمريكية التي كانت تحاول الحصول على عقود امتيازات للنفط في الساحل الجنوبي الغربي للخليج العربي[١٨]، وكان "باستوري" هو الآخر يعمل لصالح شركة إيطالية - أمريكية مهتمة بالتنقيب عن النفط[١٩] .

وعلى كل حال، فإن السلطات البريطانية قد خبرت هذه الأساليب للشركات الأمريكية في محاولاتها المتكررة للحصول على امتيازات لاستثمار النفط في عموم منطقة الخليج العربي وكانت دائمة الحيطة والحذر من النشاطات المريبة لصائدي الامتيازات . وأخيراً، ارتأت بريطانيا أن تسلك أفضل السبل في سد الطريق أمام الشركات الأمريكية إلى عمان وذلك من خلال اهتمامها بالسلطان العماني شخصياً إذ أكدت الحكومة البريطانية في برقيتها للمقيم السياسي البريطاني في الأول من يونيو عام ١٩٣٧م

على ضرورة تنبيه السلطان العماني وتحميله مسئولية تزايد النشاط الأمريكي في بلاده جراء اتصالاته المتكررة مع الشركات النفطية الأمريكية كما أوصت بتذكيره بالالتزامات التي أبداها حيال الإنجليز منذ عام ١٩٣٢م التي تحول دون منحه لأي امتياز نفطي دون مشاورة الحكومة البريطانية وموافقتها[٢٠] وبالفعل، قام المقيم السياسي البريطاني بإبلاغ السلطان العماني في الرابع عشر من يونيو عام ١٩٣٧م بما يلي :

١ - إن الحكومة البريطانية على علم باتصالاته مع الشركة الأمريكية .

٢ - يتعين عليه الالتزام بتعهداته للإنجليز التي تقضي بعدم منح أي امتياز دون استشارتها .

٣ - ألا ينسى الأسبقية في امتياز نفط عمان لشركة النفط الإنجليزية دون سواها . وفي الأخير، تمكنت بريطانيا من أن تحصل على امتياز للتنقيب عن النفط في عمان وقد وقعه السلطان سعيد بن تيمور في الرابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٣٧م[٢١] وقد أعطى هذا الامتياز إلى شركة بترول العراق الإنجليزية التي سارعت بدورها إلى تأسيس فرع لها تحت اسم شركة استثمار بترول عمان وظفار المحدودة[٢٢]، وبهذا الامتياز تمكن الإنجليز من أن يوصدوا الأبواب في وجه المطامع الأمريكية في عمان والتي كانت آخر منطقة للتنافس الأمريكي البريطاني على النفط في الخليج العربي خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين .

ومن المفيد أن نشير في نهاية البحث إلى أن الإنجليز قد واصلوا استثمارهم لهذا الامتياز في التنقيب عن النفط في عمان حتى تم اكتشافه بكميات تجارية عام ١٩٦٤م وتصديره في عام ١٩٦٧م، ويعد النفط اليوم المصدر الرئيسي للدخل القومي العماني وقد زاد إنتاجه بعد زيادة عدد حقوله ليصل إلى ٧٥٠,٠٠٠ برميل يومياً في عام ١٩٩٣م[٢٣] .

الدكتور فاضل محمد الحسيني
جامعة ناصر - ليبيا

الهوامش

١ – قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ – ١٩٤٥، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٤٥٣ .

٢ – بيشون، جان، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، نقله إلى العربية محمد عزت دروزة، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٤١ .

٣ –الحسيني، فاضل محمد، العلاقات البريطانية العمانية (١٩١٣م – ١٩٣٩م)، أطروحة دكتوراة دولة غير منشورة، ١٩٩٥ – الرباط، ص ١٤٤ .

٤ – كان (هولمز) في الأصل مهندساً إنجليزياً بدأ حياته بالعمل في مناجم الذهب في نيوزيلندا والمكسيك ثم عاد إلى إنجلترا فالتحق بخدمة البحرية البريطانية وما لبث أن وجه اهتمامه إلى الثروات النفطية في المشرق فأقنع مجموعة من رجال الأعمال بإقامة شركة سجلت في لندن عام ١٩٢٠م باسم الشركة الشرقية والعامة المحدودة وقدوقع اختيار الشركة على هولمز ليكون ممثلها في الشرق الأوسط .

٥ – سعيد، أمين، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٧٠ .

٦ – قاسم، المصدر السابق، ص ٤٦٥ .

٧ – Hamilton. American & oil in the Middle East. London. 1926 P. 26.

٨ – الخصوصي، بدر الدين عباس، اهتمام الولايات المتحدة ببترول الخليج العربي خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣١، السنة الثامنة، تموز ١٩٨٢م، الكويت، ص ١٨٥ .

٩ – Huerwitz. Diplomacy in the Near and the Middle East, New York,1965. Vol. I. P. 52 .

١٠ – A letter No. 1751 dated 16th December 1922, from the political Agent and consul, Muscat, to His Highness Saiyid Taimur Bin Faisal. Sultan of Muscat and Oman, Muscat.

١١ – A letter No. 1151 dated 10th January 1923, from Taimur Bin Faisal (His Highness the Sultan) to Major Rae, His Britannic Majesty's Consul Muscat.

F. O. 371 Oil Possibilities at Views of Agloprian oil Co. desire of Sultan to – ١٢
Exproit. No. 999/189/91.

I-O, P 400, From Political Resident to Government of India, 1925. – ١٣

١٤ – عُيِّن "توماس" مستشاراً مالياً للسلطان ثم أصبح وزيراً للماليـة في الحكومة العمانية عام ١٩٢٦ ولم ينجح في مهمته بسبب كثرة رحلاته وأسفاره في داخلية عمان .

١٥ – وهيم، طالب محمد، التنافس الأمريكـي البريطاني على نفط الخليج العربـي وموقف العرب في الخليج منه، ١٩٢٨ – ١٩٣٩م، بغداد، ١٩٨٢م ص ٣٣٤ .

A letter from the political Agent at Muscat, dated 13th February 1923 to – ١٦
Government of India, Arabian Gulf, oil concessions, 1911-1953, Muscat and Oman.

١٧ – وهيم، المصدر السابق ص ٣٤ – ٣٥ .

F. O., 371 – 20772, from political Resident to His Majesty's Ambassador, – ١٨
Baghdad, 1st May 1937. Activities in the Persian Gulf of count Prork.

١٩ – وهيم، المصدر السابق، ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .

٢٠ – السالم، هداية سلطان، أوراق في دفتر مسافرة في الخليج العربي، الكويت، بدون تاريخ، ص ٢٢ .

Agreement between Sultan Saiyid Said Bin Taimur and Petroleum – ٢١
Concessions Limited Company, 24 June 1937, ARABIAN GULF OIL Concessions. 1911 – 1953 – Muscat and Oman, London< 1989, pp. 303 – 314.

Peterson, J. E., Oman in the 20th Century, London, 1978, p. 89. – ٢٢

٢٣ – عمـــان ٩٣، مجلـــة تصدرهـــا وزارة الإعـــلام العمانيـــة، مســـقط، ١٩٩٣، ص ١٤٢ .

قنوات الري القديمة

بقلم :

د. أسماء علي أباحسين و هند عبد العزيز القصيبي

يعتبر نظام الري بالقنوات أحد أقدم نظم الري المعروفة في العالم إذ يعود تاريخه إلى بضعة آلاف من السنين، إلا أنه وبرغم قدمه فإنه لازال مستخدماً إلى يومنا هذا في بقاع مختلفة من العالم. وقنوات الري القديمة ما هي إلا أحد الشواهد التي تحكي مهارة الإنسان ماضياً في الهندسة، وحسن تدبير وإدارة كفء للموارد المائية، وتخطيط زراعي وحضري رائع، وإدامة وصيانة لمكتسباته بتعاون وتكاتف أفراد مجتمعه.

وكلمة قناة يعتقد بأنها مشتقة من كلمة سامية تعني (الحفر أو يحفر)[1]. وللقنوات مسميات عديدة منها الفجارات (Foggars)

في البحرين



الوثيقة ١٦٧

في شمال أفريقيا، والسراديب أو الكهاريز في شمال غربي مصر، والكارزات (Karezes) في باكستان وافغانستان، والقنات(Kanat) في الصين، والفلج (Falaj) في شبه الجزيرة العربية. ويعتقد أن "فلج" كلمة من أصل سامي أصلها بلج (Plg) أي يقسم[٢]، وفلج في اللغة بمعنى شق أو قسم[٣]، ومعنى الأفلاج نظام تقسيم أو توزيع المياه . والذي يسود بين كثير من الباحثين أن الفلج تعني الشق، ويقصد بها القنوات التي تشق تحت سطح التربة[٤] .

القنوات هي عبارة عن طرق أو مجار مائية جوفية أو شبكة من الأنفاق محفورة بأكملها وليست مبنية[٥]، تستخدم لتوجيه المياه من المصادر الجوفية ذات المناسيب المائية أو الباطنية المرتفعة في مناطق السهول الرسوبية للمراوح الطميية (Alluvium fan)، أو عند سفوح الجبال، وتوجيهها نحو الأراضي الأقل ارتفاعاً بواسطة قنوات تشق تحت سطح الأرض، وتكون ذات انحدار طفيف يسمح بانحدار الماء وانسيابه نحو المزارع الواقعة أسفل السفوح[٦]، ويستفاد من ارتفاع مستوى المياه الجوفية بالمقارنة مع مستوى الأراضي الزراعية التي يرغب في إروائها[٧] . وتعتبر القنوات ذات أهمية كبيرة للزراعة والري في المناطق الجافة حيث تعتمد المزارع والبساتين في مثل هذه المناطق (عند سفوح الجبال) اعتماداً يكاد يكون كلياً على هذه القنوات إذ لا يكفيها التهاطل أو الأمطار لعمليات الري وبخاصة خلال الأشهر الجافة، سيما وأن هذه المياه قد تضيع في رمال الصحراء أو الأحواض المغلقة أو البحار دون أية فائدة .

في هذا البحث سنحاول التعرف إلى ماهية قنوات الري، وأسباب بنائها، ونتلمس الطريق إلى أصلها، وكيفية إنشائها، ونتعرف على قنوات الري في البحرين ومواقعها، ونبين مصادر مياهها، والنواحي الهندسية التي ساعدت في إنشائها، وأوجه استعمالاتها، وصولاً إلى أسباب تدهورها واندثارها .

أصل قنوات الري

تبين المصادر التاريخية أن نظام الري بالقنوات نظام كان معروفاً منذ بضعة آلاف من السنين إذ يعتقد أن نينوى وهي من أقدم المواقع في العراق كانت تحصل على الماء بواسطة نظام القنوات[٨] . كما تشير المصادر التاريخية إلى أن المصريين شقوا القنوات المائية قبل أكثر من ٥٠٠٠ عام وذلك لنقل الماء إلى الأراضي المرتفعة في موسم الفيضان . أما الاهتمام بقنوات الري والصرف في العراق فإنه يرجع إلى ما قبل السومريين، أي إلى حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م.، إذ مارس سكان ما بين النهرين الزراعة المروية من القنوات التي كانت تنظف سنويا من الطمي، واعتبروها شريان الحياة في الأراضي الزراعية . وقد نصت قوانين حمورابي (١٧٦٠ق.م.) على اعتبار أن الماء وأقنية الري أساس دعم الدولة، تجب صيانتها وتنظيفها سنويا، ويعتبر الاعتداء عليها جرما يعاقب عليه القانون. وقال بختنصر ملك بابل يفتخر بما حققه من منجزات في هذا المجال ". . حفرت القنوات، وبطنتها بالطوب المحروق والقار . . "[٩].

رغم ذلك فان بعض الباحثين يرجعون أصل القنوات إلى إيران القديمة إلى سنة ٥٠٠ ق.م.، ويرجح انتشارها بصورة كبيرة في سنة ٧٠٠م[١٠] . ويذكر الموصلي[١١] أن الساسانيين قد أدخلوا نظام السواقي، وحفرت في عهدهم قناة النهروان الكبيرة، وكانوا كلما ازداد عدد السكان زاد حفر القنوات لزيادة المساحة المروية،حيث بلغ عددها حوالي ٢٥,٠٠٠ قناة[١٢]، وفي مصدر آخر ٤٠,٠٠٠ قناة، يزيد طول بعضها على ٨٠ كيلومتراً، وامتدت لأكثر من ٢٧٠ ألف كيلومتر تحت سطح التربة، ووفرت أكثر من ثلث حاجات البلاد المائية[١٣] . وتعطي بعض هذه القنوات تصريفاً مائياً يصل إلى ٥٠٠ جالون ماء في الدقيقة . هذا وقد نقل الفرس تقنية الري هذه إلى جميع المناطق التي كانت تحت سيطرتهم.

وقد استخدمت القنوات في مصر بعد أن احتلها داريوس الأول عام ٥١٨ ق.م.. حيث يشير المؤرخ اليوناني بوليبيوس إلى وجود قنوات تحت أرضية في القرن الثاني ق.م . أما

شمال أفريقيا وأسبانيا فقد أدخل نظام القنوات إليهما عقب الفتوحات الإسلامية لهذه المناطق(١٤).

ولاتزال سلطنة عمان تستخدم نظام القنوات حتى وقتنا الحاضر تحت مسمى "الافلاج"، والافلاج (جمع فلج) عبارة عن سيل من الماء تحت الارض ينزح الماء من مستوى الماء الجوفي ثم يخرج بعد ذلك إلى سطح الارض موزعاً الماء بقنوات(١٥). ويضيف ولكنسون أن السكان المحليين يجهلون تاريخ القنوات وهم يردونها إلى الملك سليمان بن داود منذ عشرة آلاف سنة، ويقولون أن الجن الذين سخرهم الله لسليمان عليه السلام هم الذين بنوا القنوات، إلا أن العديد من المصادر التاريخية يتفق على أن الافلاج الموجودة في عمان قد نشأت خلال العصر الإخميني(١٦)، وأن فترات الحكم الساساني في عُمان قد شهدت زيادة واتساعاً في إقامة شبكات قنوات الري(١٧). وتصل أطوال بعض القنوات في واحة البريمي إلى أكثر من تسعة كيلومترات، وقد تراوحت أطوال عشر قنوات تحت سطح الأرض في هذه الواحة ما بين ٣ إلى ٩,٥ كيلومتر(١٨).

وفي البحرين كانت توجد شبكة رائعة لهذا النظام في الساحل الداخلي غرب البحرين(١٩). كما وصف بيبي قنوات الري في منطقة العين بدولة الإمارات العربية المتحدة فذكر أن بساتين مدينة العين تروى بواسطة القنوات" والتي قابلناها أول مرة في البحرين"(٢٠). وبالنسبة للاحساء فقد أدخل نظام القنوات متأخراً غير أنه لم ينل شعبية، فتم التخلي عنه على الرغم من أنه يمكن استخدامه حتى في الوقت الحاضر على نحو مفيد(٢١). وفي اليمن وزعت مياه سد مأرب في أقنية يمين المجرى القديم وشماله. كما توجد القنوات القديمة في منطقة جرش في الأردن، وفي سوريا ومن نهر بردى شقت الأقنية العديدة لري غوطتها، وقد حفرت أعلى هذه الأقنية وأحدثها أيام يزيد بن معاوية، وسميت بقناة يزيد(٢٢).

طريقة حفر القنوات

لغرض إنشاء قناة للري يتم أولاً اختيار موقع لحفر بئر تجريبية أو اختبارية وذلك اعتماداً على وفرة

الأعشاب الخضراء والتي تشير إلى وجود كميات من المياه، وعادة ما يكون الموقع المختار على انحدار جبل ما أو سفح أحد التلال . وبعد ظهور الماء في البئر التجريبية يتم تحديد مجرى القناة تحت الأرضية والتي تتطلب حفر مجموعة من الآبار أو الجذوع الراسية تصل المسافة بينها إلى حوالي ٤٠ ياردة، ويتم تغليف الجزء العلوي منها إما جزئيا أو كليا (حوالي بضعة امتار) او جميع البئر بالحجارة لتدعيمها، كما يتم تبطين القناة بالآجر . ويبلغ عرض القناة نحو ٣ أقدام وارتفاعها نحو ٤,٥ قدم، ويميل النفق إلى الأسفل بانحدار تدريجي من مصدر الماء ليسهل جريان الماء ببطء إلى الحدائق أو المزارع، وحتى لا تؤدي سرعة الانحدار إلى تآكل جوانب القناة . ويتم رفع بقايا حفر القنوات إلى أعلى عبر تجويف التهوية بواسطة دلاء وتوضع في فم التجويف لإعطائه مظهر الفوهة التقليدية[٢٣] .

ويتطلب حفر القناة جهداً كبيراً خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أنه لم تكن تستخدم أية معدات في عمليات الحفر آنذاك . فعملية شق القنوات صعبة، محفوفة بالمخاطر ولذا وصفها الإيرانيون بالعملية المهلكة وأطلق على القائمين عليها اسم القتلة . وتعتبر عملية وصل القناة بمصدر الماء أخطر العمليات إذ تستوجب تفريغ القناة من الحفارين ثم نزع السداد بعناية تامة لتجنب الحوادث، وإلا فإن الماء المندفع يتسبب في غرق الحفارين . وعند الانتهاء من حفر القناة يتم سد تجاويف التهوية (بمدخنة حجرية) تساعد على تفقدها وتنظيفها بصورة دورية[٢٤] . وبعد أن يتم حفر القنوات تفرغ المواد المحفورة حول فوهات أعمدة التهوية مما يعطيها شكل الحفرة . وأعمدة التهوية تعتبر ضرورية لغرض تنظيف القنوات من حين لآخر . ويتم التحكم بتدفق كميات المياه في مثل هذا النظام الواسع بواسطة بوابات .

قنوات الري في البحرين

وصف جواد علي[٢٥] قنوات الري في البحرين فقال :

"وفي جزر البحرين قنوات يظن أنها من عمل الساسانيين، أقاموها للاستفادة من المياه المتدفقة من العيون، وهي أخاديد حفرت في

الأرض ثم بطنت بمادة تمنع الماء من التسرب إلى التربة ثم سقفت بصفائح من الحجر، أهيل عليه التراب لتمنع أشعة الشمس من الوصول إلى الماء فتبخره، وبذلك تقل كمياته. وبين مسافة وأخرى تقدر ما بين عشرة وعشرين ياردة توجد منافذ لمرور الهواء إلى باطن القناة. وقد بطنت هذه المنافذ بالحجارة، وقد أقيمت جدر عند مخارجها إلى الأرض لتحميها من سقوط الأتربة فيها. ولا تزال بعضها عامرة تجري فيها مياه العيون حتى الآن. وهناك آثار قنوات مشابهة لها تقع في السواحل المقابلة للبحرين من المملكة العربية السعودية تعود إلى هذا العهد أيضاً". وقد ساعد بناء القنوات في البحرين على الاستغلال الأمثل للمياه وثبات الرقعة الزراعية فيها.

يرجح لارسن[٢٦] أن تقنية الري بواسطة القنوات قد عرفت في البحرين إبان النفوذ الساساني، أو ربما في تاريخ أقدم نتيجة لاحتكاك أهالي البحرين بحضارات ماجان (عُمان) وإيران وبلاد الرافدين التي وجد بها هذا النظام منذ القدم. أما بلجريف فقد أشار إلى أن فكرة بناء هذه القنوات جاءت إلى البحرين منذ عدة قرون قبل الاحتلال البرتغالي بين القرن الخامس عشر إلى السادس عشر، ومنذ ذلك الأمد ليس هناك تسجيل حول تاريخ بناء القنوات لذا لا توجد مصادر أخرى تحدد تاريخ انشائها[٢٧].

ويرجع تاريخ القنوات في البحرين إلى ما قبل الإسلام فهناك ذكر لحرب جرت بالقرب من الدراز (شمال غرب جزيرة البحرين) في القرن السابع الميلادي واستعملت هذه القنوات بواسطة من اشتركوا في هذه الحرب[٢٨]. وورد في روايات تاريخية محلية أن البحرينين انتفعوا بهذه القنوات خلال حرب قامت في القرن الثامن بين أهالي البحرين وجيش أرسله الخليفة، ومر البحرينيون من خلال هذه القنوات حتى وصلوا إلى مؤخرة العدو فجأة وهاجموه هجوماً ناجحاً[٢٩].

كما استخدمت القنوات في الحروب فقد استخدمها الشيخ أحمد الفاتح عام ١٧٨٣م في اقتحام قلعة الديوان التي التجأت إليها حاميتها وعائلة الشيخ نصر ومن والاهم في المنامة وذلك بعد انسحاب الشيخ نصر آل مذكور إلى بوشهر إثر فشله في حصار الزبارة، حيث يذكر التاريخ أنه

"كانت في وسط القلعة عين ماء جارية يشرب منها سكان القلعة ويجري ماؤها في جدول متجها شمالاً خارج القلعة والجدول مسقوف وبه عدة فتحات للنور والهواء تعرف (بالتناقيب) ويمر بفريق (المبشر) في المنامة ثم يسقي بستانا داخل المنامة يعرف (بالباخشة)، والباغجة تصغير كلمة (باغ) الفارسية وتعني البستان، وكان أهل المنامة يشربون وينتفعون من مياه هذا الجدول الجارية إلى البستان والمارة ببيوتهم. وقد وضع الشيخ أحمد مع الخاصة من رجاله خطة لاقتحام القلعة عن طريق هذا الجدول أو المشبر كما كان يسمى، فاختار نخبة من رجاله الأشداء يحملون السيوف وأمرهم أن يدخلوا القلعة من هذا الجدول أو المشبر. وفعلاً دخل الرجال في الجدول وهو يشبه النفق حيث كان مسقوفا ولما وصل أولهم إلى فتحة العين فوجىء رجل كان يغتسل في العين بخروج الرجال عليه من جدول الماء، وفعلاً خرج الرجال من العين واتجهوا للبوابة وفتحوها، ودخلت القوات القلعة واستسلمت حاميتها، وعادت البحرين بدخول أحمد الفاتح إلى الحكم العربي حتى الوقت الحاضر[٣٠].

هذا ويسهل تتبع هذه القنوات حيث توجد وعلى بعد كل خمسين ياردة مدخنة حجرية تصل ما بين السطح والقنوات وتقف رؤوس تلك الأعمدة المجوفة ناتئة فوق الأرض بارتفاع يتراوح بين قدم و أربعة أقدام بشكل خطوط تمتد وتصل إلى ميل أو ميلين حتى بلوغها جداراً يحيط بمصدر المياه المزود للقناة. وتبدو القنوات في البحرين من الأعلى أو من الجو بهيئة سلاسل طويلة لحفرات صغيرة وسط منطقة جافة، هذه الحفر هي فوهات القنوات التي وجدت للتهوية والتنظيف[٣١].

ويصف بيبي مصادر المياه في قنوات البحرين بقوله : "يحيط الجدار بالمنطقة إلى حد قد يمتد إلى مائتي ياردة طولاً وذلك على نحو بيضاوي. ويهوي الجانب الداخلي للجدار بحدة إلى عمق قد يصل إلى عشرين أو ثلاثين قدماً. ولا توجد هناك أي تربة في المنطقة المسيجة. فالأرض الكلسية قد تكسرت بسلاسة إلى قميمات ومنحدرات تنتشر بها الحشائش وقد انتصب بها ما يقارب العشرين نخلة. وترى الماء في تجاويف الصخور صافيا مثل البلور،

في جريان دائم من العيون التي في الأعماق، يتدفق في سلاسل من الجداول بشلالاتها المصغرة تتساقط على صدوع الصخر، هذه هي العيون التي غذت القنوات بالماء[٣٢] .

ونظراً لأن أرض البحرين مستوية ومستوى الماء فيها مرتفع فإن القنوات بنيت بصورة مفتوحة أو مكشوفة كالخنادق ومن ثم غطيت أو سقفت بألواح من حجر الكلس أو بصخور مسطحة (تدعى الفروش) وقد بني السقف على شكل مقوس ثم غُطي بالتراب ليتساوى ومستوى سطح الأرض . ثم غطيت بالتربة حتى سطح الأرض[٣٣] . وتوجد بين كل ١٥ ياردة منافذ للتهوية يتراوح قطرها بين قدمين وخمسة أقدام[٣٤] . وفي هذا الصدد يذكر بلجريف أنه عند فتحة التهوية لقناة الماء التي تجري غربي قرية (الشاخورة) توجد غرفة كبيرة تحت الأرض تستخدم كصالة الاستحمام، ولها سقف عالٍ مقوس ذو أعمدة تتشعب من عمود مركزي، ولها سقف خاص وأرضية من الجبس المتين مغطى بالرمل الأبيض الناعم، ويوجد مجرى ماء بارد لا ينقطع انسيابه خلال الغرفة، ما زال يستعمله سكان القرى المجاورة كحمام حيث يذهبون اليه إبان حرارة الصيف ويجلسون في راحة بالمكان الظليل البارد تحت سطح الأرض[٣٥] .

ويعتقد بيبي[٣٦] من ملاحظاته الميدانية "إن أنفاق الري حفرت ربما بمستوى الأرض أو تحته قليلا وقد غطيت من الأساس لمنع البخر، ثم تراكمت عليها الرمال وأن الجدار الواقي للينابيع والمدخنات التي تتصل بالقنوات قد بنيت تدريجاً لتتناسب وسرعة الرمال الزاحفة". ويضيف بيبي "وتبرهن نهايات الينابيع عند رأس القنوات بقوة على أن كميات هائلة من الرمال قد تراكمت في بعض مناطق البحرين عبر العصور التاريخية"[٣٧] .

إن قنوات البحرين ما هي إلا أنفاق للماء تحت الأرض غالباً ما تجري على عمق ٢٠ قدماً وأكثر تحت السطح وتمتد لأميال عديدة وذلك من المنحدرات السفلى لتلال البحرين الوسطى، إلى الأراضي الواطئة على الساحل الغربي حيث القرى الزراعية[٣٨] . ومن المعتقد أن سلسلة القنوات المائية في المنطقة الغربية من البحرين قد بنيت لحفظ

المياه من التبخر، أو بسبب ندرة العيون الطبيعية في هذا الجزء من البلاد ووجود أرض خصبة، ولوفرة مياه العيون في الجانب الشرقي من البلاد بدرجة أكثر من حاجتها ؟ فهي تسقي البعيد وتخلي القريب ؟. أو لتعرض الجزيرة لفترات جافة، ولولا بناء القنوات لاندثرت القرى الزراعية التي تتزود بالمياه عبر هذه القنوات . ولعل الحاجة لبناء القنوات في البحرين جاءت نتيجة لازدياد عدد القرى، أو الرغبة في التوسع للمدن والقرى، أو لزيادة الرقعة الزراعية، وبناؤها قد يعكس فترة ازدهار حضاري وزيادة في عدد سكان الجزيرة .

ومن المعروف أن الاستيطان، والكثافة السكانية، وعدد القرى، وتراصها في جزيرة البحرين كان وعلى مدى العصور متمركزاً على السواحل الشمالية للجزيرة، نظراً لما امتازت به هذه الأجزاء من انخفاض في سطحها، وقلة تضاريسها، وخصوبة تربتها نسبياً، إضافة إلى وفرة العيون الطبيعية وغزارتها والتي جاءت كانعكاس مباشر للفواصل والصدوع في النطاقات تحت السطحية في هذا الجزء من الجزيرة والتي كانت بمثابة ممرات للمياه العذبة المحصورة في باطن الأرض نحو سطحها . غير أن الشواهد الآثارية توضح بجلاء أن امتداد الاستيطان في البحرين (نحو الجنوب الغربي) خلال فترات محددة ارتبط بعوامل حضارية، أو اقتصادية، أو بيئية[٣٩] . فأول شواهد للتوسع الاستيطاني في جزيرة البحرين كانت بين ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ق.م. حيث وجدت بقايا آثار حضارة العبيد المتأخرة على طول الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة، على بعد حوالي ٣٠ كم من الساحل الشمالي. ثم انحسر الاستيطان بداية الألف الرابع ونهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وعاد وامتد ليشغل معظم أرض الجزيرة في نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد في عصر باربار الثانية خاصة الاستيطان الزراعي ليعكس التطور في مركز دلمون الحضاري وازدهار علاقاتها التجارية مع الجزيرة العربية وفيلكا وبلاد الرافدين .

وفي نهاية الألف الثاني قبل الميلاد ضاقت المستوطنات وتراجعت نحو مراكز المياه في الساحل الشمالي . وفي الألف الأول قبل الميلاد توزعت المستوطنات جنوباً تارة أخرى إلا أنها

لم تتجاوز الكيلومترات العشرة من الساحل الشمالي، واستمر ذلك إلى بداية الألف الأول بعد الميلاد بما فيها الفترة الإغريقية والنفوذ الفارسي في الخليج. تلا ذلك انحسار الاستيطان نحو الساحل الشمالي للجزيرة منتصف الألف الأول بعد الميلاد متزامناً مع الفترة الساسانية. ثم توسع الاستيطان ليصل إلى نحو ٤٠ كيلومتراً جنوب الساحل الشمالي وذلك في بداية الفترة الاسلامية وبلغ ذروته خلال القرون الوسطى المتأخرة[٤٠] .

إن التوسع الاستيطاني في جزيرة البحرين غالباً ما عكس فترات استقرار اقتصادي في الدولة كانت فيها البحرين مركزاً تجارياً مهماً مما أوجد الحاجة لزيادة مواقع الاستيطان نظراً لزيادة عدد السكان من جهة وتضاعفه بنزوح مجموعات إليها من الخارج من جهة أخرى . ولا بد والحالة هذه أن توجد حاجة ماسة للمياه في البقاع الخصبة كالأجزاء الجنوبية الغربية من الجزيرة (والتي تفتقر إلى مصدر للمياه العذبة المتمثلة في البحرين بالعيون الطبيعية)، مما دفع سكانها إلى شق القنوات .

مصدر الماء العذب في قنوات البحرين

لقد ساعد كل من الوضع الهيدرولوجي الخاص بجزيرة البحرين، والوضع الطوبوغرافي الملائم لإنشاء القنوات في الأجزاء الغربية للجزيرة، في توفير البيئة المناسبة لعمل القنوات والاستفادة من مياه العيون الزائدة . وقد توج ذلك بقدرة الإنسان البحريني على تحمل صعوبة ومشقة هذا العمل، ومهارته وإبداعه الهندسي والذي يتمثل في العديد من الشواهد الباقية آثارها إلى يومنا هذا، ومنها قنوات الري.

فالقنوات في العديد من البقاع تقوم وكما سبق وأشرنا على أساس أن الجبال تتلقى كميات من الأمطار تزيد على تلك الكميات التي تتلقاها المناطق المنخفضة، مما يؤدي إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية في المناطق الجبلية، ويعمد إلى استغلال هذه المياه عن طريق حفر قنوات ذات انحدار طفيف يسمح بانحدار الماء وانسيابه نحو السهول أوالمراوح الطميية الواقعة عند سفوح الجبال. أما في البحرين فإن قنوات الري تعتمد على مياه العيون التي تمثل أحد أشكال التصريف الطبيعي

للمياه الجوفية القادمة عبر خزان الدمام الجوفي من الجزيرة العربية، والموجودة تحت ضغط مائي (بيزومتري) مرتفع، والمتدفقة عبر الكسور أو الصدوع المتمركزة في الأجزاء الشمالية من جزيرة البحرين.

وخزان الدمام الجوفي (الخزان المائي الرئيسي في البحرين) يمثل جزءاً صغيراً من الخزان المائي الواسع المسمي بالخزان العربي الشرقي، والممتد من صحراء الدهناء وسط المملكة العربية السعودية إلى المنطقة الشرقية بالمملكة والبحرين والكويت وجنوب غربي قطر. يحتوي هذا الخزان الاقليمي أساساً على مخزون مائي أحفوري يعود إلى مابين ٦٠٠٠ و٢٢٠٠٠ سنة خلت حينما كانت جزيرة العرب تتمتع بمناخ مطير[٤١]، كما تتم تغذيته حالياً بمياه الأمطار حيث توجد منكشفات طبقاته على ارتفاعات تصل الى ٤٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر في المناطق الوسطى للمملكة[٤٢]. وتتدفق مياه هذا الخزان الإقليمي نحو الشرق والشمال الشرقي باتجاه ميل طبقاته لتغذى خزانات منطقة الساحل الغربي للخليج العربي وجزر البحرين. وتعد مياه العيون الطبيعية في البحرين أحد أشكال التصريف الطبيعي لهذا الخزان الإقليمي[٤٣].

وتتميز العيون الطبيعية في دولة البحرين بأنها من نوع العيون الانجذابية الارتوازية التي ينتج تدفق الماء منها بفعل علاقة مستوى السطح المائي في الخزان الجوفي بمستوى سطح الأرض، حيث يتدفق الماء المحصور في الخزان الجوفي والواقع تحت ضغط ارتوازي بفعل وجوده بين طبقتين قليلتي النفاذية من خلال مواقع الضعف في الطبقة الحاصرة العليا (كالتشققات، الفوالق، نقص في سمك الطبقة، ألخ...). فعندما يكون مستوى السطح المائي في الخزان الجوفي أعلى من مستوى سطح الأرض في الينبوع تبدأ المياه في التدفق، ويتميز هذا النوع من الينابيع بسرعة الجريان وارتفاع معدل التصريف مقارنة بالأنواع الأخرى من الينابيع كينابيع الانخفاضات والتلاقي. ويتناسب معدل التصريف في هذا النوع من الينابيع تناسباً طردياً مع الفرق بين المستوى البيزومتري أو المائي في الخزان الجوفي ومستوى سطح الأرض، بينما يتوقف الينبوع عن التدفق عندما

يكون المستوى البيزومتري مساوياً أو أقل من مستوى سطح الأرض في الينبوع[٤٤].

هذا الوضع الهيدرولوجي الملائم توافق مع وضع طوبوغرافي ملائم لإنشاء القنوات في الأجزاء الغربية لجزيرة البحرين والتي تمتاز بخصوبة أرضها، وقلة تضاريسها، وانحدارها الطفيف نحو البحر مما جعلها ملائمة من كل النواحي الهيدرولوجية والطوبوغرافية والهندسية لإقامة القنوات.

أسباب تدهور القنوات في البحرين

للوقوف على أسباب ما آلت إليه القنوات من تدهور واندثار في البحرين لابد من الوقوف أولاً على أسباب تدهور مصادر مياهها، إذ أن القنوات بقيت تستخدم في البحرين حتى بداية هذا القرن حينما كانت العيون تتدفق تلقائياً بغزارة فقد وصف النبهاني الطائي[٤٥] الذي زار البحرين أوائل هذا القرن (١٩١١م) البحرين في كتابه التحفة النبهانية فذكر بأنها "جزيرة كثيرة المياه العذبة، ولكثرة ينابيعها البحرية وعيونها البرية كانت في غاية الخصوبة ...، ويوجد في وسط البحر جملة ينابيع عذبة تفور بقوة، فيغوص عليها المستقون فيملأون منها القرب للسفن ولشرب غالب أهل البلدة وأن من الواقعة على ساحل البحر لما يتدفق ماؤها ويسيل على وجه الأرض، ومنها إذا جزر البحر ظهرت فاستقوا منها، وإذا مد البحر علاها بنحو ستة أذرع فيغوصون عليه للاستقاء ... وعدد الينابيع البحرية المشهورة عندهم نحو٢٥ ينبوعاً غير الصغار والمجهولة الاسم، وعدد التي في البر نحو ٢٠٠ عين وذلك غير الصغار، وغالبها كان يسيح على وجه الأرض ثم يفيض في البحر ...، وفي الحقيقة أن البحرين أكثر البقاع مياهاً مع أنها جزيرة".

ولعل هذه الغزارة في مياه العيون وفيضانها في البحر، والحاجة إليها في موقع آخر يفتقر إلى المياه رغم خصوبة أرضه، هو ما دفع بالإنسان البحريني قديماً إلى التفكير في الإستفادة من هذه المياه العذبة وذلك عن طريق بناء القنوات وإحياء الأرض بدل هدرها في البحر أو زيادتها الضارة أحياناً أخر. ومن منطلق الحرص على هذا الإرث المهم جاءت بعض مواد قانون الري في البحرين (المواد ٥، ٦، ٨، ١١، ٢٤،

و ٣٠) والذي حرر في ٩ شعبان ١٣٧٩هـ لتعالج أمور توزيع كلفة صيانة وإصلاح القنوات والعيون على الملاكين والمستفيدين منها ووجوب المحافظة عليها من أي ضرر، لتعكس اهتمام المستفيدين والحكام بعيون البحرين وقنواتها[٤٦].

غير أنه ومنذ مطلع الثلاثينات من هذا القرن ، وإثر اكتشاف النفط في البحرين وما صاحب ذلك من تغيرات اقتصادية واجتماعية أدت إلى توسع عمراني وتزايد مطرد في عدد السكان ومستوى المعيشة، حدث ارتفاع في معدلات الطلب على الماء، وأصبح حفر الآبار ضرورة لابد منها، وبزيادة عدد الآبار زادت الكميات المسحوبة من المياه الجوفية وتجاوزت معدلات التصريف الطبيعي للخزان، مما أدى إلى استنزاف خزان الدمام الجوفي في البحرين، مسبباً إنخفاضاً حاداً في مستوياته المائية رافقه تدهور في نوعية مياهه، الأمر الذي أثر بشكل مباشر على تدفق المياه في العيون الطبيعية، فتدهورت مياه جميع العيون تدهوراً كبيراً تمثل في ضعف تدفقها بل جف العديد منها، وإن استمر فهو قليل جداً كذلك ازدادت نسبة ملوحة مياهها[٤٧]، مما انعكس على معدل تدفق هذه المياه عبر القنوات .

وفي هذا السياق يتطرق بلجريف إلى هذا الموضوع فيذكر "وفي العشرينات والثلاثينات قام الرائد فرانك هولمز بحفر عدة آبار ارتوازية مما غير نظام الري في البحرين جذرياً وأدى إلى زيادة مساحة الأرض الزراعية، ولكن في وقت لاحق انخفض مستوى المياه بسبب كثرة الآبار الارتوازية التي حفرت مما أدى إلى جفاف بعض الحدائق في جنوب الجزيرة"[٤٨] .

فبعد أن كانت المستويات المائية لخزان الدمام في البحرين عام ١٩٢٥ تتراوح ما بين متر واحد إلى أربعة أمتار فوق سطح البحر في المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من جزيرة البحرين، حيث توجد معظم العيون الطبيعية . أصبحت هذه المستويات المائية تتراوح ما بين الصفر والمترين فوق مستوى سطح البحر في عام ١٩٩٢ في نفس المناطق، الأمر الذي أدى إلى انخفاض المستوى المائي في منطقة العيون ومن ثم قل تدفقها أو توقفت عن التدفق بشكل نهائي[٤٩] .

ويصف لارسن[٥٠] قنوات الري بين قرية صدد وعين صخارة المعروفة فيذكر

أن ارتفاع قاع العين التي تغذي القناة هو ٤,٣م في حين أن ارتفاع قاعدة مخرج أو نهاية القناة (outlet) يبلغ ٦م، وهذا يعني أنه في الوقت الذي حفرت فيه هذه القناة فإنه لابد وأن ارتفاع سطح الماء في العين كان أعلى من حد أو عتبة نهايتها . وقد قامت الشركة الاستشارية (GDC) بإجراء قياسات للقناة في عام ١٩٧٩، واستنتجت أنه لابد وأنه قد حدث انخفاض في مستوى الماء لا يقل عن ٤م منذ أن توقف الماء عن الجريان في هذه القناة[٥١] .

يتبين مما سبق أن قنوات البحرين مرت بتدهور متسارع، أدى إلى جفافها، وردمها، أو تهديمها، هذا التدهور الذي طرأ عليها ما هو إلا انعكاس واضح لتردي الحالة العامة لمياه خزان الدمام الجوفي الذي تستمد القنوات مياهها منه . حيث أدى الاستخدام غير المدروس لمياه خزان الدمام بمعدلات سحب تزيد بمقدار الضعف عن الحد الآمن المقترح من طاقته الإنتاجية خلال السنوات الماضية إلى تدهور عام في كمية ونوعية مياهه، الأمر الذي انعكس على العيون الطبيعية ومعدلات تدفقها، وجريان المياه في قنواتها . ولعل هذا الأمر دفع المستفيدين منها إلى إهمالها وعدم صيانتها مما سارع في تدهورها. ولربما سهولة حفر الآبار وقلة تكلفتها وعدم تطلب صيانتها أسوة بالقنوات قد ساهم في تدهور قنوات الري في البحرين .

ويصف بيبي تدهور القنوات في البحرين أواسط القرن الحالي فيذكر "لقد أدى انخفاض مستوى الماء في العيون التي تستمد قنوات الري منها مياهها ولم يعد ينبع منها إلا بقدر البخر السطحي من البرك المتكونة . ويمكن رؤية مدخل القناة في أحد أركان ذلك السياج وقد علت قاعدتها بما لا يزيد عن قدم فوق مستوى الماء ولكنه لم يعد ينساب فيها . وكان واضحاً في بعض الأحيان أن الماء منخفض إلى درجة لم يعد بالإمكان فيها أن يعاود انسيابه أبداً، وفي أحيان كان كل المطلوب تنظيف القناة بالاستفادة من المدخنات التي بنيت دون شك لأجل هذا الغرض، فيعاد فتح القناة للري مرة أخرى . ولكن ذلك لم يتم . فعلى نهاية المنحدر الذي يمتد لمسافة ميل واحد وحيث تقوم القرى التي كانت القناة تخدمها، فإن الزراعة – إذا كانت لاتزال قائمة – تتم ممارستها بالاعتماد على حفر تحفر إلى

الطبقات التي تحوي الماء وباستعمال المضخات العاملة بالبنزين ، يمكن سحب الماء باستهلاك طاقة أقل، وبقدر أدنى من الخطر مقارنة بالحال التي كانت قائمة حين بناء تلك الأنفاق تحت الارض وصيانتها[٥٢] . وهكذا أصبح حفر بئر أمراً أسهل وأقل تكلفة وأضمن للحصول على أكبر كمية من المياه ولا تحتاج إلى جهد كبير لصيانتها .

آثار القنوات اليوم

والقنوات في البحرين غير مستعملة حالياً ومهجورة وتحولت إلى أطلال متداعية وبعضها ردم أو سد بالتراب على مر السنين، أودمر خلال النمو الحضري الذي واكب الزيادة في عدد السكان، باستثناء جزء منها على امتداد قصير قرب قرية صدد . وهناك نظام القنوات في دار كليب على امتداد ميل ونصف الميل (بين شارع الرفاع الهملة وشارع عوالي الزلاق) إذ يشاهد كثير من القنوات الواسعة الجافة تماماً وقد تبقت أجزاء من جدرانها الداخلية فقط. ولكن يمكن اقتفاء أثر خط سيرها على السطح باتباع سلسلة بقايا منافذ التهوية ويستوجب ذلك توخي الحذر عند المشي على خطوط هذه القنوات خشية السقوط فيها[٥٣] . كما توجد مثل هذه القنوات على بعد ميل تقريباً شمال شهركان . ويبدو أن أقصى خط للقنوات كان ينتهي عند شارع قرية الزلاق ومن هناك وباتجاه الجنوب كان يمكن الحصول على الماء عن طريق الآبار[٥٤] .

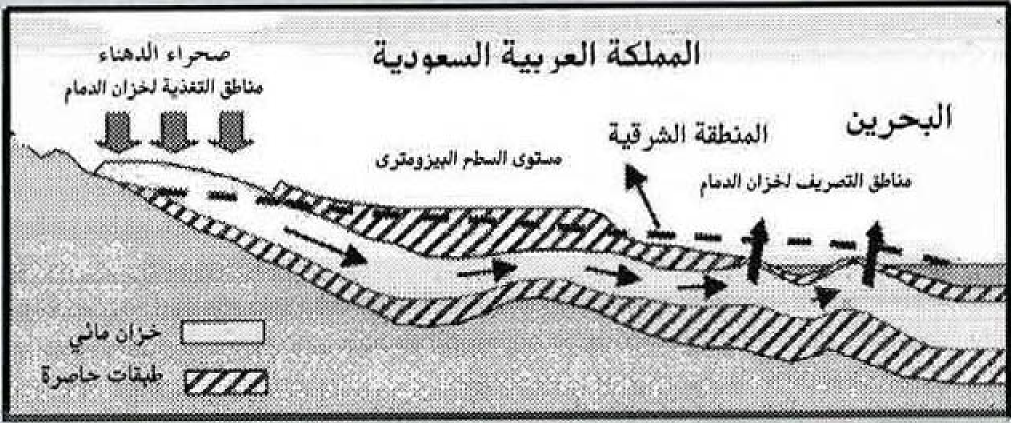
الخلاصة

لقد ساعد كل من الوضع الهيدرولوجي والوضع الطوبوغرافي الملائم في الأجزاء الغربية من جزيرة البحرين على إنشاء القنوات، رغم صعوبة ومشقة هذا العمل وليست هذه إلا أحد شواهد الإبداع الهندسي للإنسان البحريني، وحكمة وحسن تدبير والإدارة الكفء للموارد.

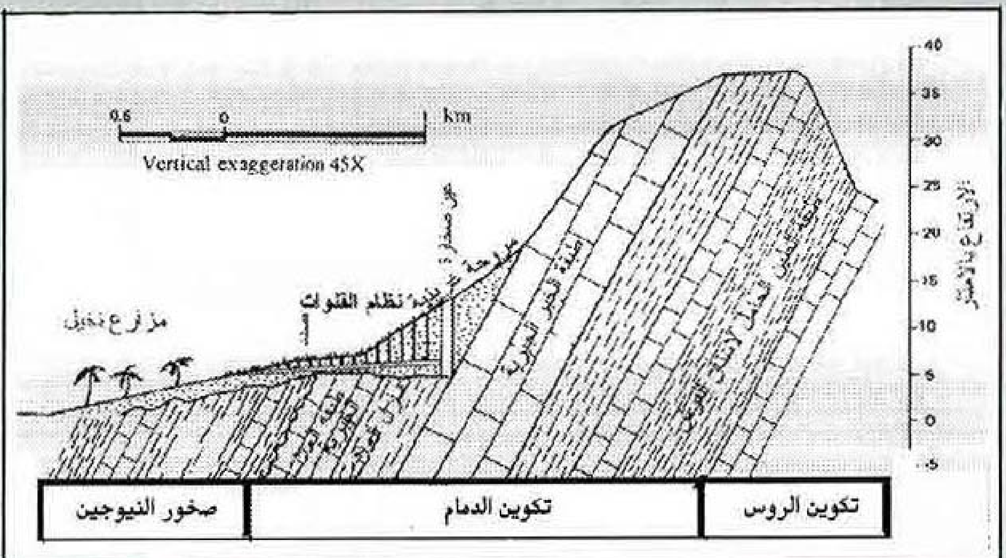
وبما أن القنوات في دولة البحرين تمثل أحد أشكال التصريف لمياه خزان الدمام الجوفي وتستمد مياهها منه، فإن التدهور العام الذي طرأ عليها في الفترة الماضية ما هو إلا انعكاس واضح لتردي الحالة العامة لمياه هذا الخزان، حيث أدى استغلال مياه خزان الدمام بمعدلات سحب تزيد بمقدار الضعف عن الحد الآمن المقترح من طاقته الإنتاجية إلى تدهور عام في كمية ونوعية مياهه، الأمر الذي انعكس على العيون الطبيعية ومعدلات تدفقها ونوعية مياهها، كذلك على تدفق المياه في القنوات . ونظراً لأن تغير وضع خزان الدمام الجوفي هو أمر غير وارد في المستقبل القريب حسب الدراسات الهيدرولوجية الحديثة، فإن الدراسة الحالية توصي بضرورة مسح قنوات البحرين، والاهتمام بها وإبراز قيمتها التاريخية والتراثية ودراسة إمكانية إدخالها ضمن الخطة الحالية لتطوير المناطق السياحية التراثية الجديدة في البلاد، والاستفادة منها كمواقع سياحية مع محاولة التركيز على الإحياء البيئي والتنمية البيئية وخدمة أهداف السياحة البيئية.

د . أسماء علي أباحسين و هند عبد العزيز القصيبي

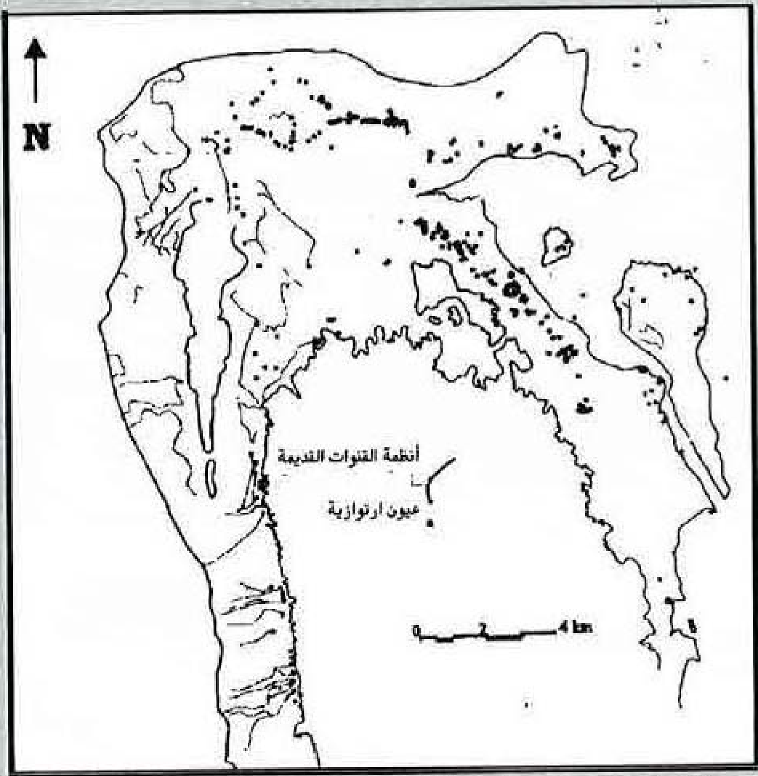
جامعة الخليج العربي- البحرين



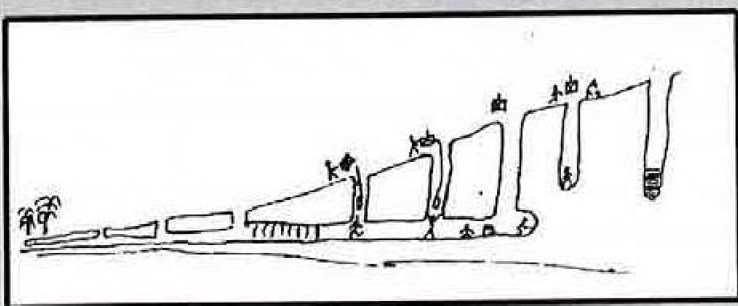
قطاع هيدرولوجي مبسط للخزان العربي الشرقي



مقطع جيولوجي في الساحل الجنوبي الغربي لجزيرة البحرين (محور عن لارسن، ١٩٨٣)



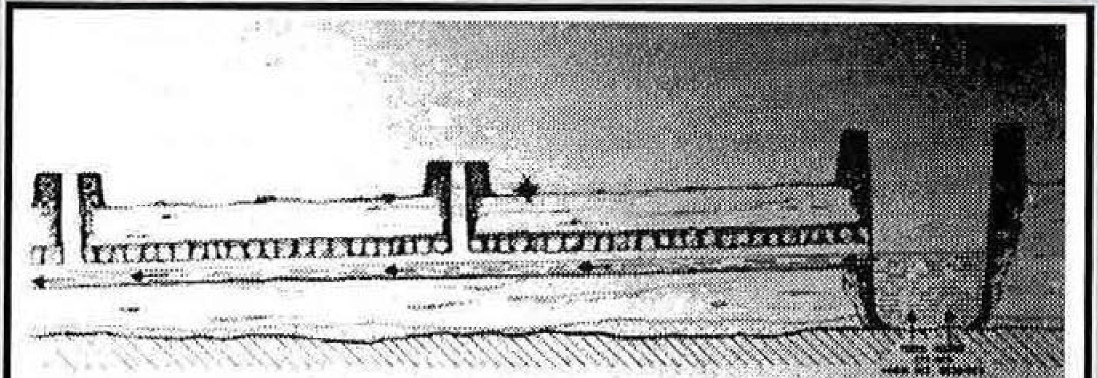
أنظمة قنوات الري القديمة في الجزء الغربي من جزيرة البحرين



مخطط يوضح الأسلوب المتبع في حفر القنوات



صورة لداخل إحدى قنوات الري في منطقة صدد



شكل تخطيطي لقناة ري

الهوامش

١ – كلارك، أنجلا، ١٩٨٥، جزر البحرين دليل مصور لتراثها، ترجمة الدكتور محمد الخزاعي، منشورات جمعية تاريخ وآثار البحرين، ص ١٧٤ .

٢ – محمدين، محمد محمود وحسن عبد العزيز أحمد، ١٩٨٥، الأقاليم الجافة دراسة جغرافية في السمات والأنماط، ص ٢٩٨ .

٣ – المنجد، ط ٢٦، ص ٥٩٢ .

٤ – Wilkinson, J.C., 1977 . في محمدين وأحمد، ص ٢٩٨ .

٥ – كلارك، ص ١٧٤ .

٦ – محمدين وأحمد، ص ٢٩٩ – ٣٠١ .

٧ – الموصلي، عماد الدين، ١٩٨٤، مشكلة ري الأراضي الجافة وزراعتها في بعض مناطق العالم الإسلامي، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد الأول، ص ٣٠٥ .

٨ – كلارك، ص ١٧٤.

٩ – الموصلي ، ص٣٢٠.

١٠ – محمدين وأحمد، ص ٢٩٨.

١١ – الموصلي ، ص ٣٢٠ .

١٢ – كلارك، ص ١٧٤ .

١٣ – (More water for arid lands, Washington,D.C. 1974, p.65) . في محمدين وأحمد، ص ٢٩٩ .

١٤ – ولكنسون، جي . رسي، ١٩٨٦، الأفلاج ووسائل الري في عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط ٢، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان، ص ٦٥ ، ص ٤٤ .

١٥ – ولكنسون، ص ٦٥ ، ص٧١ .

١٦ – الأحمد ، سامي سعيد ، ١٩٨٥م . تاريخ الخليج العربي من أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي . مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ص ٣١٠؛ وولكنسون، ص ٧٠ .

١٧ – ولكنسون، ص ٧٤ .

١٨ – محمدين وأحمد ، ص ٣٠٣ .

١٩ – موللي، جون، وفايز الطراونة . قنوات المياه القديمة في البحرين، نشرة دلمون ، ١٩٧٦ .

٢٠ – بيبي، جيوفري، ١٩٨٥م . البحث عن دلمون . ترجمة أحمد عبيدلي، ديلمون للنشر، نيقوسيا، ص ٣٧٢ .

٢١ – فيدال (٢٦) Vidal في سيرجنت، نظم الري في البحرين، بحث غير منشورص ١ .

٢٢ – الموصلي، ص ٣٢٠-٣٢١ .

٢٣ – كلارك، ص ١٧٤ .

٢٤ – كلارك، ص ١٧٤ .

٢٥ – جواد علي، علي، ١٩٧٦م . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٦٤٨ .

٢٦ – Larsen, C.E. 1983. Life and land use on the Bahrain Islands, the Geoarcheology of an Ancient Society. Prehistoric Archeology and Ecology Series, The University of Chicago Press. p85, 88, 204-205

٢٧ – بلجريف، جيمس، البحرين ترحب بكم، منشورات وكالة الخليج للإعلان والخدمات بالبحرين ص ١٠٢ .

٢٨ – جون مولوني؛ كلارك، ص ١٧٦ .

٢٩ – بلجريف، ص ١٠٢ .

٣٠ – آل خليفه، عبد الله بن خالد، وعلي أباحسين، ١٩٩١ م . البحرين عبر التاريخ، الجزء الثاني، مركز الوثائق التاريخية، دولة البحرين، ص ٢١٣ .

٣١ – كنجلي، جون، ١٩٧١، سلسلة القنوات المائية الاثرية المسقوفة، النجمة الاسبوعية، العدد ٢، السنة ١٥، ٣١ يناير .

٣٢ – بيبي، ص٩٨-٩٩ .

٣٣ – كلارك، ١٧٤ .

٣٤ – كنجلي، جون، مصدر سابق .

٣٥ – بلجريف، ص ١٠٣ .